سناء ركابي

التليدة

دمشق في بداية القرن العشرين



رواية

كنانة
KENANA

صندوق "الحكايا"

التليدة

دمشق في بداية القرن العشرين

- صندوق "الحكايا"ـ التليدة ـ دمشق في بداية القرن العشرين
- رواية
- سناء ركابي
- الطبعة الأولى 2021
- الإخراج والعمليات الفنية: منير الرفاعي

- دار كنانة للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ سورية ـ خليوي: 0933452275

بريد إلكتروني: kenana.p.h@gmail.com

سناء ركابي

صندوق "الحكايا"(١)

التليدة

دمشق في بداية القرن العشرين

رواية

2021

إهداء

إلى كل من حمل رسالة حب لبلاد الشام وأهلها وبذل الغالي والرخيص في سبيلها.

إلى روحك الطاهرة ...

إلى أمي وأبي ... البداية

إلى ابنتي وابني ... المآل والمُنتهى،

وإلى كل من مرَّ في حياتي فأغناها، سلباً كان أم إيجاباً

من قبيل الشكر والامتنان ...

كُتِبَت هذه الرواية بعد سنوات من الغربة تجاوزت الثلاثين؛ أنا بحق مدينة إلى مجموعة من الأصدقاء والمعارف الذين أمدوني بالمصادر والوثائق التاريخية اللازمة لنسج أحداث روايتي وتكرموا عليَّ بوقتهم ودعمهم واقتراحاتهم لصياغتها بالشكل النهائي الذي جاءت عليه.

Special thanks to Tess Fairbridge for her technical support in publishing, without which this novel may never have seen the light of day.

في أحضان جدتي (1)

دمشق - نيسان، أبريل، ١٩٦٠ ميلادية

البيت الكبير

سألتني بعد أن أسبغت عليَّ ديباجتها الحنونة إن كنت أحب مرافقتها غداً، هززت رأسي موافقة. كانت تناديني بابتسامة تطل دائماً من عينيها اللوزيتين "يا ست البنات" ولذلك نادراً ما رفضتُ لها طلباً. أنهيت واجباتي المدرسية على عجل وتهيأنا كعادتنا في الصباح الباكر لزيارة بيتها البديع في حي "ساروجة" الدمشقي، الحي الذي كان يُدعى يوماً إستنبول الصغرى.

تركت جدتي منزلها الرحيب والحارة التي كانت تقيم فيها بعد وفاة أبو زكي، تلته أم زكي. قام كلاهما على خدمة البيت الكبير بكل صدق وأمانة. جاءت جدتي لتقضي ما تبقى لها من العمر عند والدتي، آخر العنقود، السكر المعقود، كما كانت تحب أن تدعوها، بعد أن نَهب الخدم قطعاً ثمينة من مقتنياتها وامتدت أياديهم إلى ذهبها ومصاغها.

أيقظتني باكراً صبيحة يوم الجمعة بعد أن هاتفت مكتب "التاكسي" وطلبت "أبو محمود" السائق الذي يعرف جيداً كيف يناور حارات دمشق القديمة. يقلنا السائق في رحلتنا هذه بسيارته الصغيرة عبر حاراتٍ وأزقَّة مغرقة في الرهافة والالتواء، أرقبُها من النافذة الصغيرة بعيون ناعسة وأجفانٍ نصف مُقفلة مُلتصقة بجدتي أنشدُ دفء حضنها وأنفاسها. يقف السائق بالسيارة عند نقطةٍ يتوجب علينا بعدها أن نمشي. بعد أن تنقد السائق أُجرته وتزيد عليها، تُخرِجِ جدتي من حقيبتها السوداء ذات الوجه اللامع غطاءً شفافاً أسود اللون من "الكريب جورجيت" تفرده بعناية وترميه على رأسها ووجهها وتسدله بسخاءٍ على كتفيها.

ننزل من السيارة، تمسك بيدي ونبدأ رحلتنا القصيرة مشياً على الأقدام عبر حارةٍ ضيقةٍ طويلة يقف في صدرها بابٌ خشبيٌ عملاقٌ بدفتين هو باب بيتها.

تمشي جدتي في حارتها بخفة صبية في العشرين؛ هامتها مرفوعة، خطواتها قصيرة، واثقة، ورشيقة. الرجال من المارَّة عندما يرونها تقترب يفسحون لها الطريق. يقفون بأدب، عيونهم في الأرض وظهورهم تكاد تلمس حائط الحارة. ينكِّسون رؤوسهم عندما تَعْبُرُ من أمامهم ويلقون عليها تحيتهم الخجولة ملحقة بلقب "ستنا الشريفة".

سألتها بعد ظهيرة يومٍ رائقٍ عن هذا اللقب؛ ابتسمت بحزن، قالت:

- هو ميراثي من أبي؛ كان رحمه الله من سلالة آل البيت وكان كومندان بلاد الشام كلها ورئيس ديوانها العرفي.

أدنتني منها حتى شعرتُ بحرارة أنفاسها تلفح وجنتي، همست في أُذني بكبرياءٍ أهاجته الذكرى:

- لم يُشنَق على زمن أبي أحد.

هززتُ رأسي مزهوَّةً بأبيها!

* * *

ما إن يدور المفتاح بباب الدار الخشبي الخارجي الذي لا ينبئ بأي حال عما يخفي وراءه، حتى أدلف منه راكضةً إلى مدخل البيت الفسيح.

مدخل البيت واسع ببلاطٍ رخامي وسقفٍ خشبيٍ مرتفع فيه علِّية مخفية يفضَحُها سلم خشبي يلتصق بحائط جانبي بحميمية العاشق المحروم. عرفتُ من جدتي أنها الغرفة المخصصة لسائقي العربات، أيام ما كان هناك عربات. يقابل باب البيت درج خشبي مهيب يؤدي إلى الدور العلوي. تحت الدرج يكمن باب يُفتح على ممر ضيق في نهايته نافذة

صغيرة تحتها مغسلة وبجانبها باب يؤدي إلى حمام صغير فيه دورة مياه.

إضافة الى الدرج، هناك ثلاثة أبواب في مدخل البيت. الباب العملاق الخشبي الذي دلفنا منه، وباب ثقيل من المعدن الأصم بإطار خشبي منقوش تتوسّطه "سقّاطَة" نحاسية ضخمة. يؤدي هذا الباب الى أرض الديار الواسعة. أما الباب الثالث فهو من الخشب الفاخر منقوش وملون ويُفتَح على المُربَّع "البراني"[1] الذي يُفتح بدوره على "الليوان"[2] ومنه إلى القاعة، أو "الآعة" بلغة الدمشقيين، ببابها المقنطر وبدفتين من خشب "الأرابيسك" الملون، المنقوش والمطعَّم بالنحاس الأحمر والأصفر.

بني البيت الكبير من حجارة صلدة ملونة. تمتزج واجهات حجارته البيضاء الزهرية مع مثيلاتها السوداء والصهباء فتبدو في تناغم معماريٍ هادئ تحت شمس الصيف وحضورٍ جريء تحت مطر الشتاء. الجدران المحيطة بأرض ديار جدتي لها قواعد عريضة وسميكة من حجارة البازلت الأسود نضدت فوقها، لحمايتها من أعين الفضوليين، كتل من الحجارة حشيت فراغاتها بالتبن أو القش وكُسِيَ وجهها بعناية بقشرةٍ كلسية بيضاء ملساء. أرض ديارها مترامية الأطراف ومرصوفة برخام كان يوماً وردياً لامعاً دعكته أيادي الزمن وجارت عليه فخبا لونه وتشقق.

يتصدر أرض الديار الليوان بقوسه و"مقرنصاته"[3] و"كتبياته"[4] الخشبية الفارعة بحوافها المُذَهَّبة المنقوشة. يطلُّ الليوان على بحرة كبيرة من الرخام تتفرع عنها سواقي كانت يوماً جارية. تتشعب هذه السواقي بتناسق هندسي لتسقي الأشجار الوارفة من النارنج، السفرجل، الكباد، الأكيدنيا، الليمون، المجنونة، والياسمينة العراتلية، والأحواض المبحترة بدلالٍ في الأرجاء والحافلة بأنواع الزنبق البلدي، الورد الجوري، القرنفل، الفل، النرجس، والبنفسج.

لم أذكر بعد دوالي العنب الثلاث التي تنام على أكتاف دعائم خشبية وتتسلق أغصانها بفضولٍ فاضحٍ "طبلة"[5] الجيران. قرب الحديقة، شجرتا تين إحداهما "دكر" والأخرى "انتاية" تجاورهما أشجار الرمان الحامضة واللفَّانة.

في زاوية هادئة قريبة من الدرج الرخامي البازلتي في مقدمة أرض الديار تقبع حبلاسة عجوز غافية على جذعها، وارفة ودافئة كحضن جدتي. كم كان يحلو لي قضاء أوقات الظهيرة في رحمها أراقب أسراب النمل وهي تسعى إلى قراها بهمة وشغب لا يعرف الكلل.

بعد تجاوز مدخل البيت عبر باب أرض الديار بأمتار قليلة تنتصب على اليمين في حوض نصف دائري من الرخام شجرة الياسمين البهية، معشوقتي. سخية بطولها، تفرش أغصانها بوله وشوق على خد الدرج البازلتي الفسيح الذي يؤدي إلى الطابق العلوي. يمسُّ ياسمينة جدتي عواصف العشق وجنونه كل صيف فتفيض بشلالات من الزهور يتضوع عطرها في الآفاق ليفضح حباً يباركه الجميع.

تنتهي أرض الديار بحديقة صغيرة مسوَّرة تختبئ في أطرافها بيوت الخدم ومدخل آخر للبيت قريب إلى المطبخ تمَّ إلغاء بابه الخشبي الواطئ بعوارض خشبية سميكة وقضيبين من الحديد تعانقا بوهن بعد أن علاهما الصدأ.

يلي باب "الآعة" المجاور لليِّوان "صالية"[6] مخصصة للطعام و"مُربَّعين"[7]، كلٌّ بعتبة ونوافذ واسعة، يستظلّان بحسن جوار شجرتين من النارنج والكباد. لكل مُربَّع مدخل مُقَنْطر وباب منيع من المعدن بإطارٍ خشبي يُفتح بمفتاح حديدي كنت أعجب لثِقل وزنه وكبر حجمه.

قبل البناء المخصص للمطبخ والحمَّام القابع على حدود الحديقة،

يربض درج واطئ من الرخام موشح بلون أخضر باهت يقع ناحية الغرب. لهذا الدرج بوابة بهية تؤدي إلى دور علوي يوناني الملامح تزينه قناطر وأعمدة رخامية منقوشة. كان محرماً عليَّ الاقتراب من هذا الجزء من البيت لحاجته إلى الترميم.

لكم راودتني نفسي على عصيان الأوامر لأطَّلع على سر هذا البناء المهيب، لكن دون جدوى. كان لجدتي "رادار" عجيب يحبط كل محاولة خطَّطتُ لها أو قمتُ بمحاولة تنفيذها.

أعود إلى المطبخ وحمَّام البيت المجاورين للحديقة؛ كانا عالماً آخر. عالم لا يمت لما نعرفه عن هذين المرفقين بصلة.

المطبخ واسع يتسع لأمة من الطهاة والخدم، يعج بحلل من النحاس الأحمر والأصفر بديعة الاستدارة متقنة الصنع محمولة بسلاسل مجهزة ببكرات لرفعها وتنزيلها على مواقد أرضية. يحتل التنُّور وطاولة الخبز الخشبية الداكنة والتي لا زال وجهها معفرا بالبياض زاويةً نائية؛ يجاور التنور رفوف بل بوارج خشبية يقبع عليها المزيد من الحلل والأدوات المطبخية والفخار. ملاعق جدتي بطولي، وسكاكينها مصلوبة على الجدران تتطلع بحزم إلى "الكفاكير"[8] التي اصطفت كأطفالٍ انتظموا بصمتٍ وهلع في طابور المدرسة الصباحي. في مطبخها مشابك حديدية تتدلى من السقف للذبائح وأخرى على شكل مظلة معدنية كبيرة لكنها مقلوبة يمكن رفعها وخفضها بسلسلة قالت لي بأنها كانت تُسْتَعْمَل لحفظ الخضار بعد غسلها وتنظيفها! مطبخها عالمٌ سحريٌ يلف رأسي بألف سؤال.

أكثر ما كنت أتمنى أثناء زياراتي لبيت جدتي في طفولتي أن تسمح لي بأن أعتمر أحد "الكفاكير" كقبعةٍ وأجلس في واحدة من تلك الحلل النحاسية المهيبة. أحلم بصوتها الملائكي يهدهدني مترافقاً بأنين البكرة

الصدئة التي تديرها لرفعي وتنزيلي حتى أغفو. حلم دافئ ولذيذ خبَّأته بعيداً عنها كي لا أُغضِبها فقد أحببتها وأحببت عالمها الذي عايشته في دفء عينيها مع كل زيارة نقوم بها معاً الى بيتها.

حمَّام جدتي ثلاث غرفٍ صغيرة تتعانق بوجدٍ وشوق تسمح للزائر بأن يلجها الواحدة تلو الأخرى وفق مراسم ومواقيت لا يجوز الإخلال بها. الحمّام عند جدتي ميثاقٌ غليظ، فقد كانت من أصول تركية، وكانت أصيلة.

* * *

كنت أقف في بهو البيت الفسيح أنتظر بلهفة أن تفتح جدتي حقيبة يدها لتطال منها حلقة معدنية تضم حزمة من المفاتيح العملاقة. أرقب بدهشة كيف تنتقي من الحزمة التي تبدو مفاتيحها متطابقة مفتاح أرض الديار دون أي تردد.

عَبَّرْتُ لها مراراً عن دهشتي لبراعتها في انتقاء مفاتيح بيتها بهذه الدقة. كانت في كل مرة تبتسم بحنان يشوبه بعض الكبرياء وتقول: "عندما تكبرين سيكون لك بيت وستعرفين مفاتيحه". لم يكن بالطبع هذا الجواب ليرضيني، لكنها كعادتها، تأخذني بجوابها الحاسم إلى أفقٍ فرِحٍ فأُصَدِّق بأنه سيكون لي بيت وحزمة من المفاتيح العملاقة لعالم سحريّ كعالمها، عالم أبهى من قصص ألف ليلة وليلة.

آه، لو تعلم ما آلت إليه دمشق.

يدور المفتاح في قفل الباب المعدني في بهو البيت المؤدي إلى أرض الديار فتصدر عنه أنَّاتٌ وتأوهات، تنكز جدتي الباب بكتفها فتهز "السقاطة" المعلقة عليه جذعها بفرح وتزغرد بصخب مرحِّبة بقدومنا.

ما إن ينفرج الباب حتى أسارع إلى أرض الديار. أقف مقابل الياسمينة التي فاضت حباً ففضحتها مئات الزهور البيضاء الفواحة التي لا

زال البعض منها ممسكاً بتلابيبها بينما ركع البعض الآخر عند قدميها طلباً للصفح والمغفرة. أهمُّ أنا بلملمة ضحايا معشوقتي بالمقشة التي تقف على أهبة الاستعداد مستندةً على جدار "الداكونة"[9] فتبتسم عينا جدتي ممتنة للمبادرة ويستوقفني صوتها:

ـ نغير ملابسنا أولاً يا ست البنات.

تخطو جدتي بنشاط باتجاه الدرج الرخامي الواسع على يمين باب أرض الديار متجاوزة الياسمينة وأتراكض أنا خلفها بفرح وأتجاوزها إلى الدور العلوي.

أقف بجانب الباب في "المشرأة"[10] أنتظر وصولها لأرقبها مجدداً بنفس الدهشة والفضول تنتقي من الحلقة المعدنية مفتاح الطابق العلوي.

تناور جدتي القفل بخبرة العالِم فيفتح الباب لها مِصْراعَه بولاء. عندها فقط أزداد ثقةً بأنه سيكون لي بيتٌ كبيتها وحقيبة يد سوداء واسعة بوجهٍ لامع ويد قصيرة وقفل فضي أنيق، وسأخبئ فيها حلقة معدنية تحمل مفاتيح بيتي، محفظة جلدية بنية داكنة اللون أضع بداخلها علبة سجائري من نوع "كنت"، حافظة للنقود جلدية بجيوب متعددة ومنتفخة، ولاعة ذهبية بخيوط بلاتينية ولا بأس إذا كانت مزاجية لا تعمل بانتظام، علبة أو علبتي كبريت ماركة "المدفعين" للُّزوم، دفتر صغير شائخ الوجه أحفظ فيه أرقام هواتف أولادي، أهلي، أصدقائي، منديل أبيض من الحرير المطَرَّز ومروحة صغيرة شاخ قفلها ولم يعد قادراً على ضبطها أستعملها "للهبَّات الساخنة" التي تنتابني، و"ميل"[11] لأحمر الشفاه داكن لونه أستعمله في المناسبات.

لم أُقرر بعد ما إذا كنت سأحمل في حقيبة يدي علبة معدنية صغيرة فيها حبوب كالخرز لعلاج الإمساك أو كيساً صغيراً من النايلون أضع فيه

القليل من الزعتر الأخضر لتزكية رائحة فمي بعد التدخين. لا أحب هذا النوع من الزعتر، له طعم لاذع لا يعجبني. لن يكون لي حاجة لكيس الزعتر ورائحته النفاذة فأنا أكره الدخان ولطالما شكوت لجدتي من رائحة سجائرها عندما تعانقني. كانت تضحك بمرح وتقول:

ـ رحم الله جدَّك، كان هو أيضاً يكره رائحة السجائر.

* * *

ندخل فناء الطابق العلوي فتبادر جدتي فوراً إلى فتح الستائر ورفع النوافذ المطلة على أرض الديار. تفتح في طريقها أبواب غرف النوم التي يتوسطها بهوٌ واسعٌ في طرفه مكتب وفي صدره مكتبة تزدحم رفوفها بكتب ومجلدات ولفائف يبدو أنها من مخلفات المرحوم جدي.

أتعمد الوقوف مقابل الشباك المطل على "المشرأة" عند فتحه لأنعم بمداعبة نسيم الصباح العليل. يأتيني مترنِّحاً تفوح من جنباته رائحة الياسمينة؛ أعرف عندها أنه قضى الليل بصحبتها وبأنها أسكرته بعطرها حتى الثمالة.

كم أحنُّ لنسمات دمشق الصباحية الرقيقة المُشْبَعَة بعطر الياسمين ...

غرفة نوم جدتي واسعة ونيِّرة؛ صُمِّمَت نوافذها بهاماتها الخشبية السامقة لتطل بفضول على الحارة الوادعة. كانت نقوش وزخارف كل "خِص"[12] خشبي ليست فقط متطابقة، بل كانت مفرغة بدقة وجمال كأنَّها محاكة من قماش "الدانتيل". تمُكِّن هذه "الخصوص" الواقف داخل الغرفة من أن يرى الحارة بكل تفاصيلها بينما يُحرم على عابر السبيل فيها حتى من نعمة التخمين بأن هناك من يراقبه.

خزانة الثياب بخمسة أبواب من خشب الجوز الداكن المحفور بإتقان، تزينها آلاف الفصوص الصدفية. تلامس الخزانة سقف الغرفة

بمرآة كبيرة يعلوها تاج خشبي مُصَدَّف. لم أر من قبل مرآة تميل بجذعها باتجاه الناظر إليها! هل كانت تحيينا؟!

سرير غرفة النوم نحاسي بأعمدة أربعة. كان مرتفعاً وواسعاً بسعة الابتسامة التي تطل من عينيها وهي تراقبني أحاول الصعود إليه بسلم صغير. للسلم درجات ثلاث مكسوة بقماش أحمر شاخ لونه وتنسَّلَت خيطانه.

أتسلق سريرها وأجلس أترقب أن أبدأ رحلتي مع صندوق خشبي حواشيه مبطنة بمخمل أسود كالح اللون، تخرجه جدتي من درج "البيرو"[13] وتضعه إلى جانبي. تنام في هذا الصندوق حكايات العشرات من الأشخاص؛ صور كبيرة وأخرى صغيرة باللون الأبيض والأسود.

أفتح الصندوق بلهفة وتقبض أصابعي بحرصٍ على مجموعة من الصور. أعِدُ جدتي، بصوتٍ واثق وبنبرةٍ صادقة، أن أعيد ترتيب الصور في الصندوق كما علمتني، الأكبر فالأصغر. تهزُّ رأسها علامة الرضى وتبتسم لي عيناها من جديد.

كنت أجد متعة حقيقية في التحديق في شخوص تلك الصور خاصة أنني أعرف العديد منها بعد أن شاخت وجوههم وانحنت هاماتهم. جدي، كما يبدو في صوره، بهي الطلعة، أسمر البشرة، طويل القامة، عينان سوداوان واسعتان، وقسمات في غاية النبل والوسامة. للأسف، أنا لا أعرفه، توفي قبل ولادتي.

أرفع صورة جدِّي عالياً لأعبر لها عن دهشتي للشبه الكبير بينه وبين خالي. تهز رأسها موافقة ثم لا تلبث أن تزم شفتيها وتعقد حاجبيها وتسرح في نظرها جهة صورةٍ أخرى له معلقة على الحائط المقابل لمكان تسريحتها. تبتسم للصورة بعد تأملها:

ـ لا، لا أحد يشبهه!

تنكس رأسها وتُكمل بصوتٍ خفيضٍ:

ـ كان باراً بوالدته، رحمها الله.

ما إن أسمع تعليقها حتى أبحث فوراً بين الصور عن صورة عمتها نظيرة، والدة جَدِّي. أنتقي من الصندوق صورة لسيدة تجلس على كرسي فخم بملابس رغم غرابتها أنيقة؛ شعرها مرفوع ومشبوك بعناية في المقدمة بتاجٍ ماسي وفي أذنيها أقراط وفي جيدها عقدٌ ماسي يغطي فتحة الصدر. يبدو من الصورة أنَّها شقراء بعيون فاتحة قالت لي جدتي بأنها خضراء. لا أدري لماذا كانت عابسة في صورتها اليتيمة هذه رغم أنها كانت هي الأخرى جميلة وبديعة التكوين.

أرفع صورة عمتها فتضحك جدتي وتترك مسح الغبار الذي بدأته بعد تغيير ثيابها. تجفف يديها في ذيل ردائها الفضفاض وتجلس إلى جانبي.

أنتقي لها من بين عشرات الصور بعضها، وأنظر إليها متسائلة فتبدأ بسرد ذكرياتها عن أشخاص كانوا محوراً لحياتها وآخرين كانوا في عداد العابرين.

* * *

أمنِّي النفس في كل زيارة لبيتها بهذه الجلسة الهانئة. أفتح "صندوق الحكايا"، كما كان يحلو لي أن أسميه، فتدب الحياة في شخوصه؛ يفيضون حباً وشوقا حيناً، وحزناً وحسرةً أحايين أخرى. أعيش تفاصيل حياتهم عبر تعابير وجهها، وتنتقل إليَّ مشاعرهم عبر رنِّة صوتها. أقرأ حركة يديها وأنتبه لرعشة جفنيها فأسعد لأفراحهم وأحزن لأتراحهم.

بديعةٌ هي في تعبيرها عندما تُسْهِب، رشيقةٌ هي كلماتُها عندما

تمتَدِح، وقاسيةٌ عندما يتملَّكها غضبٌ مفاجئٌ من شخصٍ كان قد أساء إليها أو من أشخاص كانت تعتقد بأنهم لم يبرُّوا الوطن.

يكفي في معرض حديثي أن آتي على ذكر اسم خليل، الأخ الأصغر لوجيه، جَدِّي، لأشعر بالحرائق التي تجتاح كيانها؛ رعشة يديها وانتفاضة كتفيها تشي بألم الذكرى؛ ذكرى يبدو أنها كتمتها في أعماقها وفشلت السنين المديدة التي مرت عليها في مَحوِها.

نال الراحلان رضا الركابي[14] ومن بعده حسني الزعيم[15] نصيباً كبيراً من عدم الرضى. لم أع وقتها سر تحاملها عليهما، لكنني لمستُ الإحباط في صوتها والاستنكار الشديد في عينيها كلما وقعت يدي على بعض الصور التي كانت تجمع جدي بأحدهما وأشخاصاً آخرين لم أعد أذكر أسماءهم.

* * *

الوقت قارب الظهيرة واليوم الجمعة.

أول جمعة من كل شهر هو موعد لقاء جدتي بإخوتها في بيتها؛ يتقاطرون لزيارتها بعد الصلاة في مواعيد لا يُخلِفونها.

* * *

لجدتي من الإخوة أربعة، سليم، محمود، مصطفى، ومراد وأخت واحدة، نازلي. جدتي هي البكر، الجليلة، التي حلت مكان والدتها بعد وفاة أُمِّها المفاجئة والمبكّرة. لم يتزوج والدها بعد وفاة والدتها واستعاض بحنان ابنته البكر، فاضلة، ومحبة ودلع أختها الصغرى نازلي.

نازلي، كما روت لي جدتي، تعيش حالياً مع ابنتها الوحيدة ميَّاسة التي رفضت الزواج حرصاً على مستقبلها العلمي والمهني. لم تكن ميَّاسة مُستقرَّة بحكم عملها الدبلوماسي لكنها تعيش في السودان بصفة شبه دائمة مستشارة وأستاذة للاقتصاد في جامعة الخرطوم. ابتَعَثَتها الحكومة السورية

ممثلة لبلدها ضمن حملة التعاون الثقافي بين البلدين.

كان التعاون بين الأقطار العربية، في فترة الخمسينات والستينات، مطلباً جماهيرياً يحرص الساسة على اتِّباعه إرضاءً للمواطنين وحس انتمائهم لوطن كبير غني ومتنوع الأديان والأعراق. لا أدري كيف حُشرنا أو حَشَرْنا أنفسنا، نحن العرب، في حاويات التآمر على بعضنا، فانتهينا إلى مزابل الإنسانية. كان لنا في بدايات القرن العشرين مستقبل واعد، كما أوروبا وربما أفضل، لكننا تقهقرنا. غيبنا وعينا فغامت عقولنا وانتُهِكَت كرامتنا بأيدينا! أصبح انتمائنا لشراذم تدَّعي أصول عرقية غيبها التاريخ أقوى من انتماءنا الإنساني والحضاري والاقتصادي. يريدونها دويلات دينية مذهبية أو عرقية متناحرة. العالم يتوحد لدعم الاقتصاد وتحقيق الازدهار والتقدم ونحن ننقسم ونتناحر لاختلاف الدين أو المذهب الديني. عندما لا يكون الدين حجة مُقنعة للانقسام نلجأ للاقتتال تحت راية العرق! قلة وعينا وضحالة أفكارنا علَّة تخلفنا. ما علينا؛ لم يعد الكلام مفيداً ...

* * *

تحتفي جدتي بزيارة إخوتها باستقبالهم في "الآعة"، الغرفة البهية التي لا ندخلها إلا صبيحة أول جمعة من كل شهر لتنظيفها.

فور دخولنا إلى "الآعة"، تتناول جدتي سُلَّماً صغيراً هرمياً تضعه بجانب النوافذ الواسعة. تتسلَّق السلم وتسمح لضوء النهار بالعبور بإبعاد الستائر المخملية الخضراء الثقيلة. تبدأ بعدها برفع الأغطية الكتانية البيضاء المُسبلة على المفروشات لتكشف عمَّا خفي تحتها من وسائد وأرائك ومقاعد من خشب الجوز الداكن محفورة ومنقوشة بورود وأزهار مطعمة بالصدف المُقَزَّح ومُعَشَّقة بأسلاك دقيقة من الفضة.

لطالما تأملتُ بفضول وجوه هذه المفروشات المكسوة بالديباج

الدمشقي؛ نسيجٌ حريري بلون وردي يتداخل فيه لون هو بين الأخضر الفاتح والسماوي الرائق كسماء دمشق عند الغروب عليه رسومٌ حيكت بألوان متناغمة تحير الناظر إليها. غزلان، طيور، طواويس، أشجار، نباتات، وأزهار غريبة الأشكال بديعة الحياكة، بهتت ألوانها وخف لمعان خيوطها لكنها لا زالت تحكي، وبإصرار الصادق الأمين، قصة الأيادي الدمشقية التي حاكتها بحب، وألبستها رداء الوفاء بكبرياء.

تبدأ "الآعة" في البيت الكبير بمدخل واسع يفصله عن العتبة بحرة كبيرة مثَمَّنة الأضلاع من المرمر الأصفر تتخلله ومضات خضراء هامسة.

تنام هذه البحرة البهية في حضن قبة مُرتفعة تزينها نقوش خشبية مذهَّبة ورسومات هندسية نوافذها من زجاجٍ ملون بألوان الفرح، يغمرها النور خلال النهار من جهاتٍ متعددة فيعكس على مياه البحرة ألوانه البهيجة.

لهذه القبة السامقة "معسفة"[16] تلوح بها جدتي عالياً تلملم بها الغبار وخيوط العناكب التي اتخذت من القبة مكامن تعشش فيها بأمنٍ وأمان.

عندما تسمح جدتي للمياه بالتدفق في بحرتها، تنفلت المياه من مكمنها بنشوة وتعلو عبر ورودٍ نحاسية لتهبط بميوعة ودلال ناشرة رذاذاً يتطاير على استحياء ناثراً قبلاتٍ ناعمة ترطب حنايا البحرة المرمرية العطشى للقاء. ما أعذب "السيمفونية"[17] التي تعزفها المياه المنفلتة من بحرة جدتي وما أرقَّ الرسوم التي تطرزها قبلات رذاذها المتطاير.

تتابع جدتي رفع الأغطية عن المفروشات وتوجهني إرشاداتها الآمرة أن أتلطف في حركتي حولها حتى لا أثير الغبار! تحمل أكوام الأغطية بمفردها وعلى دفعات لتنفض غبارها بعيداً قرب الحديقة. أتراكض خلفها، فتقف وتلتفت إليَّ بعد أن تعقد حاجبيها. تأمرني زمَّة شفتيها أن أبقى

مكاني؛ أقف دون حراك.

قالت لي يوماً انَّها تخاف على صدري من عجَّة الغبار؛ لكن ماذا عن صدرها؟ أنا أيضاً أخاف عليها. عندما تجرأت يوماً على مصارحتها لتسمح لي بمساعدتها، ضحكت حتى دمعت عيناها واحتضنتني بدفء. قالت:

- أتخافين على صدري؟

هززتُ رأسي.

انحنت، قبلتني، قالت بأسى:

ـ لم يبقَ في العمر أكثر مما مضى؛ العمر الطويل لك أنتِ يا ست البنات.

لم أفهم لكني هززتُ رأسي موافقة. لاحت ابتسامة الرضى في عينيها.

عند عودتها من مهام نفض الأغطية، ورغم تعليماتها الصارمة، أستل مكنسة صغيرة لأكنس معها مدخل "الآعة" مصطنعة الحذر مع ذرات الغبار العنيدة التي تأبى إلا أن تثور في وجهي. تضحك جدتي لمحاولتي البائسة وتسحب المكنسة من يدي .تغمرني بساعديها وترفعني لتجلسني بعيداً على مقعد خشبيٍّ في زاوية الغرفة. تعود على عجل لإتمام مهامها.

عندما تنتهي حفلة التنظيف هذه، أهبُّ لأُساعد جدتي في مد السجادة الحريرية الأصفهانية العملاقة الملفوفة على نفسها والقابعة على الأرض في صدر "الآعة". يختبئ في حضن السجادة عندما نفردها كيس من الكتان يحتوي على حبيبات بيضاء برائحة نفاذة. كانت جدتي ترفع كيس الكتان هذا بعد تحذيري من الاقتراب منه وتخفيه في صندوق صغير مُحكم الإغلاق.

تُمسِّد السجادة العملاقة بعناية بقدميها الحافيتين وتُسرع بعدها لتنير الثريا التي تتوسط الجزء العلوي من "الآعة"، تضغط في طريقها مفاتيح النور المتناثرة على الجدار لتنير أركانها. تتألق ترابيع فسيفساء الآعة تحت الأنوار وتنعكس أطيافها على زجاج "الكتبيات" الخمسة العملاقة المزخرفة بعروق الذهب.

تلتمع خلف أبواب الكتبيات الزجاجية محتوياتها من شمعدانات، فوانيس، مجامر لعطور العود والعنبر، قوارير زجاجية مذهبة ودقيقة برؤوس فضية وذهبية لماء الورد، مزهريات صيني بنقشاتٍ بديعة وأحجامٍ مختلفة، أوانٍ فضية، مجموعة نفيسة من غلايين تدخين ومسابح من الكهرمان المُطعَّم بالفضة، نياشين جدي وجد والدتي.

تقف جدتي بعدها لدقائق في ذيل "الآعة" تتأمل الغرفة برمَّتها. أربض حينها في مكاني ساكنة أرقبها تغيب عني. يأخذها خاطر أو بالأحرى خواطر إلى عالمٍ آخر، عالمها.

تعود إلى عالمنا عندما تلوح لي ابتسامتها، ابتسامةً ممهورةً بعبق الذكريات ومرارة الفراق. أبتسم لها تعبيراً عن مشاركتي لها فرحها أو ربما حُزْنها؛ لا أدري!

تخطو بعدها إلى أقرب كرسي وتتهالك عليه.

تمدُّ يدها لترفع عن شعرها الغطاء الذي عقدته بإحكام وتبدأ بفك مشابك شعرها بتمهل واسترخاء.

تهزُّ رأسها بخفة لينهمر شعرها الفضي بتموجاته الرقيقة على كتفيها. تنظر عيناها اللوزيتان إليَّ لتعلن أن وقت اغتسالنا وتغيير ملابسنا قد حان.

سنكون على أهبة الاستعداد لاستقبال إخوتها الأربعة.

* * *

رن جرس الباب، وكان أول الزائرين كعادته أخ جدتي الأكبر سليم. هو طبيب يرأس المستشفى العسكري وله عيادة في منطقة شعبية في دمشق يطبِّب فيها أهل المنطقة الفقراء ويصرف لهم أدوية دون مقابل. بعد وفاته تابع الابن رسالة والده في الطب وفي نفس العيادة بعد أن خصص لفقراء المنطقة ثلاثة أيام من كل أسبوع للعلاج المجاني.

الخال سليم، قصير القامة نحيلها، في وجهه وسامة ونبل. ينحني في كل زيارة ليُقبِّل يدي جدَّتي وتحتوي هي بدورها وجهه وتقبل جبهته. يجلس بجانبها على بساط الأدب ويتكلم معها بصوت خافت. يطمئن أولاً على صحتها ثم يسرد عليها أخباره وأخبار زوجته وولديه. لم تتغير ابتسامة الخال سليم عما كانت عليه من عقود مضت؛ فهو عندما يبتسم ابتسامته العريضة الرائقة تلتمع أسنانه البيضاء وتضيق عيناه وتلتمع هي الأخرى ببريقٍ ساحرٍ. كان كلما ابتسم ابتسامته الواسعة تلك، حضرت إلى ذهني صورة بالأبيض والأسود من القطع الكبير جلس فيها على كرسي مرتفع والد جدتي نوري باشا بلباسه العسكري الرسمي وفي حضنه الخالة نازلي. وقف أولاده الأربعة، سليم، ومحمود عن يمينه، مصطفى ومراد عن يساره. وقفت حورية، ابنة أخته نظيرة، إلى الأمام بين سليم ومحمود ووقف أخوها خليل بين مصطفى ومراد. ظهر الجميع في الصورة في منتهى الجدية إلا حورية وسليم. ظهرت ابتسامة حورية حائرة كأنها تداري ضحكة كادت أن تنفلت، أما ابتسامة سليم فجاءت واسعة كعادتها. سألتُ جدتي صبيحة يومٍ ربيعي دافئ عن سر غيابها وجدي وجيه عن هذه الصورة قالت:

- أُخِذَت هذه الصورة في بيت أبي في اليوم الذي تلا يوم زفافي على ما أذكر.

هززتُ رأسي موافقة.

سألتُها:

- لا أحد يبتسم سوى العمة حورية والخال سليم.

حركة رأسها، رعشة ذقنها، والابتسامة الحزينة التي لاحت على شفتيها نبّهتني إلى ضرورة الحذر من إثارة مشاعرها.

سارعتُ إلى تغيير الحديث.

- أمي لا تشبهك يا جدتي، تشبه عمَّتها.

لاحت ابتسامة باهتة على شفتيها وتمتمت:

- تؤخذ البنات من صدور العمَّات.

تركت التنظيف. جفَّفَتْ يديها بمنشفة صغيرة كانت على كتفها وتقدمت بخطوات هادئة. جلست إلى جانبي على طرف السرير. أخذت الصورة من يدي وأحاطت كتفي بيدها الأخرى. تأمَّلت الصورة ملياً، اختلج جفناها وتزاحمت دموعٌ في عينيها.

- ما بك يا جدتي.

- أبداً، هو العمر؛ مرَّ كالحلم.

مسحت بأطراف أصابعها دمعة غلبتها وأردفت:

- والدتك يا ست البنات نسخة عن عمتها حورية في كل شيء عدا صوتها. كان لحورية صوت سماوي رقراق، أُدندن لها على العود فينطلق من حنجرتها عصفور حبيس يشدو بتحنان تسيل له القلوب في الضلوع. كان أخي سليم مغرم بحورية. أحبَّها كما لم يحب رجل امرأة، بل هام بها. لم تبادله الحب، ملك قلبها رجل آخر.

- لماذا لم تُحبّه؟

ابتسمت جدتي برفق وقالت:

- هو الحب، ستعرفينه يوماً.

- أنا أعرف الحب، أحبكِ وأحب أمي وأبي وإخوتي والخال سليم!

ضحكتها التي علت أساءتني؛ لاحظت ارتباكي؛ لملمت ضحكتها بسرعة

وواستني بأن ضمَّتني إليها وقبَّلت جبيني.

سألتُها:

- أين العمة حورية؟ أنا لا أعرفها.

ـ اسأليها.

وأشارت إلى الصورة. أضافت وهي تنهض من جانبي لتغادر غرفة نومها:

ـ سأرفع الغبار عن الكتب في مكتبة جدك، لا تغادري السرير.

جلستُ في مكاني متربعة أحدِّق في صورة العمة حورية.

هي في هذه الصورة فتاة صغيرة، أصغر من أمي، وأطول قامةً منها. لا، لعلها تبدو طويلة لطول الثوب الذي ترتديه. ثوبها بديعٌ في تصميمه وتطريزه؛ تُرى ما لونه؟ تقف مرفوعة الرأس وقد أسندت جذعها وأراحت كفَّها على طرف طاولةٍ طويلةٍ ضيقة ومُرتفعة؛ ظهر على يسارها مزهرية دائرية كبيرة من "البورسلان" الصيني عجَّت بالورود وشغل شمعدان هائل من "الكريستال" الطرف الآخر من الطاولة.

أضفت تلك الابتسامة الحَيْرى على وجهها لمسةً من السحر والعذوبة وبدا شعرها الأسود الطويل المتماوج من تحت "تول" القبعة "الدانتيل" الصغيرة التي وضعتها بشكلٍ مائل على جانب رأسها كأمواجِ بحرٍ هائجٍ في ليلةٍ حالكة السواد؛ شعر غجرية على هامةٍ ملائكية، كشعر أمي.

كم هي جميلة!

غلبني النعاس.

نمت.

* * *

دبَّت الحياة فجأةً في صندوق "الحكايا"؛ استقامت هامة حورية الملائكية وبدأت في سرد حكايتها.

حورية[1]

دمشق، ١٩١٠ – ١٩١٣ميلادية

[1] يقع مخطط شجرة عائلة شخصيات الرواية في صفحة المراجع.

وخفق قلبي له

غمرت شمس الصباح الكون بضحكتها، ولا زلتُ أنا في سريري أتمطى. كنت أسمع صوت أمي قادماً من بعيد ترطن بالعربية والتركية توزع على الخدم والخادمات أعمالهم.

هذا البيت لا يهدأ.

سافر خالي نوري باشا على عجل بعد أن استدعاه الباب العالي في إستنبول واصطحب معه في مهمته مستشاره، أخي وجيه.

نحن نتهيأ اليوم لاستقبال أولاد خالي للغداء.

مُشتاقةٌ أنا لابنة خالي الصغيرة نازلي وللثغتها بحرف الراء عندما تناديني "حوغية". هي كالفراشة. جميلة، رقيقة، ولا يفتر لسانها عن الكلام رغم أنها لم تتجاوز سنواتها الأربع. أذهلنا رحيل والدتها المفاجئ في شتاء العام الماضي. قالوا إنَّ زوجة خالي أصيبت بنزف شديد وحمى لم تمهلها بعد أن أجهضت جنينها. رحلت المسكينة في غضون ساعات. صدمنا موتها خاصة ابنتها فاضلة، زوجة أخي وجيه.

تكبرني ابنة خالي فاضلة بثلاثة أعوام. هي بيضاء كالياسمين بعينين لوزيتين ساحرتين وشعر كستنائي اللون بموجات شقراء ذهبية. فارعة القوام، رشيقة الخطو، لها إطلالة بهية كالأميرات.

فاضلة شديدة الشبه بأمي التي هي عمتها. قالت لي دادا آمنة إنَّ جمال فاضلة وقوامها الأهيف يُذكِّراها بشباب وبهاء والدتي عندما كانت صبية. أمي تُشبه عمتها، حكمت خانم ابنة الأميرة رافعة بنت السلطان عبد المجيد الأول.

أنا لا أشبه أمي البيضاء الهاربة من نور الصباح. أنا حنطية بلون رغيف الخبز الذي لدعته النار. آه، لدعني الحب وانشغل قلبي بالحبيب. كم أشتاق لرؤيته، لكن عليَّ أن أصبر. أنتظر انقضاء الخريف يليه الشتاء الطويل ثم الربيع. قدوم الربيع يعني البشارة بقرب اللقاء.

سافرتُ مع والدتي في أواخر الربيع الماضي لقضاء الصيف في الناصرة بضيافة حكمت خانم، عمة والدتي. تقضي العمة حكمت الصيف في سرايا ابنها سامي بك في الناصرة هرباً من حرِّ القدس وزحمة البشر التي لا تطاق هناك.

ـ القدس لا تشبه دمشق؛ الجو في القدس حار في الصيف جاف وبارد في الشتاء؛ جو دمشق ألطف وهواؤها أنقى.

هذا ما قالته العمة لأمي وأفرحني.

دمشق، ست الدنيا، معشوقتي؛ هي العروس التي تزين شعرها بالورد الأحمر الجوري وتمزج حنَّة يديها بعطر الفل البلدي، وتُزَفُّ لفارس أحلامها في كل ليلة بثوب من أزهار الياسمين. مدينة تنام في حضن التاريخ خلف أسوارٍ مشرَّعة الأبواب لكل من يرجو الحماية ويحمل في قلبه رسالةَ حبٍ للحياة.

* * *

أُغرِمْتُ بعارف، حفيد عمة أمي حكمت خانم، وهامَ هو بيَ عِشقاً.

التقينا، عارف وأنا، لأول مرة في بيتنا عندما زارنا في صحبة والده في دمشق من سنتين أو أكثر. لم أعد أذكر التفاصيل. كان لقاءاً عابراً لم أهتم له. كل ما أذكره هو ابتسامة رائقة لشاب وسيم داعب بلطف ضفائري المرسلة عندما جلستُ بجانبه. كنت صغيرة وضامرة.

اختلف الأمر هذه السنة، غدوتُ صبية سمراء ساحرة يشار إليها

بالبنان، حورية، "اسم على مسمى" كما يحلو لخالي نوري باشا أن يقول كلما نودِيتُ باسمي. نهد صدري، ضمر خصري، استطالت واستقامت قامتي. حللتُ ضفائري وبدأت أترك شعري الداكن سواده مرسلاً كشلالٍ منهمر ليدير رؤوس الشباب كما الصبايا لجمال لونه وبهاء تموجاته.

أدرتُ رأس عارف وأصابت سهام الحب قلبه عندما وقف في استقبالنا مشدوهاً، ثم مرحباً بصحبة والده، سامي بك، في مدخل السرايا عند وصولنا إلى الناصرة. لا أدري إن كان لقائي بعارف مدبراً من أمي وعمَّتِها لكن ذلك لا يهم؛ تعلَّقتُ به وأحببته بقدر ما أحبني، وربما أكثر. قضيت شهور الصيف بصحبته وأخته مُسِرَّة ولم نفترق. هو يكبرني ببضعة سنين خمسة أو لعلها ستة؛ العمر لا يهم، الحب هو الأهم. مُسِرَّة أخت عارف في سني. قالت أمي أنها تكبرني ببضعة أشهر.

عارف، شاب وسيم، أصهب الشعر، دقيق القسمات، مربوع القامة، عريض الكتفين، مهذب، وفي غاية النبل والرقة. فارس وصياد ماهر لا يشق له غبار.

قال لي عارف في أول لقاء لنا انَّه سينال إجازة في الهندسة في السنة القادمة من إستنبول وينوي إتمام تحصيله العلمي العالي. كان متحمساً وهو يشرح لي خطته للمستقبل. ينوي السفر إلى فيينا لنيل شهادة عليا في فن العمارة. لم أكن أعرف أن لفن العمارة شهادة عالية رغم أنني أتقن الفرنسية وأقرأ قصائد وأشعار باللغة العربية والتركية وأعرف الحساب.

تتلمذتُ وابنة خالي فاضلة في بيتنا في دمشق على أيدي مدرسات عربيات وفرنسيات جاء بهن أخي وجيه من المدرسة اللعازرية من باب توما وحصلنا في العام الماضي على شهادة "السرتفيكا" الفرنسية.

* * *

يوم الوداع، وضع عارف في كفي ورقةً صغيرة وطوى أصابعي حولها. احتضن كفي المضمومة بين يديه:

- هذا عنواني في إستنبول، عديني بأن تكتبي لي.

ارتعش صوتي:

ـ أعدك.

شدَّني إليه. تسارعت دقات قلبي. أغرق عنقي بقبلات صغيرة، حاولت إبعاده، ضمَّني إليه بقوة فغبتُ فيه. اعتراني خدرٌ لذيذ عندما انحدر بشفتيه إلى زاوية فمي. أثار بدفء لسانه مكامن أنوثتي فتلاشيت كغيمة صغيرة سكبت أمطارها دون إرادة. ذبت بين ذراعيه وانسلت روحي مني إليه.

عرفتُ يومها بأن للحب ملكوتاً وأن الأرواح العاشقة تحلق في فضاءاته كالنيازك؛ تلتحم، تلتهب، تضيء، ثم تتلاشى.

تنبَّهنا إلى صوت أخته مُسِرَّة القادم من بهو السرايا ينادينا. تباعدنا. خرجنا من وراء العمود الرخامي الذي استترنا به. لمحنا خيال والدتي ووالدته وجدَّته يَهِمُّون الخطو باتجاهنا، سرن وخلفهن ثلة من الخدم.

هذبتُ قبعتي وأصلحتُ هندامي. دسست الورقة التي تحمل عنوان عارف في صدري.

مال برأسه نحوي وهمس بأنفاسٍ متسارعة وابتسامةٍ عذبة:

ـ يا لحظِّها.

يقصد الورقة. ضحكت.

تابع:

ـ سترافقينني إلى فيينا مطلع الصيف القادم وسنتذوق معاً في كل أسبوع رهافة الموسيقا الغربية الكلاسيكية التي تحبينها يعزفها أكثر

موسيقيي العالم احترافية وفناً؛ سأسافر بك إلى كل عواصم أوروبا وأُطلعك على ما أعرفه عن تراثها التاريخي الحافل. اكتبي لي كل أسبوع لأطمئن عليكِ.

ـ سأُحاول.

ـ عديني.

ـ أعدُك.

ـ كوني على ثقة يا حورية بأنَّ رسائلك لن يمسَّها سواي. سأحرقها فوراً بعد قراءتها.

رقصت نبضات قلبي وتعلقت عيناي به.

عارف يريدني زوجة له، أنا ابنة الأربعة عشر ربيعاً التي لم تعرف الحب إلا في أحلامها. عرفتُ اليوم كم كانت أحلامي باهتة من دونه.

كم تمنيت زيارة باريس وفيينا التي قرأت عن فرقها الموسيقية الضخمة ونشاطاتها المتنوعة في العديد من المجلات الفنية المتخصصة. أحبُّ الموسيقا ويستهويني النوع الكلاسيكي منها يعزفونه في مقاطع طويلة يسمونه "سيمفونيات". مُدرِّستي الفرنسية جوزفين، تحرص على تخصيص بعض دروس المطالعة لتُغْني معارفنا أنا وزوجة أخي فاضلة عن زخم الحياة الفنية في عواصم تلك البلاد. بفضلها اطَّلعنا على الكثير من النشاطات الاجتماعية والموسيقا العالمية والعروض الفنية والمسرحية. تأتينا بمجلات فرنسية متخصصة تستعرض هذه الأعمال بمهنية عالية. سألتها يوماً من أين تحصل على هذه المجلات أجابت بأنَّها تشتري البعض من القنصلية الفرنسية في دمشق ويصلها البعض الآخر من صديقاتها الأجنبيات المقيمات في إستنبول. عرفنا أيضاً منها أنَّ قطاراً يسمى قطار الشرق السريع يقوم برحلتين أسبوعياً من باريس إلى إستنبول ماراً بميونيخ، فيينا،

وبودابست ينقل الناس وأخبار تلك البلاد عبر الجرائد والمجلات المتنوعة التي يحملها.

أتت جوزفين بالقطار من باريس إلى إستنبول من عشر سنوات بصحبة والدتها لزيارة والدها الذي كان يعمل هناك قبل استقرارهم في دمشق. قالت إنَّهما توقفتا في فيينا وفي بودابست لزيارة بعض الأصدقاء. كانت مأخوذة بجمال فيينا وثراء الحضارة الفنية والموسيقية فيها.

سأزور وعارف كل هذه المدن بعد أشهر قليلة وسنترك فيها أحلى الذكريات.

* * *

ربتت أمي على كتفي عند وصولها إلينا وقالت:

- حان وقت السفر، العربة بالانتظار.

انخطف قلبي.

تبادلنا مع العمَّة حكمت بعض الكلمات السريعة، قبَّلتُ يدها وقبَّلَت هي جبهتي. تمنَّت لنا سفرة سعيدة. احتضنتني والدة عارف، إكرام خانم، قبَّلت وجنتيَّ وقالت سنفتقدك، كدت أبكي. عانقتني مُسِرَّة بحرارة وطلبت ألا أطيل الغياب، أجبتها بابتسامة خنقتها غصَّة الوداع.

مشينا أمي وأنا باتِّجاه العربة يرافقنا عارف. التفتنا عندما اقتربنا من العربة ولوحنا بأيدينا لمضيفينا.

وقف عَسَسُ المُرافقة وطاقم الخدم مع السائس بانتظارنا بعد أن رتَّبوا حقائبنا في مؤخرة العربة. صعدت أمي بمساعدة عارف وهَمَمْت بالصعود وراءها، داعب عارف شعري الهارب من قبعتي فالتفتُّ اليه، خفض نظره ليخفي عني احتقان عينيه. مد لي يداً دافئة فتركت له يدي. قبَّل أناملي فانهمرت دموعي. تلقفتني أمي عند صعودي في حضنها. دفنتُ

وجهي في صدرها وبكيت.

أمي تعرف الحب. أحبَّت والدي وتعيش حسرة افتقاده كل ليلة. اختطفه الموت في غفلةٍ منها وأنا في عمر السنتين. أصبح خالي ومن بعده أخي وجيه، الأب والراعي لأسرتنا.

عندما وصلنا دمشق كان في فمي كلام كثير عن الحب الذي هدهد قلبي، واشتياق لابنة خالي، زوجة أخي، فاضلة، بيت أسراري وتوأم روحي.

لا عارف هو توأم الروح.

أولاد خالي، الشباب

وقفت أمي بباب غرفة نومي معاتبة:

ـ ألا زلت في سريرك؟ هيا يا حورية، لم يبق على أذان الظهر الكثير.

تمطيت وأجبتُ مستنكرة:

ـ صباح الخير، أولاً، ثانياً، أي ظُهرٍ يا أمي والساعة لم تتجاوز الثامنة صباحاً؟

قالت ضاحكة:

ـ فاضلة بانتظارك، لم تفطر بعد.

نهضتُ مُتثاقلة، قرعتُ الجرس لمربيتي آمنة. جاءتني على عجل بالماء الساخن لأغسل وجهي وفمي وأسناني.

استبدلتُ ملابس النوم بثوبٍ صوفيٍ سماوي اللون بياقةٍ بيضاء من "الدانتيل" اختارته لي آمنة. جلست مقابل مرآتي وتركتُ لها مُهمة تسريح شعري وتضفيره.

أحبُّ أن أبدأ يومي بسماع الأهازيج التي ترددها آمنة عندما تمُشط شعري. يغمرني دائماً صوتها، رغم خشونته، بفيضٍ من دفء الأمومة وفرحٍ طفولي يُلازمني طيلة يومي.

بدأت اليوم بترنيمة لم أسمعها من قبل:

....

"أوها يا شعرات حورية يا طول يا طول

أوها يا شعرات خليل "بال" عليهم العصفور"

....

ضحكتُ عالياً من تعبيرها. داعبتها:

ـ لو سمع خليل ما تقولينه سيغضب.

ابتسمت بمكرٍ وأجابت:

ـ غضب الأخ الأصغر خليل أرحم من غضب الأخ الأكبر السيد وجيه!

هززتُ لها رأسي عبر مرآتي موافقة وابتسمتُ لسرعة خاطرها.

تابعت:

....

"أوها يا حورية يا ست البنات

أوها يا سكر النبات

أوها يا شمعة كل الصبيان

أوها يا حورية يا ست البيت

أوها يا حورية يا كوز الزيت!"

....

ـ أنا كوز الزيت!

ـ لا ضوء يا سيدتي بلا زيت الفانوس ولا طعام دون زيت الزيتون.

ضحكتُ من جديد.

أنهت آمنة أخيراً مهامها وأطلقت سراحي؛ غادرتُها إلى المُربَّع.

وَجَدْتُ فاضلة في مكانها المعتاد جالسة على الأريكة تطرِّز صدر ثوب حريري بنفسجي رائق لونه. عندما رأتني وضعت ما في يدها. ضمتني وسألتني هامسة:

ـ أنهيت الرسالة؟

ـ أنهيتها. سأرسل مسعود لإحضار الآنسة جوزفين لترسلها لي بالبريد. نحنُ على اتفاقنا بأنَّ زيارة جوزفين اليوم ضرورية لمناقشة الكتاب الذي نقرأ.

ـ طبعاً.

ـ لديك نقود؟

ـ لدي الكثير. هل زارك البارحة في المنام؟

هززتُ رأسي علامة الإيجاب. ابتسمت عينا فاضلة اللوزيتان وقالت:

ـ هو في شوق إليك، فالأرواح تسكن في هدأة الليل وتسعى لتلتقي رغم بُعد المسافات.

ما أجمل كلامها، لكن، لن أبوح لها بأن لقاء البارحة لم يكن ساكناً، كان عاصفاً. كان معي في سريري. شعرت به وبحرارة أنفاسه ودفء شفتيه. أذاقني طعم الحب وحلاوته عندما احتواني طيفه. تمنيتُ أن يطول اللقاء فأبقى في سريري أنعم بقربه إلى آخر يوم في حياتي. أمنية مسحتها الشمس في الصباح آسفةً وواعدةً أن تتركني لأنعم بزيارة طيفه من جديد بعد المغيب.

متى يُسدل الليل أستاره؟

* * *

انتقلنا إلى "الصالية" لتناول إفطارنا. أكلنا على مهل وتظاهرنا أمام عيون خادمة المائدة، بحر الزين، بأننا نأكل بشهية رغم أن فطائر الجبن كانت قد بردت وكذلك الخبز. أحب فطائر الجبن وفطائر الزعتر الجبلي خارجة لتوها من الفرن ملدوعة الأطراف كما قلبي الذي لدعه فراق الحبيب.

قلتُ لفاضلة التي جلست بجانبي بصوتٍ خفيض:

ـ كنتُ وعارف نتمهل في افطارنا كلَّ صباح حتى يغادرنا الجميع ونصبح وحدنا؛ يسارع ليحتل الكرسي الملاصق لي ويمد يده ليغمر بخيوط من العسل قطعة صغيرة من الخبز ويلقمها في فمي. غمز لي مرة بعينه قائلاً "أنت أطيب وأحلى من العسل". قرصته في يده التي امتدت لتداعب شعري "هذه لسعة النحلة حتى لا تقرب عسلها". أبعد يده عن شعري وضحك بعذوبة. مددت يدي بدلال وداعبت بها خصلات شعري التي انفلتت من يده. غضَّ طرفه، ثم نظر إليَّ بشوقٍ فلامست عيناه شغاف قلبي. باحت لي نظرته بكل ما في هذه الدنيا من حب، شدَّ على يدي وقال "أحبك يا حورية".

ابتسمت عينا فاضلة مُشجِّعة، وهَمَمْتُ أن أزيد، لكن أمي التي لا تعرف الكلل فاجأتنا.

ـ حديثكم لا ينتهي. اقترب موعد الغداء.

ـ يا أمي، أي غداء ونحن لا زلنا في الضحى؟

ـ أسرعوا ليتسنى لبحر الزين تنظيف المائدة وإعدادها فالشباب على وصول.

* * *

تدعو أمي أبناء خالي الأربعة بالشباب رغم أن أكبرهم، سليم، يصغر أخته فاضلة، بسنتين ويكبرني بسنة وبضعة أشهر. أصغر أولاد خالي الذكور، مراد، لم يتجاوز عامه السابع. نازلي، أصغرهم، هي العصفورة المغردة لجوقة الشباب هذه، والمدللة الصغيرة المحبوبة التي لم تتجاوز عامها الرابع. كنتُ نادراً ما أراها تمشي، فهي إما محمولة أو في حضن أحدهم تستمع بفضول وقد تشارك فيما يدور بينهم من أحاديث. هي سمراء مثلي، عيناها سوداوان ورموشها غزيرة. يؤطِّر وجهها الدائري وخدودها المكتنزة

شعر أجعد، يُحاكي لونه سواد الليل، نضفره لها بشرائط ملونة لا تلبث أن تنفلت شعراته بشغب فتبدو كعصفور صغير منفوش الريش.

قُرِع الباب وكان أول الداخلين دادا سعدية وعلى كتفها نازلي، تبعها أولاد خالي الأربعة. ما إن رأت نازلي فاضلة حتى مدَّت لها يديها وارتمت في حضنها. أصبحت فاضلة بعد رحيل أمها أم لأخوتها.

عاشت الصغيرة نازلي في بيتنا في كنف أختها بعد وفاة زوجة خالي ولم تغادرنا إلا بعد أن أصرَّ خالي على عودتها ومُربيتها بين إخوتها عقب عودتنا من الناصرة.

مانعت أمي في البداية لكنها نزلت عند طلب أخيها خوفاً على فاضلة التي ظهرت عليها أعراض الوحام بعد سنوات أربعة من انتظار هذا الحادث السعيد.

أمي، نسخة عن أخيها في طبعه، فهي الآمر الناهي في إدارة بيتها. رغم مشاغل خالي الكثيرة، إلا أنه بعد وفاة والدي وقبل تولي أخي وجيه أمورنا، حرص على إدارة شؤون الأسرتين ملبياً أوامر والدتي وطلباتها بأدق التفاصيل. زوجة خالي رحمها الله، عكس أمي، كانت مسالمة وغير متطلبة. فاضلة كما أمها، مطيعة ومحبة وتحب أمي وتعاملها كما لو كانت أمَّها.

أحبَّ أخي وجيه فاضلة منذ الصغر وبادلته الحب. عندما نضج قليلاً وكان لفاضلة من العمر أحد عشر عاماً، طلبتها أمي من أخيها زوجةً له. وافق خالي على قراءة الفاتحة على أن يتم الزواج عندما تتم فاضلة الثالثة عشرة من عمرها. قالت لي فاضلة:

- كان الانتظار لموعد زفافنا عذاباً مقيماً، فأنا أحبه ولا أطيق الابتعاد عنه وهو كذلك. ما خفف من عذاب انتظاري أننا انشغلنا، أمي وأنا، في تفاصيل جهازي.

آه، أذكر الكثير عن فرحها الذي دام سبعة أيام بلياليها.

خُصِّصَ اليوم الأول من الفرح لحضرة والي الشام حسين ناظم باشا وحاشيته من موظفي الدولة من الأمراء والأعيان، وخصص الثاني للمشايخ والعلماء، والثالث للتجار، كان اليوم الرابع من نصيب العوام، والخامس للفلاحين، والسادس للمغنين والآلاتية. سبق يوم فرحها الأول "تهليلة" كبيرة جمع فيها خالي جميع مشايخ الطرق الصوفية في دمشق وأحيوا الليلة بقراءة القرآن والأذكار؛ ليلة بألف ليلة وليلة.

في زيارة لبيت خالي، وقعت عيناي قبل فرح فاضلة على صندوق بلغ طوله قامة رجلين أو أكثر، اندهشت. حذَّرتني مربيتي ألَّا أقرب الصندوق لأنَّ العروس التي تنام فيه جاءت من بيروت مُتعبة وهي تنتظر يوم الفرح لتخرج إلينا. لم يسبق أن رأيت صندوقاً بهذا الطول ولم يسبق أن رأيت عروساً. خُيِّل إليَّ فعلاً أن عروساً في داخل الصندوق.

كم كانت دهشتي كبيرة عندما وقفت فاضلة في اليوم الذي سبق

يوم زفافها أمام مرآة طويلة في غرفة استقبال "الحَرَمْلِك" في بيت خالي مع طاقم من الخياطات والماشطات. عَرَفْتُ يومها أن لا عروس في الصندوق، فاضلة هي العروس!

جدَّلوا شعرها في ذلك اليوم بخيوط ذهبية ورفعوه بأمشاط ثلاثة من الذهب الخالص تحمل طيوراً هزَّازة معشقة بالمينا والحجارة الكريمة. كانت هذه الأمشاط ملكاً لجَدَّتِها وانتقلت لوالدة فاضلة يوم زواجها وأُهدِيَت إليها اليوم بمناسبة زفافها. ألبسوها ثوب الفرح الذي خرج من الصندوق الطويل! ثوباً بهياً من الحرير المُوشى بنقشة زهرة الكشمير، عاجيَّ اللون بخيوط خافتة ذهبية وذيلٍ طويل. تغطي فتحة صدر الثوب قطعة من "الدانتيل" عاجية اللون هي الأخرى، معشَّقة بخيوطٍ ذهبية. احتضن "الدانتيل" صدر فاضلة بشفافية وباح بامتلاء نهديها وبياض واستدارة كتفيها. امتد نسيج "الدانتيل" حتى منبت العنق وأحكمت ياقة الثوب المرتفعة عند مؤخرة العنق بأزرار من اللؤلؤ صغيرة اصطفت متزاحمة بخطٍ مستقيم لتُغلق فتحة الثوب التي امتدت إلى ما تحت خط الخصر. عند طرفي الكتفين اتسعت قطعة "الدانتيل" وانثنت وتدلت لتغطي منبت الذراعين.

يضيق قماش الثوب الحريري الذي نبتت منه قطعة "الدانتيل" هذه تحت الصدر ليمسك الخصر بإحكام ثم يتسع من جديد وينساب بنصف دائرة تؤطر أطرافها فوق القدمين من الأمام ورود ذهبية صغيرة من "السرما"[18]. يستطيل نصف الدائرة الخلفي حوالي عشرة أذرع ليشكل ذيل الثوب الذي تُطَرِّز وجهه وتزين حوافه جوقات من ورود السرما الصغيرة والكبيرة. غطت قفازات من الساتان العاجي الرقيق كفَّي فاضلة وتطاولا حتى منتصف ذراعيها. اعترضت إحدى الماشطات على القفازات خوفاً على

حِنَّة يديها ليلة الزفاف لكن زوجة خالي، رحمها الله، حَسَمَت الأمر بأن قالت:

- الحنة للعوام وليست لبنات الذوات.

كان الحذاء الذي انتعلته فاضلة مصنوع من قماش الثوب الحريري نفسه زُيِّن بعقدة ذهبية كبيرة من "السرما" غطت ظاهر القدم.

حيك نسيج ثوب فرح فاضلة حسب إرشادات زوجة خالي وأمي عند أشهر حائك للحرير من آل النعسان في دمشق. استغرق نسج الثوب سبعة أشهر لأن نقشة الثوب الدقيقة التي وقع الاختيار عليها كانت بخيوط حريرية تُغَلُّ بالإبرة مع كل لُحْمَة أثناء حياكة الحرير على "النول". عندما أنهى الحائك عمله أرسلته المشرفة على جهاز العروس، السيدة ماري أبي راشد، إلى مشغل شهير في بيروت ليتم تطريز حوافه وذيله وفقاً لتصميم وضعه "بول بواريه"[2]، مصمم فرنسي شهير كان يزور بيروت حينها.

استغرق تصميم ثوب الفرح وتفصيله وتطريزه وخياطته ستة أشهر إضافية.

قالت أمي إن كل شبر من ثوب فرح فاضلة كلَّف عشر ليرات ذهبية إنكليزية.

استكمل جهاز العروس طاقم من أشهر المصممات والخياطات الدمشقيات والأرمنيات الحلبيات اللواتي استقدمهن خالي للإقامة في دمشق على حسابه. أكثر من عشرين سيدة عملن ليلاً ونهاراً لتحضير جهاز ابنته البكر وثياب أفراد العائلة المُقرَّبين.

عندما أتمُّوا زينة فاضلة في ذلك اليوم، بدت كملكة مُتَوَّجة هبطت

---

[2] Paul Poiret.

إلينا من عليائها محمولة على أجنحة الملائكة.

سألت أمي في العربة التي أقلتنا مساءاً إلى بيتنا:

ـ هل سيصبح أخي وجيه ملكاً على الشام عند زواجه من فاضلة؟

* * *

أمضيت فترة ضحى اليوم الجمعة برفقة جوزفين، مدرسة اللغة الفرنسية. جاءت تلبية لدعوتي بحجة انشغالي عن حصة المطالعة الأسبوعية التي نعقدها صبيحة يوم الثلاثاء من كل أسبوع. كنتُ أتحرق لإرسال أولى رسائلي إلى عارف.

بعد أن انتهينا من قراءة ومناقشة الفصل المخصص من الكتاب المقرر دراسته، حكيتُ لها عن عارف وعن الحب الذي شغل قلبينا. بدت سعيدة وباركت حُبنا. سألتُها إذا كان بإمكانها مساعدتي لأتواصل مع عارف عن طريقها. لم تمانع. اشترطت فقط أن أغطي مصاريف البريد وأجور تنقلاتها.

أعطيتها رسالتي ونَقَدتُها ما طلبت. أضافت لرسالتي عنوانها ووَضَعَتها في حقيبة يدها. قالت "ستكون الرسالة في مركز البريد في الغد الباكر".

* * *

تحلقنا جميعاً بعد وصول أولاد خالي حول طاولة غداء يوم الجمعة العامرة بالأطايب وتعالت أصواتنا وضحكاتنا أثناء الطعام. عندما يكون خالي نوري باشا أو أخي وجيه حاضراً، لا نجرؤ أثناء الطعام على الكلام ولا حتى على الهمس. سفر خالي وأخي إلى إستنبول فرصة لا تعوَّض لتجاوز كل الممنوعات.

غداؤنا اليوم شهي. صدر من الأرز المُبَهَّر بالقرفة والزعفران

مطبوخ بمرق لحم الضأن تغطيه قطع من اللحم المُحَمَّر بالسمن والعسل مجلل بالصنوبر واللوز، أسياخ من اللحمة المشوية متبَّلَة ببذور الكزبرة المدقوقة مع البصل والمدعوكة بدبس الرمان والبهار، صينية باذنجان بشرحات من لحم الضأن المنقوعة بمزيج الخل والبصل خرجت لتوها من الفرن أغرقوا وجهها عند تقديمها على المائدة باللبن الرائب المطيَّب بالطحينة[19] والثوم.

عندما أحضر الخدم تحلية ما بعد الغداء، أكلنا قطائف قشطة مغموسة بالفستق الحلبي يَقْطُرُ من جنباتها شراب السكر المعقود "بالمسكة" وماء الورد. أكلناها بأيدينا ولعقنا أصابعنا دون حرج. غياب خالي وأخي وجيه يبيح المحظورات. تراشقنا بعدها بحبات الزلابية[20] التي طارت فوق رؤوسنا عندما كنا نحاول التقاط ما تنقفه أصابع سليم باتجاه أفواهنا. لسليم حضور يشيع الفرح والبهجة في القلوب أينما كان وكيفما حل. حتى أمي التي كانت نادراً ما تضحك كانت دعابات سليم تُسعِدُها وتضحك لها من قلبها بصوتٍ مُرتفع.

غادرنا إلى المُربَّع الذي تعودنا أن نمضي أوقات ما بعد الظهيرة فيه ترافقنا "دندنات" عود فاضلة وفرقعات حبات الكستناء التي انتفخت مؤخراتها على مدفأة الحطب.

* * *

أتقن سليم العزف على العود في سن مبكرة وقام بتدريب فاضلة بعد أن ألحَّت عليه أن يُعَلِّمَها. لم يكن خالي مُتحمِّساً لتعلم ابنه البكر "كار"[21] الموسيقا كما يحلو له أن يسمِّيه. خشي على ابنه الانسياق في هذا المجال وضياع مستقبله العلمي. لكن إلحاح سليم واصراره، وتفوقه في دراسته وتوصية معلميه، ساعدا خالي على اتخاذ قراره بالسماح له، شرط

ألا يتجاوز عزفه على العود جدران منزلهم ومنزلنا.

وافق سليم وبدأ يتعلم أصول العزف في بيت خالي على يد عازف عود شاب يدعى فريد غصن. كان كلما أنهى درساً سارع إلى بيتنا ليتدرَّب وليُدرِّب فاضلة على ما تَعَلَّمَهُ. كنت أُشاركهم الاستماع وأساعدهم في بعض الأحيان بالغناء. أنا أحفظ الكثير من المدائح النبوية والأناشيد والأذكار التي دربني عليها سليم وأحفظ كذلك قصائد وأغاني قامت بإنشادها فرقة المغنية اليهودية زكية.

تأتي زكية بتختها الموسيقي في مطلع كل شهر قمري لإحياء حفلات "صالون" أمي. تصل في اليوم المحدد باكراً وتقوم مع فرقتها بتهيئة "الآعة" لتتناسب مع ما ستقدمه في تلك الليلة من فنون الغناء والرقص.

في تخت زكية الموسيقي ثلاثة "ردّادات"[22] وسبع نساء يعزفن على مختلف الآلات من عود، قانون، دف، وصاجات. إلى جانب الغناء والرقص، كان على "الردّادات"، وبإيعاز من زكية، الترحيب بالقادمات عند دخولهن "الآعة" بتهاليل وأهازيج تتناسب مع كل سيدة ومقامها ومقام زوجها الاجتماعي. أمي لا تحب هذه العادة وتعتبرها عادة شعبية مُبتَذَلَة، لكن صديقاتها الدمشقيات يعارضنها؛ يطربهن المديح ويتنافسن لنيله. يحرصن على اقتناص الفرص لتمرير أخبارهن وأخبار أزواجهن عبر الخدم إلى زكية قبل انعقاد صالون أمي بأيام ويجزلن العطاء لها و"لردّاداتها" عند وصولهن تعبيراً عن امتنانهن للترحيب الحار الذي استُقبلن به.

صالون أمي الشهري حافل بالزائرات وعامر بأخبارهن؛ أكثر من سبعين سيدة ينتمين إلى أعرق الأسر التركية والبيوتات الدمشقية يحرصن على حضوره مطلع كل شهر قمري.

في يوم استقبالنا، تزدحم دمشق بعد صلاة المغرب وقُبيل صلاة

العشاء بالعربات الفاخرة ويعلو وقع حوافر الخيل وصرير العجلات في أزقتها وحواريها.

تتوقف عربات الزائرات تباعاً أمام البوابة الخارجية لمنزلنا وتتعالى أصوات الردَّادات مُعلنةً وصولهن. يهبطن من عرباتهن أسراباً وزرافات ويتوجهن إلى المُربَّع البراني، للاستراحة في قسم "الحرملك". يخلعن أكوام الأغطية السوداء بمساعدة جوقة من الخادمات. يُصلِحن زينتهن وشعورهن في غرفة جانبية بمساعدة الماشطات اللاتي تستقدمهن أمي خصيصاً لهذه المناسبة. يدخلن بعدها إلى "الآعة" يَرْفُلنَ بأثوابٍ من الحرير الدمشقي بتصاميم أوروبية كانت في الأصل أنيقة لبساطتها لكن رسومات الخرز المُلوَّن وكلف "الساتان" ذات الألوان الصارخة التي أضفنها إلى الياقة والصدر، أو أطراف الثوب والأكمام جعلها لافتة وأحياناً مبتذلة.

نرحب بهن أنا وزوجة أخي فاضلة عند دخولهن "الآعة" ونرشدهنَّ إلى أماكن جلوسهنَّ.

تأتي معظم السيدات بصحبة كريماتهن وزوجات أبنائهن ولا يَتَحَرَّجْن من دعوة معارفهن أو ضيوفهن من الأجنبيات الزائرات لدمشق.

لا ينقطع طاقم كبيرٌ من الخدم تستأجره أمي لهذه المناسبة طيلة الليل عن تلبية طلبات الضيوف من أصناف الأطعمة واللحوم والفواكه الطازجة والحلويات التركية والشامية المحشوة قلوبها بالقشطة والفستق الحلبي والغارقة وجوهها بالشراب المُسكَّر والمُعطَّر "بالمسكة" وماء الورد. تدور الخادمات الشركسيات بلباسٍ موحد على الزائرات بصواني من الفضة المُذهَّبة لتقديم أنواع الشاي والقهوة العربية والتركية المعطرة بالهيل والعنبر وأكواب المياه الباردة المطيبة بماء الزهر. يحملن أباريق من الفضة الخالصة للمشروبات الباردة من تمر هندي وقمر الدين ويراقبن صحائف

مُذهَّبة موضوعة بجانب الزائرات على "السكملات"[23] لرفعها كلّما نقصت واستبدالها بصحائف عامرة بالتمر والزبيب والتين والمشمش المجفف ومعقود قشر الكباد والنارنج والبرتقال المحشوة قلوبها باللوز والجوز والبندق المُحمَّص.

تحب أمي الضيف وتكرم ضيافته.

بعد صلاة العشاء تنزل أمي إلى "الآعة" مرحبةً بالزائرات اللواتي يقفن مُهللات عند دخولها. يستقر بها المقام على أريكتها في صدر "الآعة". عندما يهدأ الجميع تعلن لزكية بهزّة من رأسها أن تبدأ وصلتها الغنائية الأولى.

تنطلق أنامل العازفات في هدأة المساء على آلاتهن الموسيقية الساحرة ويصدح صوت زكية بأرق عبارات الغزل وأعذب كلمات الحب التي لا تخلو من الشوق للوصال والشكوى من مرارة الهجر والحرمان.

من يسمع صوت زكية تشدو بالغناء يخيل إليه أنَّها مخلوقة نورانية جُبِلَت مادتها من أثيرٍ علوي لا يَمُتُّ لعالمنا الأرضي بصلة؛ لكن من يعرفُها يؤمن أن البشاعة في الخِلقة والابتذال في المظهر لا يُمكن أن يُخفي بهاء موهبةٍ في الغناء والطرب كادت تصل حدَّ الكمال.

كل ما في زكية، سلطانة الطرب، وهذا لقبها، صارِخٌ ومُبَهْرَجٌ ومُبتذلٌ.

وجهها ضيق وطويل تدعكه بمساحيق مُبَيِّضة للبشرة فتزيده طولاً وبشاعةً، أحمر شفاهها القاني تتجاوز به حدود شفتيها النحيلتين لتبدو أكثر امتلاءً وابتذالاً، كحل عينيها الغائرتين تمدُّه إلى صدغيها لتبدو أكثر اتساعاً وسواداً. لعطرها رائحة نفاذة تزكم الأنوف ولا يُعرَف له أصل؛ مزيج غير متجانس من الليمون وربما النعنع والياسمين! قوامها نحيل وعظامها بارزة؛ الأثواب التي ترتديها وهّاجة الألوان وكذلك الوسادة التي كانت

تجلبها معها لتجلس عليها مقنطرة بعشرات "الطُرَر" الذهبية ومزركشة بورودٍ يُحاكي لونها لون الثوب الوهَّاج الذي ترتديه. أقراطها بحجم كف اليد، مُدجَّجة بالليرات الذهبية، تتدلى من أذنين كبيرتين مُطَّت نهايتاهما حتى كادتا تلامسان كتفيها. رغم أنَّ لزكية يدين نحيلتين إلا أنها حرصت على كسوتهما بمبرومات الذهب وأنواع متنوعة من الأساور وصلت إلى الكوعين. أصابعها طويلة ونحيلة وفي كل إصبع خاتم أو اثنين بأحجارٍ كريمةٍ ملونة.

تُطلِق زكية بعد كل وصلة غنائية ضحكةً مُجَلجَلة تثير بها حماس المُستمعات وتعبرٍّ لهنَّ عن امتنانها لآهات الاستحسان والطرب التي انتزعتها من حناجرهن أثناء الغناء. ضحكتها الرقيعة هذه تكشف للناظر إليها عن غابة من الأسنان المُتداخلة طلي معظمها بالذهب.

تبدأ زكية وصلتها الغنائية بعد صلاة العشاء ولا تتوقف إلا بعد منتصف الليل.

رغم بشاعة زكية وغرابة مظهرها، تمتَّعت هذه المرأة بحسٍ موسيقيٍ نادر ساعدها على اختيار طاقَمها من الردّادات والعازفات؛ كنَّ جميعا، ودون استثناء، يُتقنَّ فنون العزف والغناء ويعرفن مقامات الموسيقا العربية وخفايا الموشحات وأوزانها.

* * *

استقر بنا المقام بعد وجبة الظهيرة في المُربَّع؛ تحلقنا طلباً للدفء حول مدفأة الحطب التي هيأها لنا الخدم بتأجيج نيرانها. نسمات تشرين تنذر بأمسية باردة رغم أن الشتاء لم يبدأ بعد. بدأت فاضلة تعزف على العود وصاحَبَها سليم بنقرات خفيفة على الدف. دندن لها بموشح لا أحفظ كلماته، ردَّدت هي وراءه. لفاضلة صوتٌ دافئٌ وخجولٌ. كانت إذا

غنَّت أغمضت عينيها وخفضت رأسها كأنها تصلي. عزفها على العود رائقٌ كصوتها رغم أنها ترتجل في بعض الأحيان ألحاناً وتضيف مقاطع لأغنيات وقصائد دون اعتراض يُذْكَر من سليم.

بفضل حب سليم وفاضلة للموسيقا وصوتي الذي أجود به عندما أُطْرَب، نَعِمْنا بأوقاتٍ هانئة وأُمسياتٍ سعيدة.

تنبَّهنا على أصوات خلافٍ شبَّ بين نازلي ومراد. انشغلت أمي بفك الاشتباك.

مراد ونازلي كالتوأم رغم السنوات الثلاث التي تفصل بينهما. لا يمكن أن ترى أحدهما دون الآخر. يأكلان معاً، يلعبان معاً، حتى عند قضاء الحاجة ينتظر أحدهما الآخر على باب دورة المياه. تبكي نازلي كل صباح وتسد باب البيت لتمنع مراد من الذهاب إلى المدرسة. يبتكر لها المسكين في كل يوم سبباً لتسمح له بالخروج. تُصِرُّ أن يعدها أن يكون في البيت قبل أذان الظهر. عند اقتراب موعد الصلاة تقف خلف البوابة الخارجية بانتظاره. الويل لمربيتها سعدية لو حاولت التدخل أو حاولت إزاحتها عن الباب. لا يسلم مراد والسائس صابر من العتاب وأحياناً البكاء إذا تجرّءا وتأخَّرا عليها.

ما أنقى قلوب الأطفال وأطهر محبتهم.

ابن خالي مصطفى وأخي خليل، حكاية أخرى. لهما نفس العمر بفاصل أسبوعين أو ثلاثة على ما تذكر أمي ويوثقه مصحف خالي الذي يحرص على أن يدوِّن فيه تواريخ ولادتنا باليوم والساعة. هما كالتوأم، متلازمان؛ يذهبان إلى المدرسة بعربةٍ واحدة ويجلسان في فصلٍ واحد. يتنافسان على درجة الأولية رغم أن مصطفى هو السبَّاق إليها دائماً. يعوض خليل، بالمقابل خسارته العلمية بهزيمة مصطفى في لعبة الشطرنج

التي يُتقِنُها. ينتهز سليم الفرصة ويتفنن في أساليب التهليل لخليل؛ يبتكر له أهازيج على إيقاع الدف يمتدح فيها ذكائه فيشعل جذوة التحدي عند مصطفى. تهبُّ فاضلة إلى العود وتُجيب سليم بكلماتٍ تسكبها على أوتار العود داعمةً مصطفى ضد سليم وخليل.

يشيع المرح والضحك بيننا لطرافة اللغة وتنافر الألحان التي يعزفانها.

أوقاتنا صافية، وكذلك قلوبنا.

ابن خالي محمود، الذي يصغرني ببضعة أشهر، لا يمكن أن ترى يديه بلا كتاب. هادئ، رزين، ويميل إلى التدين. يقضي معظم أوقاته في المسجد القريب من البيت ملازماً لشيخ يقال انَّه شيخ الطريقة الصوفية الشاذلية في دمشق. كان إذا حدَّثني، وهذا نادراً ما يحدث، لا ينظر إليَّ مباشرة؛ يغض طرفه وتعلو وجهه الأبيض حمرة الخجل. عيناه وديعتان وكذلك صوته إذا تحدَّث.

محمود الوحيد بين إخوته الذي يُشْبِه زوجة أخي فاضلة قلباً وقالباً.

الزلزال الذي هدَّ كياني

حلَّ المساء سريعاً وتهيأ أولاد خالي للعودة إلى منزلهم. لم يكن ممكناً أن تترك أمي أبناء أخيها يذهبون دون عشاء، إلا أن إصرارهم على المغادرة باكراً لبعض أشغالهم المدرسية جعل مهمة إقناعهم مستحيلة. سليم، رغم روحه المرحة، مُطاع من إخوته ومرهوب الجانب من الخدم. شعوره بالمسؤولية تجاه إخوته خاصة في غياب والده، محط إعجاب وإكبار من الجميع.

خرجنا مع أبناء خالي مُوَدِّعين حتى عتبة الباب الرئيس؛ عادت فاضلة ودادا آمنة إلى المُربَّع بسرعة هرباً من نسمات المساء الباردة. بقيتُ أنا قرب الباب أحمل نازلي ريثما تنتهي دادا سعدية من ربط غطاء رأسها. داعبتُ خد نازلي ورقبتها بطرف ضفيرتي فتغرغرت بضحكاتها الطفولية. ما إن مدت دادا سعدية يديها بحنانٍ لاحتضانها حتى ارتمت الصغيرة على صدرها وعانقتها بشوق.

توارى الجميع خلف الباب وهَمَمْتُ بإغلاقه. تراجع سليم في آخر لحظة عن إخوته ودسَّ لي من شقّ الباب ورقة صغيرة مطوية. استغربت، سألته عن محتوى الورقة، لم يُجِب، استدار بلمح البصر ولحق بإخوته. احترتُ؛ كدتُ أفتح الورقة لولا أنني سمعت باب المُربَّع يُفتح ودبيب خطوات دادا آمنة وبقية الخدم خلفها؛ خفتُ، خبأتُ الورقة في طيات ثوبي.

دخلتُ مُربَّع الجلوس وجلستُ في الركن أتصفح كتاباً مشغولة البال.

تنوع حديث المساء بين أمي وفاضلة وتشعَّب. الوحام، متاعب الحمل، لوازم الطفل المُنْتظر، تفاصيل الاحتفالات التي يجب إقامتها احتفاءً

بالمولود الجديد، الهدايا التي سترافق الدعوات الموجهة للأهل والأصدقاء. طال الحديث بينهما.

على الرغم من فرحة أمي العارمة بحمل فاضلة، إلا أن تصرفاتها تنم عن قلق وخوف؛ قلق أدمنت عليه وخوفٌ سكن وجدانها من مفاجآت القدر بعد رحيل أبي.

مسكينة أمي، لا أحد يعرفها كما أعرفها أنا. شاركتُها غرفة نومها منذ وفاة والدي ولم أفارقها إلَّا بعد زواج أخي وجيه واستقلاله وزوجته شاغلاً الجناح الغربي من البيت. آلت غرفة نومه الواسعة إليَّ بعد أن رفض خليل تغيير غرفة نومه الصغيرة.

تُرى، هل لا زالت أمي تقرأ في كل ليلة سورة الفاتحة لروح أبي وتناجيه همساً ناقلةً له أخبارنا وكأنها تراه؟ كانت تختم مناجاتها بأن تبثه أشواقها ولوعتها لفراقه. يغلبها حزنها كلَّ ليلةٍ فتبكيه بصوتٍ مكتوم.

* * *

شاركتُ أمي وفاضلة بلقيمات قليلة وقت العشاء، لم أكن جائعة. استأذنتُ وتوجهت إلى غرفتي بعد أن طال الحديث بينهما على مائدة الطعام ومللتُ أنا الاستماع. صرفتُ مربيتي عند بهو الدرج الخلفي المؤدي للطابق العلوي؛ تحججتُ بأنِّي متعبة ولا أحتاجها الليلة. قَبَّلَت العجوز جبيني وعادت أدراجها إلى المُربَّع.

مربيتي آمنة بمثابة أم ثانية لي رغم أنها تكبر أمي ببضع سنين. تلازمني كظلي. ترقيني في الصباح وتمسح كل ليلة جسمي ووجهي بماء الورد بعد تدليكي ودعكي بزيت اللوز. أعترض على تعريتي من ثيابي فقد كبرت ولم أعد طفلة. تضحك مني وتكمل مهامها كأن الأمر لا يعنيها. تلبسني ثوب النوم بعد أن تفك ضفائري وتُمَشِّط شعري. تضعني في

السرير وتهدهدني قبل مغادرتي بزغرودة تقوم بارتجالها. عندها فقط أنسى ضيقي من أفعالها وأضحك من خشونة صوتها.

....

"أوها يا حورية يا شمسة... يا غاطسة بالدهب غطسة

أوها يا حورية، يا ريحانة ويا غزالة

أوها وحنيتلك دياتك

أوها ولحنتهن بجرياتك

أوها ومشِّيتك دأة دأة

أوها يا صنوبر منئى... يلي الكحل بعيونك سأَّف وغنَّى

....

اشتكيت آمنة يوماً لأمي:

ـ دادا آمنة تُحرجني أمام صديقاتي.

ـ تُحرجك!

ـ تُعاملني كطفلة صغيرة.

- لن تكبري في عين مربيتك يا حورية حتى لو غطى الشيب رأسك! عليك بمراعاتها؛ لها فضلٌ عليكِ وعلينا. هي ليست فقط مربيتك، هي أيضاً جدتك بالرضاعة. أرضعت والدَك رحمه الله.

تساءلتُ بيني وبين نفسي ما إذا كان سواد بشرة آمنة وسعة عينيها قد تسرب إلى حليبها وسبب سمرة بشرة أبي وسواد عينيه! أنا لا أشبه أمي، أخذتُ عن أبي لون بشرته وسعة عينيه، هذا ما تقوله أمي.

بدأتُ بالفعل بعد هذا البوح من أمي أتأَمَّل وجهي في المرآة، أبحثُ من خلالها عن أوجه الشبه الممكنة بيني وبين آمنة، جدتي.

اقتنعت بمرور الأيام بأنَّ سُمرة البشرة وسواد وسعة عيني طفلة لا

تشبه أمَّها، إلى جانب الحب والحنان الذي تغمرني به مربيتي لهو دليلٌ قاطعٌ على صلة القرابة التي تربطني بها؛ بدأتُ أناديها "جدتي" ولم أتوقف حتى بعد أن نَهَرتْني أمي ومَنَعَني وجيه! أناديها "جدتي" كلما اختلينا؛ تفرح وتدمع عيناها وتدعو لي بطول العمر.

* * *

صعدتُ إلى غرفتي ورأيتُ النور لا زال مضاءً في غرفة خليل. سمع دبيب قداميّ فناداني متوسلاً أن أُساعده فيما يجهد في حفظه من دروس الفرنسية. لبَّيت طلبه على مضض فقد كانت الورقة التي دسها سليم لي من شق الباب تشغلني.

استمعتُ لخليل دون اهتمام على غير عادتي. انتبه إلى شرودي:

ـ ما بك.

ـ لا شيء، مُتْعَبَة.

ـ لا بأس عليك. ارتاحي، سأكمل درسي لوحدي.

قبَّلتُ رأسه وتوجهتُ إلى غرفتي.

أضأتُ النور فور دخولي وأحكمت إغلاق الباب وسدَدْته بأن أسندتُ ظهري عليه. أخرجتُ الورقة من طيات ثوبي بسرعة وفتحتها. كان في الورقة كلمة واحدة كتبها سليم بالفرنسية "أحبك".

روعني التعبير وأغضبتني الكلمة. نبض قلبي بشدة؛ بردت أطرافي، واعتراني إعياء مفاجـئ.

سليم! لماذا؟ وكيف؟ أنا أحبه، أحبه من كل قلبي. أحبه لأنه ابن خالي، رفيقي وصديقي. كبرنا معاً، لعبنا معاً، غنينا وضحكنا وبكينا معاً! لم أفكر يوماً أن أحبه أو أن يحبني ذلك الحب الذي يكون بين شابٍ وفتاة.

كيف لم يعرف أن حبي له حب أخوي خالص.

أطفأتُ النور في غرفتي بسرعة وجلست على حافة سريري أحدق عبر نافذتي المطلَّة على أرض الديار. ليلة باردة ومظلمة. لا زال النور مضاءً في مُربَّع الجلوس. لو تذهب أمي إلى النوم وتدع فاضلة وحدها!

رأيت أمي تغادر المُربَّع وتخطو باتجاه البهو المؤدي إلى الدرج الخلفي الصاعد إلى غرف النوم. أخفيتُ الورقة بسرعة في حنايا صدري تحسباً لزيارة مفاجئة منها. اندسستُ في الفراش وتظاهرتُ بالنوم. سمعتُ وقع خطواتها تبتعد عن باب غرفتي باتجاه غرفة نومها. هدأت أنفاسي. يبدو أنها اطمأنت على خليل قبل أن تخلد إلى النوم.

انتظرتُ قليلاً.

قمتُ من سريري ونظرتُ من شق الباب. لا زال النورُ مضاءً في غرفتها وفي غرفة خليل. عدتُ إلى النافذة. آه، أُطْفِئَت الأنوار في المُربَّع. رأيت خيال فاضلة يتّجه بصحبة سَمْحَة خادمتها الحبشية إلى غرفتها في الجناح الغربي.

لو بقيت فاضلة ساهرة لبعض الوقت، أريد أن أتحدث إليها.

* * *

بدَّلتُ ثيابي على هون وأرسلت شعري من مشابكه. أخرجتُ الورقة. فتحتها. قرأتها؛ انتابتني نوبة الخوف من جديد.

ما أنا فاعلة؟

خطر لي من شدة غيظي أن أُمزِّق الورقة نُتفاً وأرميها.

ترددت.

لن أُمزقها، سأُريها لفاضلة في الصباح.

أخفيتُ الورقة تحت الفراش فشعرتُ ببعض الارتياح. هدأت نبضات

قلبي قليلاً وانتظمت.

هل في الأمر خدعة؟

سليم يحب المزاح ويهوى مداعبتي، لعلها واحدة من ألاعيبه.

عاودتُ الجلوس على سريري وفكَّرت، ماذا لو كان سليم لا يُمازحني ويحبني فعلاً؟ وماذا لو علم عارف بحب سليم لي، هل سيظن بي الظنون ويعدل عن الزواج مني؟

هل ألجأ إلى فاضلة وأرجوها أن تصرف سليم عني أم أُكلِّمه أنا؟

سأُخبر سليم عن عارف وعن الحب الذي ملأ قلبي، لكن أين وكيف أخبره؟ كيف سيتلقى الخبر، هل سيبقيه سراً أم سيغضب مني ويفضحني عند خالي وأخي؟

هل ألجأ إلى أمي قبل عودة خالي وأخي من مهمتهم في إستنبول وأخبرها عن عارف ووعده لي بالزواج؟

لسعتني برودة الغرفة فانتبهت من حيرتي وتزاحم أفكاري. روحي متعبة.

دسستُ نفسي تحت اللحاف وبكيتُ بصمت. مَسَحَتْ دموعي مرارة الغضب من قلبي وأبعدت شبح الخوف عن روحي.

غفوت.

رأيتُ أحلاماً رغم أنني كنت أتقلَّق طوال الليل. رأيتُ خالي، أخي، عارف، سليم، أمي، الكل غاضب والكل يصرخ في وجهي، أنا لم أستطع الصراخ، حاولت، لم يسمعني أحد. بكيت.

رأيت رجلاً يقترب مني، قبَّل رأسي ومسح دموعي، ناديته "أبي"، اكتفى بابتسامةٍ حزينةٍ ولم يُجِبْ. تنبَّهت من نومي.

جاءني صوت أذان الفجر من بعيد تحمله تباشير الصباح على

أجنحةٍ واهنةٍ من النور.

بقيت في فراشي ساكنة. حاولت أن أتذكر ملامح الرجل الذي زارني في الحلم وناديته أبي. لم أتذكر.

لاحت خيوط الفجر على استحياءٍ وتلونت السماء بحمرة الخجل.

أيُّ صباحٍ هذا لروحي الكسيرة.

نزلتُ عن سريري مُتَرَنِّحة. حلقي جاف، رأسي تدور، وجبهتي تنضح حبّات من العرق. اعترتني رجفات خفيفة واجتاحت جسمي قشعريرة. تناولت دثاراً صوفياً من درج "البيرو" ورميته على كَتِفَيَّ. كِدْتُ أقع على الأرض من الإعياء فاستندت إلى طاولة صغيرة بجانب السرير. انحنيت وتحسست الورقة التي أخفيتها تحت الفراش. لا زالت هناك في مكمنها رغم أنها جاثمة هنا على صدري.

يا ربِّ، أَزِح عني هذه الغمَّة.

خرجتُ من غرفتي وساقاي بالكاد تحملاني. توجهتُ إلى غرفة أمي.

فتحتُ الباب على مهل، تنبهت أمي؛ رفعت رأسها عن وسادتها، سألت بلهفة:

ـ ما بك، هل أنت مريضة.

ـ لا أدري يا أمي.

أزاحت الغطاء عنها وأفسحت لي مكاناً في سريرها. تكورت إلى جانبها. تحسَّسَت جبهتي:

ـ يا إلهي، أنت ساخنة.

ضمتني وردَّت اللحاف علينا.

خبأتُ خوفي في حضنها.

شعرت بالأمان ومستني الطمأنينة.

نمت.

* * *

فتحتُ عينيَّ على تمتمات دادا آمنة التي وقفت فوق رأسي في غرفة أمي مستغرقة في تلاوة خافتة من القرآن الكريم. نفخت بعدها على قطعة قماش غمرتها بماءٍ باردٍ ووضعتها على جبهتي. شفتاي جافتان وكذلك حلقي، شعري مبلل وكذلك وسادتي، عرق أم ماء، لا أدري. أشعر بالبرودة. حاولتُ أن أرفع قطعة القماش بأن أدفع يد آمنة عن جبهتي بظاهر يدي؛ لم أقوَ على دفعها، أنا مُتْعَبة بل مُنْهَكة. طلبتُ ماءً.

أعانتني آمنة لأجلس بأن رفعتني من تحت إبطي وأسندت ظهري على وسادتي ووسادة أخرى كانت على الكرسي وراءها. مشت باتجاه زاوية الباب وملأت الماء من "الحِق"[24] الفخاري في طاسة نحاسية صغيرة نقش باطنها بآيات من الذكر الحكيم. وقفت تقرأ على الطاسة دعواتها قبل أن تدعني أعبُّ منها رشفات صغيرة أعادت إلي روح الحياة. طلبتُ المزيد.

ـ اصبري، سآتيك ببعض الحساء، فأنت لم تأكلي من يومين.

هززتُ رأسي موافقة، فلا جدال مع آمنة فيما يتعلق بالطعام.

غادرت آمنة الغرفة ووقفت في البهو الصغير بين غرف النوم. رفعت إحدى النوافذ المطلة على أرض الديار وجلجلت بالجرس الذي حملته من غرفة نوم أمي ثم أمرت الخادمة بصوتٍ أجش إحضار الطعام. عادت إلى الغرفة مُهلِّلة:

ـ الحمد لله الذي منَّ علينا بسلامتك، هذا فضل سورة ياسين وسيدي الخضر.

هززتُ رأسي موافقة رغم أني لا أعرف أو لم أسمع عن سيدي

الخضر! سأسألها عنه عندما أتحسن وأقوى على الكلام.

لم تمض دقائق حتى سمعت خطوات أمي تدب مسرعة على الدرج الخلفي الخشبي. لم تصعد الدرج الرئيس الأمامي فقد كانت تمُطِرُ بشدَّة وأرض الديار غارقة بخيرات السماء.

دَخَلَتْ غرفتها تحمل بيديها صينية صغيرة من النحاس في وسطها وعاء من الخزف الصيني فيه مرق من لحم الضأن تتصاعد منه الأبخرة، قطعةً من الخبز، وكوباً من اللبن. سارعت آمنة لتأخذ من يدها الصينية، ردَّتْها بلطف.

وضعت أمي الصينية على طاولة بجانب السرير وجلست بجانبي. اختنق صوتها وهي تحمد الله بعد أن تحسست جبهتي. تناولت الصينية ووضعتها في حجرها. أضافت إلى الحساء فتات صغيرة من الخبز وبدأت تلقمني بالملعقة رشفات منه. وقفت آمنة مواجهة لها تتلو بصوت خافت بعضاً من أدعيتها وتنحني لتقرب وجهها من الملعقة بعد أن تملأها أمي وتنفخ عليها قبل أن ألقمها. بعد عدة رشفات، اكتفيت. احتجَّت آمنة.

ـ لا تسمعي لها يا ست نظيرة، أعطها المزيد، بعضاً من قطع اللحم لترمم عظامها أو رشفات من اللبن، اللبن يرطب البطن ويروي العطش.

نظرت أمي إليَّ راجيةً. زممتُ فمي وأغمضتُ عينيَّ.

ـ لا أريد المزيد.

ناولت أمي الصينية بما فيها إلى آمنة التي مطَّت شفتيها الهائلتين ونظرت إليَّ نظرتَها التي لا تخيب، نظرة العتاب والتوبيخ!

طأطأتُ رأسي ونظرتُ إليها بعين ضارعة.

ـ دادا، بطني تؤلمني.

أجابتني بلهفةٍ صادقة:

ـ ليتها بطني أنا يا سيدتي.

ضحكت أمي لطيبة آمنة وابتسمتُ أنا لانطلاء حيلتي عليها في كل مرَّة أستجدي فيه عطفها.

سَأَلْتُ أمي عن فاضلة، قالت هي بخير، في زيارةٍ لبيت أبيها. أضافت، عرف أولاد خالك عن مرضك وأراد سليم زيارتك، لكن الطبيب الذي أتى لعلاجك أوصى بعدم الزيارة حتى تغادرك الحمَّى وتستردي عافيتك. خفق قلبي عندما ذكرت أمي سليم. تذكرت الورقة. كنت أرفل بأثواب السعادة إلى أن نغَّص عليَّ سليم هنائي.

ـ لا أريد أن أراه.

عقدت أمي حاجبيها، سألت:

ـ من هذا الذي لا تريدين رؤيته؟

تداركت؛

ـ الطبيب، لا أريد أن أرى الطبيب، لم يعد بي حاجة إليه.

- سيزورنا اليوم كما كل يوم. أريد أن أطمئن عليك.

مدت يدها ومسَّت جبهتي بظاهر كفها ثم بباطنه أضافت:

ـ فضل من الله؛ فارقتك الحمَّى.

وقفت وهمت بمغادرة الغرفة، وصلت إلى الباب ثم عادت أدراجها، فتحت خزانة ملابسها وبعدها درجاً صغيراً وتناولت ورقة صغيرة مطوية. اقتربت مني وقالت:

ـ عندما قامت مسرورة بتغيير أغطية السرير في غرفتك وجدت هذه الورقة تحت الفراش. أريتها لفاضلة لتقرأ ما بها، لم تستطع قراءتها قالت الخط غير واضح وأشارت بأن لا أرميها بل أُعيدها إليك.

مددتُ يدي وأخذت من يدها الورقة اللعينة دون أن أفتحها. وقفت

أمي تنتظر أن أشرح لها ما جاء في الورقة؛ تجاهلتُ فضولها وحشرتها بسرعة تحت الوسادة. أغمضتُ عيني:

ـ أمي، أرجوك، أنا مُتعبة، أريد أن أنام.

غادرت الغرفة بعد أن أمرت آمنة أن تعدل الوسادة تحت رأسي وتطرح غطاءً صوفياً فوق اللحاف لتدفئتي.

مضت عشرة أيام وأنا حبيسة غرفتي التي انتقلتُ إليها من غرفة أمي بعد أن فارقتني الحمَّى. سقم جسمي وهدَّتني الحمية. لا طعام سوى مرق اللحم، واللبن، ومغلي البابونج المحلى بالعسل.

كانت الحقنة الشرجية التي تحقنها أمي في مؤخرتي كل مساء حسب توصية الطبيب أسوأ ما في العلاج. أركض إلى دورة المياه كالمفزوعة بعد الحقنة لأفرغ ما في باطني. لا أصل إلى غرفتي إلا لأركض من جديد لإفراغ المزيد. الغريب أن أمي كانت مستبشرة لزياراتي المتكررة لدورة المياه طوال الليل. أقنعتني وأقنعت نفسها أن ذلك دليل على فعالية العلاج في تنظيف البدن من السموم. دادا آمنة لم تقتنع. كانت تقف تحمل وعاء الحقنة عالياً لأمي المنهمكة في عملها وفي عينيها استنكار وغضب. تمطُّ شفتها السفلى وتُحَوْقِل وتهز رأسها علامة الأسف والحسرة. تنهرها أمي؛ رغم ذلك لا تكف. كانت تقول لو نأخذها لزيارة الشيخ إدريس، الرجل مبروك يداوي بتلاوة القرآن والحجابات بدل الفرنسي الماسخ.

سألتني آمنة مرة عندما كان الطبيب في زيارتي أن أسأله ما علاقة حمَّى الرأس وألم الحلق بهذه الحقن التي تدسها أمي في مؤخرتي؟ سألته فلم يُحِر جواباً.

نظر إليَّ وإلى آمنة بازدراء ثم تحول إلى أمي آمراً:

- استمري بالعلاج والحمية لاستكمال عشرة أيام دون نقصان.

ترجمتُ لأمي جوابه الذي أغضب آمنة.

أصرَّت آمنة على السؤال، وأصرَّ الطبيب على تجاهل الإجابة.

غادرت آمنة الغرفة دون استئذان بعد أن قالت:

ـ عجبي، يدَّعي هذا الطبيب العلم وهو لا يعرف شيئاً عن الدواء الذي يصفه!

وبَّخَتْها أمي بعد رحيل الطبيب وحذَّرتها من التدخل فيما لا يعنيها.

* * *

اليوم الثلاثاء، هو اليوم الأول الذي أغادر فيه جناح غرف النوم إلى مُربَّع الجلوس. أعلن الطبيب في زيارته البارحة أني تعافيت.

تلقَّت دادا آمنة الخبر بالزغاريد والتهاليل وجلبت إليَّ كتاب دلائل الخيرات الذي يشتمل على أورادها اليومية لأقرأ لها دعاء النجاة من التهلكة!

تُجلسني بعد صلاة العصر من كل يوم على الأريكة وتهبط هي بجسمها الهائل كما الناقة لتبرك على السجادة الصوفية أمامي. تضع مرفقها على الأريكة ليسند رأسها الذي تميله باتجاهي وتزيح عن أذنيها غطاء رأسها القطني الأبيض. تفتح عينيها الواسعتين بانتباه فيلمع بياضهما في ليل وجهها. بمزيج من اللهفة والانتظار تنقِّل حدقتين بلون العتمة بين فمي والكتيب الصغير المُهترئ الذي أقرأ منه.

أقرأ وردها على مهل وأرتِّل لها الصلوات على النبي فتردد هي ورائي ببهجة وخشوع. كانت تحفظ الكثير من الأوراد لكثرة ما رددناها معاً فتستبق بصوتها الأجش قراءاتي المُنَغَّمة. تنتبه لشطحاتها تهز رأسها علامة الأسف وتخفض صوتها.

تنتصب واقفة بعد ختمة الورد رافعة كفيها إلى السماء تدعو لي

بطول العمر. ترجو المولى أن يكتب لنا زيارة بيته ومسجد رسوله معاً بصحبة زوجٍ صالحٍ.

أداعبها:

- زوج صالح لمن يا دادا؟ يجب أن تحددي الطلب.

تصفِّق بيديها وتضرب فخذيها وهي تضحك:

- "يوه"، يا ست حورية، هو يعلم وغيره لا يعلم.

أغمز لها بعيني:

- أعرف أنه يعلم، ولكني أريد أنا أن أعلم. الزوج، لي أم لكِ؟

تجلجل ضحكتها من جديد وتمسح وجهها بكفيها:

ـ الله يعطيك حتى يرضيك عمر ورزق وعافية ويرزقك بابن الحلال الذي يعرف قيمتك.

* * *

دخلت علينا مسرورة مستأذنة ووجَّهت كلامها لآمنة:

ـ سيدي سليم بالباب يريد أن يرى الست حورية.

عقدت المفاجأة لساني.

ذهبت أمي اليوم باكراً لتقضي اليوم في بيت خالي، قالت ستعود في المساء مع فاضلة التي كانت في زيارة إخوتها طيلة فترة مرضي.

ما الذي جاء بسليم لزيارتي في غياب أمي؟

انتفضتُ واقفة وهرولتُ باتجاه الباب، صرخت آمنة:

ـ إلى أين؟ لن تخرجي من باب المُربَّع! نحن على مشارف مربعانية الشتاء[3]؛ البرد في هذا الوقت مؤذٍ وأنت لم تستردي بعد عافيتك.

---

[3] تبدأ مُربَّعانية الشتاء في دمشق في ٢٢ كانون الأول، ديسمبر، وتنتهي في ٣١ كانون الثاني، يناير من كل عام.

التفتت دادا إلى الخادمة وقالت:

ـ ليتفضَّل سيدي سليم بالدخول.

عاودتُ الجلوس في مكاني على الأريكة.

نبض قلبي بسرعة وشعرت بضيق في صدري. انتبهت آمنة لتبدل حالي، سألت:

ـ هل أنت بخير؟

ـ بخير.

همَّت بالوقوف:

ـ سأحضر القهوة وكعك التمر لسيدي سليم، شاي بالقرفة لك؟

ضغطتُ على كتفها لتبقى مكانها. قلبت كفَّيها متسائلة.

قلت بصوت خفيض:

ـ لا تتركيني في الغرفة وحدي مع سليم.

اتَّسعت عيناها من المفاجأة وضربت كفاً بكف. قالت:

ـ خيراً، اللهم اجعله خير.

دخل سليم ووقف عند عتبة المُربَّع بعد أن أغلق الباب وراءه بهدوء. حيانا دون أن ينظر إلينا.

هرعت إليه آمنة وتناولت معطفه.

فرك يديه.

ـ الجو بارد.

نظر ناحيتي وابتسم، بدا متردداً وحائراً.

بادرته بصوتٍ جاف:

ـ أمي بزيارتكم منذ الصباح.

ـ أعرف.

صمت لدقائق نظر إلى موضع قدميه كأنَّه يستجمع أفكاره.

رفع رأسه ونظر إليَّ بشوق ومحبة صافية:

ـ جئتُ لأطمئن عليك.

لم أحرك ساكناً؛ تابع:

ـ عندما عدتُ من المدرسة ولم أجدك مع عمتي قلقت واستأذنتها لزيارتك.

أجابت دادا آمنة، وليتها لم تجب:

ـ الله لا يحرمكم من بعض. والله يا سيدي سليم الله قدَّر ولطف.

تشجَّع سليم وابتسم ابتسامته الواسعة متجاوزاً بها العتبة.

ـ الحمد لله على سلامتك.

اقترب ليجلس على الأريكة بجانبي كما هي عادته، أو بالأحرى عادتنا.

نَفَرتُ منه؛ وقفت منتصبة لأعلن لدادا آمنة بأنني متعبة وأريد أن أصعد إلى غرفتي. اعترضت آمنة:

ـ غرفتك باردة، انتظري ريثما أضع الحطب في مدفأة البهو المؤدي لغرف النوم.

همَّت بالوقوف لتترك الغرفة فنظرتُ إليها بغضب ومددت يدي وضغطت على كتفها بغيظ لأعيدها إلى وضع الجلوس.

استنكر سليم حركتي المفاجأة.

سألته آمنة لتخفي ارتباكها:

- هل أطلب لك القهوة وكعك التمر يا سيدي. خبزته هذا الصباح بالحلبة واليانسون وكأن قلبي حدثني بزيارتك.

هبَّ واقفاً دون إنذار:

- لا داعي.

سارع نحو باب المُربَّع، تناول معطفه وغادرنا.

صفق الباب وراءه بقوة.

نظرت إليَّ آمنة بعد أن قلبت شفتها السفلى مستفسرة ولوحت بيدها متسائلة.

تجاهلتُها وتهالكتُ على الأريكة وقد احتقنت عيناي بالدموع. غطيت وجهي بيدي وبكيت. سحت دموعي غزيرة وعلا نشيجي. جَفِلَتْ آمنة وسارعت لتجلس بجانبي وجعلت تردد:

- بسم الله، بسم الله ألف مرَّة وألف كرَّة، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء. ما الذي يبكيك؟ ماذا جرى؟

ـ لا أعرف، لا أعرف.

أمسكت وجهي بكفيها وأمالت رأسي على صدرها وجعلت تُكبِّر في أذني.

ـ الله أكبر، الله أكبر، اللهم اخز الشيطان ببركة اسمك العظيم، لا إله إلا الله، الله أكبر.

هدأت نوبة البكاء التي داهمتني فمسحت آمنة دموعي بطرف غطاء رأسها. قالت:

ـ يوم الجمعة، سأذهب باكرا لزيارة الشيخ محيي الدين. سأوزع الخبز هناك قبل الصلاة على نيَّة أن يهدِّي الله سرُّك.

ـ ليس هناك أسرار لتهدأ يا دادا، هي هموم سببها حظي العاثر.

خبطت يدها على صدرها الوارف فاهتز:

ـ هموم، الشر برَّه وبعيد.

* * *

عادت أمي وفاضلة بُعَيْدَ صلاة العشاء. انشرح صدري لرؤية ابنة خالي. كانت هي الأخرى مبتهجة لرؤيتي.

ـ كأن بطنك قد تكور خلال العشرة أيام الماضية!

تحسست بطنها بفرحٍ من فوق أكداس الملابس التي ترتديها.

ـ أتظنين ذلك؟

ردت آمنة:

ـ ما شاء الله، تبارك الله.

سألتني أمي إن كنت قد تعشيت. تبرعت آمنة بالإجابة عني:

- تحجَّجت يا ست نظيرة بأنها تريد أن تتعشى مع فاضلة رغم أنني قلت لها بأن عشاءكم سيكون في بيت الباشا مع الشباب.

نظرت أمي إليَّ وقد عقدت حاجبيها:

- ألم أقل لك بأنني سأقضي اليوم في بيت خالك وأنني سأعود مع فاضلة بعد العشاء؟

- أعرف يا أمي ولكني لستُ جائعة.

تدخّلت آمنة:

- لم تذق الزاد منذ أذان الظهر، ورفضت حتى الشاي عندما زارنا سيدي سليم.

أجابتها أمي:

- هل تعشى سليم وحده؟

- أبداً لم تستغرق زيارته دقائق، غادرنا على عجل حتى أنه لم يشرب القهوة.

توجهت فاضلة لأمي بالكلام والخوف يغلف نبرات صوتها:

- لكنه لم يرجع إلى البيت ليتعشى معنا، ترَكَنا قبل صلاة العصر،

والآن تجاوزنا صلاة العشاء، ظننتُ أنه هنا!

بدا القلق على وجه أمي.

خفق قلبي ونظرتُ إلى آمنة التي شبكت يديها فوق بطنها بعد أن أصلحت غطاء رأسها وأردفت:

ـ خرج سيدي سليم، والله أعلم، غاضباً من الست حورية.

صرختُ في وجه آمنة:

ـ غير صحيح، أنا لم أُغضبه.

التفتُّ إلى أمي.

ـ كنت متعبة وأردت الصعود إلى غرفتي، ففضل هو الرحيل.

أجابت آمنة بعناد:

ـ بل خرج غاضباً!

حاصرتني عيون فاضلة هذه المرَّة بألف سؤال. قالت مُوجهة الحديث لأمي:

ـ ليس من عادته أبداً يا عمتي ألا يعود إلى البيت أو أن يتأخر خصوصاً في غياب أبي.

هزت أمي رأسها موافقة. التفتت إلى آمنة:

ـ أرسلي مسعود إلى بيت أخي ليطمئن على سليم، قولي له أن يعود بالحال ليخبرني.

تمتمت آمنة:

ـ خيراً، اللهم اجعله خير.

خرجت آمنة بأوامر أمي مسرعةً وبقيت أنا محصورة بين أمي وفاضلة.

أمي التي أقلقها غياب سليم، جلست على كرسيها الوثير دون أن

تنزع عنها غطاء رأسها الذي لا زال مشبوكاً بخمارها الأبيض الذي رفعته عن وجهها. انشغلت فاضلة بخلع أرديتها.

جلست فاضلة على كرسي بجانب طاولة الطعام، وضعت يدها على جبهتها وكأنها تسندها وتشاغلت عني بالنظر إلى الجمر المُتَّقد في المدفأة.

حاولت أن أتكلم؛ لكن الكلمات اختنقت في فمي ولم أجد ما أقول.

تُرى هل حدث مكروه لسليم؟

لم يكن قصدي إغضابه، رغم أنيِّ غاضبة منه.

هل أبوح لأمي وفاضلة عن السر الذي أخفيه وأفضحه عندهما أم أنتظر وأشكيه لفاضلة وحدها؟

ماذا لو غضبت فاضلة لغضب أخيها وفضحت سرِّي عند أخي؟

مرَّت ساعة كأنها دهر. رجع مسعود ليؤكد أن سليم في البيت وأنه تأخَّر لأنه عرج في طريق عودته إلى المنزل لزيارة صديق له.

عقَّبَت فاضلة:

ـ الحمد لله.

جرى الدم في عروقي عندما اطمأن قلبي على سلامة سليم.

خاطَبْتُ عيون فاضلة بابتسامة بريئة ردَّت عني شبهة الخلاف الذي شبَّ بيني وبين أخيها.

* * *

غادرتنا أمي التي قالت بأنها متعبة إلى غرفتها بعد أن وبَّخَتْ آمنة المسكينة واتَّهمَتها بإشاعة القلاقل. ابتلعت آمنة كعادتها كلام أمي بأن وقفت وقد طأطأت رأسها واستسمحت أمي وهمَّت بأن تشرح. منعتها أمي من الاسترسال في الكلام بأن رفعت يدها في وجهها علامة أنها لا ترغب بالمزيد وأدارت ظهرها مغادرة.

تبعتها آمنة لتنير لها الممر إلى بهو الدرج الخلفي.

عادت آمنة لتجلس في ركنها المعتاد بانتظاري لتصحبني إلى غرفة نومي. نظرت إليَّ بغيظ بعد أن جلست وأسندت رأسها على الحائط وراءها ولامتني كعادتها بعقدة حاجبيها. تجاهلتُها.

ليتني غادرتُ مع أمي؛ أكثر ما أخشاه أن تعود فاضلة لسؤال آمنة عن سليم.

بقيت في المُربَّع متحفِّزة رغم الهدوء الذي اصطنعته.

كانت فاضلة لا زالت جالسة على الكرسي تنتظر أن تهيئ لها سمحة غرفتها وتفرغ حقيبة ثيابها التي صاحبتها أثناء زيارتها لإخوتها.

التفتت فجأةً ناحيتي وبادرتني:

ـ نحُلَ جسمك يا حورية وشَحُبَ لونك، ما رأيك بعشاء خفيف؟ سآكل معك.

تنبهت دادا آمنة وهمَّت بالوقوف.

ـ دادا، لا تحسبي حسابي، لست جائعة.

التفتُّ إلى فاضلة قائلة:

ـ كلي أنت.

ردت بعتاب:

ـ لا رغبة لي بعشاء آخر، ووحدي!

عدَّلت آمنة من جلستها وأعادت إسناد رأسها إلى الحائط وأغمضت عينيها.

كسرت فاضلة حاجز الصمت من جديد.

ـ حفظتُ لحن طقطوقة جديدة دربني عليها سليم. أعجبتني وأعتقد أنها ستعجبك. كأن من لحنها، لحنها خصيصاً لصاحبة الصوت الرقراق

الذي يذيب القلوب في الصدور، كروان الجنان، هذا ما قاله الموسيقار سليم.

ابتسمت عيناها بمحبة صافية، أضافت:

ـ سأسمعك إياها.

ـ إذا أعجبتك، فلا شك بأنها جميلة. لندع الاستماع إليها للغد.

عاد الصمت الثقيل بيننا.

أطلَّت سمحة أخيراً من باب المُربَّع لتعلن لسيدتها أن غرفتها جاهزة لاستقبالها. دعتها فاضلة للدخول فهي لا تنوي النوم في الحال وتود أن تقضي بعض الوقت معي. هكذا قالت.

خفق قلبي خوفاً. التفتُّ إليها:

ـ أنا أيضاً بشوق لك لكنني متعبة وأود الصعود إلى غرفتي.

بدا الاستنكار على وجه آمنة التي فتحت عينيها المغمضتين بعد أن ضيَّقَتهما وعقدت حاجبيها. نظرت إليَّ بغيظ.

ابتسمتُ لها وقلت آمرة:

- هيا يا دادا، أنا مُتعبة.

انتصبت قامة آمنة واقفة ومشت ورائي. قبَّلتُ جبهة فاضلة وتمنيت لها ليلة هانئة.

غادرتُ بسرعة باتجاه الدرج الخلفي ومنه إلى جناح غرف النوم وآمنة في أعقابي.

تابعتني عيون فاضلة وشعرتُ بخيبتها التي خلّفتها ورائي.

* * *

دخلتُ غرفتي وشعرتُ بالأمان. أَغْلَقَتْ آمنة الباب وراءنا بهدوء ووقفت على غير عادتها في ذيله وقد شبكت أصابع يديها الثخينة فوق

بطنها الطافح.

آه، لا زالت محتفظة بعقدة حاجبيها.

تَجاهلْتُها فليس في نيتي الانخراط في جدلٍ يغيظني هذا المساء.

بدأت بخلع ثيابي، ناولتني آمنة ثوب النوم. لبسته، وبدأتُ بفك مشابك شعري. اقتربت لتساعدني أبعدت يدها عني.

همس صوتها الأجش:

ـ هل هناك ما تريدين قوله ليُفسِّر سوء تصرفاتك؟

أجبتها باستياء:

ـ سوء تصرفاتي!

تدارَكَتْ:

ـ قصدي أنَّه ليس من عادتك أن لا تجالسي سليم ولا تسهري مع فاضلة.

ـ دادا، أنا متعبة ولا أريد جدالاً.

ـ معاذ الله، أنا لا أجادلك، كل ما في الأمر ...

قاطعتها:

ـ كفى كلاماً، أريد أن أنام. أطفئي النور وأغلقي الباب وراءك، فأنا لا أحتاجك الليلة.

قالت بصوت كسير:

ـ أمرك سيدتي. تصبحين على خير.

رحلت إلى غرفتها وأخذت معها شعور الأمان الذي اعتراني عندما دخلتُ غرفتي.

جلستُ على طرف السرير وأسندتُ رأسي على حافته.

حاولتُ الاحتماء بالعتمة من هيجان أفكاري. صورة سليم الغاضبة

وهو يغادر المُربَّع ماثلة أمامي، تؤرقني. ما عساه فاعل؟

نظرتُ عبر شباك غرفتي إلى أرض الديار. لا زال نور المُربَّع مضاءً. آمنة على حقٍّ، لم يكن لائقاً أن أترك فاضلة في أول ليلة لها بعد عودتها من بيت خالي.

أنا مشوشة ومُنهكة. زيارة سليم نغَّصَت عليَّ يومي وقلبت كياني بعد أن ظننت أنني تعافيت من الورقة التي تركها لي.

كشفتُ اللحاف وارتميتُ في حضن السرير البارد. حاولت أن أستجلب ذكرياتي الدافئة مع عارف في الناصرة لأهدأ فلم أفلح. أشعر بمزيج غريب من الحزن والخوف. قرأت في سرِّي بعضاً من آيات القرآن التي أحفظها وأتبعتها ببعض أوراد آمنة. غفوت.

أخذتني أحلامي إلى دنيا لا شمس فيها ولا قمر.

* * *

مرَّت أيامي بطيئة وجاء يوم الجمعة. يوم زيارة الشباب لقضاء اليوم معنا. صحوتُ باكراً رغم أنني لم أنم من الليل إلا بعضه. بقيت في فراشي أفكر كيف سألقى سليم.

شمس اليوم غائمة؛ حَجَبَت ضحكتها المشرقة سحبٌ كثيفةٌ من الغمام كما حجبت الأحزان أفراح قلبي. رغبتي شديدة بالبكاء. تماسكتُ، سأبقى في غرفتي اليوم وأَدَّعي المرض.

بدأت حبات المطر تقرع نافذتي وتسارعت. يبدو أن السماء تشاركني أحزاني.

قمت إلى النافذة فرأيت أرض الديار تقف عاريةً فاتحةً ذراعيها لرحمة السماء. غرقت أشجارها في سيلٍ من القبلات غسلت عنها كآبة الأيام وهزتها رياحٌ جاءت عاصفة أشاعت في جنباتها نشوة الارتواء.

تجمعت حبات المطر في السواقي وجرت في جوقاتٍ متناغمة تعزفُ للإله تسابيح الشكر والامتنان.

لبهاء الطبيعة سحر؛ سحرها غسل قلبي من الأحزان وجلب إليه شعور لطيف، شعورٌ أقرب إلى الفرح منه إلى الرضا.

تناولت الجرس من جانب سريري وهززته لآمنة فأتت مسرعة تحمل المنشفة والماء الساخن. غسَلْتُ وجهي بعد أن تمضمضت ومَسَحَتْ آمنة بالماء الفاتر المعطر بماء الورد جسمي بعد أن خَلَعَت عني ثياب النوم. اخترتُ ثوباً من الصوف لونه أحمر بلون الكرز بياقة وأكمام نهاياتها واسعة من "الكروشيه" باللون الأبيض. ثوبٌ حاكته أيادي نسوة الناصرة، موطن الحب الذي ملأ قلبي بالدفء.

لملمت آمنة الثياب للغسيل ووضعتهم في "قِفّة" من القش حملتها على رأسها ومضت بها بعد أن مشّطت شعري وضَفَّرَته.

لم تغازلني هذا الصباح بزغاريدها كعادتها؛ لا زالت غاضبة مني!

أمنية آمنة أن أكون زوجةً لسليم؛ لطالما امتدحته لي عندما ننفرد:

ـ سليم شاب ذكي، متعلم، مهذب، ووجهه ضاحك يجلب السعد؛ ليته يكون من نصيبك.

أضحك من كلامها:

ـ أتزوج من شاب لأن وجهه ضاحك؟ لا رغبة لي بالزواج يا دادا لا من سليم ولا من غيره.

تُرَقِّص لي حاجبيها لإغاظتي:

ـ سيأتي نصيبك ونفرح بك.

تُكمِل وكأنها تدندن أغنية:

ـ يا زارع الودّ في قلوب صحابها، هي بنت "عمتو" وهو ابن خالها.

أغضب وأُهدِّدها بأني سأشكوها لأمي؛ تسكت وتنصرف عني.

* * *

أتت مسرورة لترتيب الغرفة وتنظيفها فغادرتها أجرجر حيرتي بعد أن عاودني القلق والخوف من لقاء سليم.

كنتُ أول الداخلين إلى المُربَّع. سألتُ الخدم عن أمي فقالوا "في الآعة". سألت عن فاضلة فقالوا "الشريفة لا زالت في بيتها".

يُطلق الخدم على الجناح الغربي من بيتنا اسم "بيت الشريفة" منذ أن شغله وجيه بعد زواجه من ابنة خالي فاضلة.

بيت الشريفة

تدخل فاضلة إلى جناحها عبر ممر مسقوف في أرض الديار على يمين مُربَّع جلوسنا.

لمدخل بيتها بوابة بدرفتين خشبيتين تدعمها من الجانبين أعمدة من المرمر بتيجان رخامية. ينتهي المدخل بدرج رخامي واطئ له درجات ست يؤدي إلى شرفة واسعة بسقف يقف على دعائم. شرفة بيتها مفتوحة على أرض ديارنا.

تطل على هذه الشرفة أربع غرف واسعة إضافة إلى جناح غرفة نومها. يزدان سقف وجدران غرفة نوم فاضلة بنقوش ورسوم لمناظر طبيعية خلابة وطيور بديعة صممها ونفذها فريق من الحرفيين والرسامين المَهَرَة أتى بهم أخي وجيه من إستنبول.

اختارت فاضلة لتغطية نوافذ غرفة نومها ستائر عملاقة من المخمل الأزرق الداكن امتدت من السقف إلى الأرض. تترك نوافذ غرفتها مواربة للنسيم فيتسلل حاملاً معه عبير الأزهار والرياحين التي تعج بها الأحواض المبحترة في أرض الديار. يحمل لها في طريقه أيضاً أمواجاً من عبق الياسمينة العملاقة المواجهة لشرفتها فتتراقص له "الطُرَر" التي تزين أطراف ستائرها المخملية الزرقاء كلما استجابت الستائر الحريرية البيضاء الرابضة تحتها لمداعباته التي لا تمَلَّها.

ينام بيت فاضلة في حضن بيتنا الكبير كما تنام هي في أحضان محبتنا.

جلب وجيه مفروشات بيته من إستنبول وقسَّم جناح غرفة نومه إلى

أركانٍ ثلاثة. فَصَلَ ركن النوم عن ركني الجلوس والمكتبة بقوس كبير من خشب الجوز الداكن نقشت عليه رسوم حديقة غناء طُعِّمت ورودها وطيورها النافرة بصدفٍ لؤلؤي لامع وبأسلاك من النحاس والفضة. حُمِلَ القوس على قاعدتين من الخشب شكَّلا جذعي شجرتين بهيتين.

احتل سرير النوم النحاسي الكبير صدر الغرفة. كان السرير قائماً على أعمدة أربعة تصعد عليه فاضلة لارتفاعه بسلم خشبي صغير له درجات ثلاث كُسِيَ وجهه بقماشٍ لامعٍ. يُحْجَبُ السرير عن بقية الغرفة بستائر بيضاء شفافة ويغطي وجهه مفرش من الحرير الدمشقي نبيذي اللون طُرِّزت أطرافه بالسرما.

خزانة الملابس، بأبوابٍ خمسة من خشب الجوز الداكن المحفور والمصدَّف تعلوها مرآة كبيرة. على الجانب الآخر من السرير وُضِعَ "البيرو" المصدف. في ذيل السرير صندوق كبير من الخشب المصدَّف وضع فيه الخدم مفارش إضافية للسرير.

جُهِّزَ الركن الذي على يسار الداخل إلى غرفة النوم بمدفأة برونزية بهية. غطَّت أرضيته الخشبية المرتفعة سجادة صوفية سميكة تناثرت عليها أرائك ومُتكآت وطنافس حريرية باللونين الأزرق والنبيذي حشيت بطون بعضها بالقطن والأخرى بريش النعام ووضع في منتصف هذا الركن طاولة وجهها من خشب الجوز الداكن قوائمها قصيرة من الفضة الخالصة على شكل رؤوس أشبال أُسودٍ أربعة.

خُصِّصَ الركن الأيمن من الغرفة لمكتبة وجيه التي ناءت رفوفها بأحمال المجلدات والكتب ولفائف المخطوطات التي يجمعها. إضافة إلى المكتبة، كان هذا الركن مجهَّزاً بمكتب واسع من الخشب الداكن يقابل النافذة المطلَّة على الشرفة وكرسي يجلس عليه وجيه لمراسلاته وكتابة

أشعاره.

يُتقن وجيه العربية والفارسية والتركية والألمانية. ولديه إلمامٌ باللغتين الإنكليزية والفرنسية. ينظم الشعر بالعربية والتركية والفارسية ويراسل أصدقاء له من عرب وأتراك وعجم باللغات الأخرى.

درس أخي في المدرسة االسلطانية الحربية في إستنبول وعين عقب تخرجه الذي كان برتبة الشرف الأولى في منصب مستشار من الدرجة الثانية لكومندان الشام ورئيس الديوان العرفي، المنصب الذي يشغله خالي الشريف نوري باشا في دمشق منذ عدة سنوات.

* * *

ليس من السهل على من يعرف وجيه كشاعر وأديب موهوب أن يتقبَّل ردود أفعاله الغريبة في بعض المواقف والظروف. لعل انخراطه في السلك العسكري وتفوقه في علومه إلى جانب شخصيته الانضباطية حد الهوس كانت المسؤولة عن وجود هذه البؤرة العنيفة الكامنة في أعماقه والتي جعلتنا نعيش أنا وخليل في رعبٍ دائمٍ من عصيان أوامره.

تأرجحت تصرفات وجيه في تنشئتنا بين الرفق في أغلب الأحيان، القسوة أحياناً، والعنف حد الهمجية فيما ندر. تتنازع شخصيته صفات الشاعر المرهف الذي يراقص أوزان الشعر وقوافيه، بلاغة الخطيب المفوَّه الذي يعرف كيف يختار الكلمات ويصقل العبارات، المُصوِّر الهاوي الموهوب الذي أسلم له الضوء زمام انفلاته فقاربت الصور التي يلتقطها حد الإبداع على رأي الأصدقاء الذين تنافسوا معه في هذه الهواية، وأخيراً، العسكري المنضبط الذي لا يعرف إلا إصدار الأوامر وينتظر تطبيقها بحذافيرها. الكل يعرف أنَّ المخلوقات التي تدور في فلك وجيه عليها أن تبلغ في تأدية واجباتها حد الكمال.

ذكريات طفولتي وطفولة خليل اقتصرت على اتباع الأوامر وتجنُّب النواهي وتأدية الواجبات التي توكل إلينا دون تردد أو مناقشة حسب تعليماتٍ دقيقةٍ وصارمةٍ. عرفنا في سنٍ مُبكِّرة أن الطاعة العمياء له ولأمي هي السبيل الوحيد لحياةٍ هادئة.

لم يجرؤ أحدنا على مخالفة المعتاد أو الخروج عن المألوف إلا فيما ندر. استحضار امكانية العقاب الذي ينتظرنا لو فكَّرنا كان كافياً لأن يمحو من أذهاننا أي محاولة لتجاوز حدودنا لشهور إن لم يكن لسنين.

نشأ وجيه في جوٍّ من الترف والثراء الفاحش في كنف أبٍ عربيٍّ كردي من سلالة الأيوبيين وأم تركية الأصل سليلة أحد السلاطين العثمانيين. الطفل الوحيد الذي أتمَّت والدته فيه حملها قبل إنجابنا أنا وخليل ووضعته سليماً مُعافى بعد إجهاضات كثيرة ولسنين عديدة. ينام الطفل الوحيد في غرفة والديه تحت الأغطية الحريرية محاطاً بمصاحف مخطوطة بماء الذهب ويشرب في كؤوسٍ من الذهب والفضة مرصع بعضها بالجواهر والأحجار الكريمة نُقشت حوافها وقعورها بآيات الذكر الحكيم.

لم يذهب إلى مدرسة أو كتَّاب، كان المدرسون هم الذين يأتون إليه كلَّ صباح مسخِّرين علمهم ووقتهم لتنشئته. قرضَ الشعر صغيراً ونبغ في العلوم واللغات. كان قرَّة عين والده وأمله الوحيد في هذه الحياة.

توفي والدي ولم يتجاوز وجيه عامه التاسع. استيقظ في صبيحة ذلك اليوم المشؤوم محاطاً برجال العائلة الذين أخبروه بوفاة والده المفاجئة والميراث الطائل الذي تركه له في وصيته. عانقته والدته ذاك الصباح وتشبثت به كتشبُّث الغريق بقطعة خشب صغيرة رآها فجأة طافية أمامه في خضم بحرٍ هائجٍ. دفنت وجهها في صدره وبكت بلَوعةٍ وقد

أدركت أنَّ ما وقع لها قد غير مجرى حياتها إلى الأبد.

كان على هذا الصبي الصغير أن يستوعب فجيعة والدته في زوجها، وفجيعته هو في والده، ومهمة إدارة شؤون تجارة أسستها العائلة من عشرات السنين تُقدَّر قيمتها بعشرات الآلاف من الليرات الذهبية "العصملية" [25]. مهمَّة كان من الممكن أن تكون مستحيلة لو لم يكن وجيه على قدرٍ كبيرٍ من الوعي والذكاء والانضباط. خلع في ذلك اليوم وقبل الأوان رداء الصِبْية وادَّثر برداء الرجولة.

تعلَّم وجيه في هذه السن المبكرة كيف يملأ الفراغ الذي تركه والدي ويكون عند حسن ظن خاله، الرجل العسكري الذي أحاطه وجيه في وجدانه بهالة من القدسية. حبُّه لوالدتي وخوفه عليها إلى جانب نضجه المبكر جعل منه الحصن الذي تلجأ إليه تلك الأنثى المدلَّلة التي تتنازعها مخاوفها وهواجسها وتعجز عن اتخاذ قراراتها بنفسها، أمي.

لا عجب في أن يتعلَّم وجيه في هذه السن المبكرة أصول السيطرة على أحاسيسه وكبت مشاعره ليقوم بدوره متجاوزاً بذلك كل العقبات في سبيل نيل الرضى من أمي والمديح من خالي. تقمَّص الصبي الصغير دور الرجل الناضج في إدارة شؤون العائلة المادية، ودور التلميذ النجيب الذي يجب أن يتجاوز توقعات أساتذته ومعلميه في مُختلف العلوم، ودور الأب الصارم لطفلة صغيرة لم تتجاوز العامين، هي أنا، ووليد له من العمر شهورٌ ثلاثة هو أخي خليل.

أتساءل أحياناً، لو بقي أبي حياً، هل يختار وجيه لنفسه السلك العسكري ليكون نسخةً أُخرى من خالي أم يُطلق لروحه الشفيفة العنان لتأخذه إلى منابع المعرفة العلمية التي تستهويه والجمال الذي يعشق، كما كان أبي؟

لا أدري إذا كنا نحن من نختار أقدارنا، أم أن أقدارنا هي التي تختارنا.

رُغم ذلك، لا يُمكن القول بأنَّ لوجيه شخصية غير مستقرة، على العكس، لشخصيته انسجامها المتناغم وسحرها الخاص؛ هو نموذج للإنسان المُستبد المُستنير. يُجاري العصر بمفاهيم يبنيها على دعائم تراثنا الحضاري الذي يعشقه. لم يصبغ إرثه المعرفي بصبغةٍ دينية، جعله أخلاقياً مُتزمتّاً.

هذا لا يعني أنَّ وجيه منكر للإله أو أنه لا يقيم شعائر الدين؛ على العكس، هو شابٌّ متدينٌ، لكنَّه كغيره من شباب هذا العصر، يحلم بمجتمع يعيش فيه الناس من مختلف الأجناس والأعراق بحرية لا يشوبها خوفٌ، يخلطون لغاتهم دون حواجز ويمارسون عاداتهم بفخرٍ، عالم تحكمه قوانين عادلة وتسوده أخوَّة إنسانية تمتزج فيها الألوان وتتنوع فيها الظلال.

أفكاره التي يطرحها بين وقتٍ وآخر في منتدانا الشهري، ثورية وأرستقراطية بالفطرة؛ يتوق من خلال نشرها إلى تحقيق الحرية وإقامة العدل في بلاد يحكمها دستور يضمن حرية المُعتقد والعلم والمعرفة في الامبراطورية العثمانية دون أي تفرقة أو تمييز في الحقوق أو الواجبات بين رعاياها.

رغم الاشمئزاز الذي كان يبديه من وقتٍ لآخر من العادات التي يتمسك بها بعض العوام في بلادنا، ويسميها جهلاً وأحياناً تخلُّفاً، إلا أنه كان يولي عادات وتقاليد سلالته العربية الكردية العثمانية كل الفخر والتمجيد.

شغفه بالمعرفة والعلوم المعاصرة وفَّر لي ولفاضلة، زوجته، تعليماً لم تحلم به فتاة أخرى من جيلنا. استبداده وتشدُّده رسما لنا أدوارنا الأنثوية

التي انحصرت في اتباع إرشاداته وتعليماته الصارمة مع فسحةٍ صغيرةٍ من الحرية استمتعنا بها دون أن نتجاوز حدودها.

أظن أنَّ ابنة خالي، فاضلة، هي الوحيدة التي بقيت تتبع أوامره وإرشاداته المتشددة بحذافيرها، بينما نجحت أنا وخليل عندما بدأنا نكبر، وبشيءٍ من المكر والتستُّر، من التحرر البسيط من سطوته. لعبت الأقدار الدور الأكبر في انفلاتنا في ظروفٍ استثنائية من قبضته التي كانت تضيق علينا في معظم الأحيان حدَّ الاختناق. خليل الذي تمتّع منذ طفولته المبكرة بشخصية لاهية وعبثية، شكَّل التحدي الأكبر لوجيه عندما بدأ يشب.

أصرَّ خليل عندما بلغ العاشرة من العمر على الالتحاق بالمدرسة التي كان يذهب إليها ابن خالي مصطفى. بدأ يرفض أثناء غياب وجيه عن البيت مقابلة المدرسين الذين يأتون لتدريسه. قد تنجح أمي في بعض الأحيان في إجباره على استقبالهم فيلجأ هو إلى مُشاكستهم وإغاظتهم طوال فترة الدرس حتى يرحلوا.

اشتكى المدرسون، وتفنن وجيه في أساليب معاقبة خليل لحمله على الطاعة، دون جدوى. تدخل خالي، الذي كان نادراً ما يتدخل في قرارات وجيه المتعلقة بأُسرتنا، وألحق خليل بمدرسة مصطفى وأخذ على عاتقه مهمَّة متابعة تحصيله العلمي.

وجد خليل في ذهابه إلى المدرسة كلَّ صباح مُتنفساً. يأتيني كلَّ يومٍ بأخبارٍ مدهشة عن طبيعة الحياة في المدارس. نقضي ساعات من المرح في غرفته يروي لي فيها تفاصيل المؤامرات التي يحيكها الطلاب ضد بعض الأساتذة المُتعنِّتين وضد بعضهم البعض.

تجرأتُ يوماً وأعربتُ لوجيه عن رغبتي في الالتحاق بمدرسة للبنات حدثتني عنها مدرسة اللغة الفرنسية. حسم وجيه الأمر بأن حَدَجَني بنظرةٍ

وأَدَت أُمنيتي في مهدها. صرفتُ النظر كلياً عن إعادة المحاولة باستحضار صوت خليل وعويله وآثار الحروق التي لا زالت على يديه عندما عاقبه وجيه بطريقةٍ قاسية بل بهمجية وعلَّلها بسببين، الأول عدم التزام خليل بوعدٍ قطعه على نفسه ولم يفِ به، رغم أنَّ لا خيار لنا عندما نُجبر على قطع مثل تلك الوعود، والثاني، لممارسة خليل هواية الرسم خِلْسَةً ودون استئذان.

* * *

ورث خليل موهبة الرسم عن والدي. لم يترك والدي الكثير من آثار هوايته إلَّا كرّاسةً صغيرة صنَّف فيها أنواع الزهور التي تنمو في دمشق وكتب تحت كل زهرة بالحبر الصيني الأسود أسماءها العربية الشائعة وأسماءها العلمية اللاتينية وزيَّن كل صفحة بلوحةٍ جميلةٍ رسمها بإتقان ولوَّنها بإبداع حتى كادت تنطق.

عندما بلغ خليل العاشرة من العمر، أهدى له وجيه كرّاسة الزهور وأرفقها بأخرى مطابقةٍ لها كان والدي ينوي استخدامها لإتمام مشروعه في تصنيف وتوثيق أسماء الأعشاب الدوائية الشائعة في دمشق ورسمها. شجَّع وجيه خليل على إتمام العمل الذي بدأه أبي ووعده عندما ينتهي من مشروعه وينال رضى أساتذته أن يأخذه في إجازة طويلة لزيارة مصر والقيام برحلة صيد إلى السودان.

تحمَّس خليل للفكرة وقَبِلَ العرض طمعاً بالسفر وبرحلة الصيد لا محبةً أو اقتناعاً بتأدية مهمة أملاها وجيه عليه وهي لا تعني الكثير له.

استقدم وجيه لاستكمال مشروع والدي رحمه الله شيخٌ اشتُهِرَ عنه معرفته الواسعة بأسرار التداوي بالأعشاب وتعاقد مع مدرس للعلوم الطبيعية أرمني الأصل، قيل أنَّ له معرفة بتصنيف الأعشاب الطبية ودراية

باللغة اللاتينية. جاء بالشيخ من بغداد والأستاذ من حلب وأقام كلاهما على حساب وجيه في أحد النُزل القريبة في دمشق.

للعمل في هذا المشروع الكبير، كان على خليل بعد عودته من المدرسة أن يقضي أوقات ما بعد الظهيرة وأيام الإجازات في غرفة المكتب مع أساتذته.

لم يمض وقت طويل قبل أن يكتشف خليل أن هذا المشروع بمثابة سجن له، والأساتذة القائمين على تنفيذه في مقام حراس السجن الذين لا يتورعون عن رفع تقاريرهم إلى وجيه، السجَّان، الذي حرمه من أوقاتٍ كان من المفروض أن يقضيها في اللهو والمرح. قاوم خليل هذا الظلم بأن تفنَّن في اختلاق الطُرق التي يصرف فيها أوقاته خلال الدروس دون إحراز أي تقدم يُذكر للمشروع.

انتبه الصبي إلى النقاشات الحامية التي كانت تحتدم بين الشيخ والأستاذ فقام باستغلالها أبشع استغلال لتعويض أوقات لهوه وتسليته المفقودة.

تبدأ الخلافات عادةً بين الشيخ والأستاذ عندما يُصرُّ الشيخ حسب خبرته في مجال التداوي بالأعشاب دون خلفية علمية واضحة على اسم النبات ويُصر الأستاذ على اسم آخر يدعمه بالمصادر الأجنبية التي جلبها لتصنيف وتبويب الأعشاب الطبية. يحتدم النقاش بينهما عندما لا يتنازل أحد الطرفين عن موقفه ويتطور في مُعظم الأوقات إلى شجار. يعترض الشيخ على الأستاذ الذي يدقق في كلِّ ملاحظةٍ يُبديها ويعزوها إلى نيته في التقليل من شأنه أمام تلميذه؛ وينبري الأستاذ ليشرح للتلميذ وجهة نظره وأهمية المنهج العلمي الذي يتبعه في إنجاز العمل. يثور الشيخ عندما يتهمه الأستاذ بعدم احترام العلم ومنهجية العمل وبأنه غير مطَّلع أو على دراية

كافية بخطة العمل التي اتَّبعها والدي، رحمه الله، في تصنيف كرّاسة الزهور الدمشقية التي بين أيديهم.

لأسبابٍ لا تخفى دوافعها، سخَّر خليل طاقاته وصرف أوقاته في إذكاء الخلاف بين الرجلين. فتارةً هو في صفِّ الشيخ داعماً مزاعمه لإثارة حفيظة الأستاذ الأرمني الذي يزداد تصلُّباً في مواقفه وتعصُّباً لآرائه؛ وتارةً أخرى في صف الأستاذ ليُشعل غضب الشيخ الذي يتدفق كالحمم ولا يهمد إلا بانتهاء الساعات المخصصة للعمل.

يخرج خليل بعد ساعاتٍ من المكتب منتصراً لعدم إحراز أي تقدم في العمل المفروض عليه، صارفاً أوقاته في رسم الرجلين أثناء ثورات الغضب التي تنتابهم بدل أن يصرفها في رسم مسودات الأعشاب التي جهد الشيخ والأستاذ في جمعها لتصنيفها. يرسم خفيةً وجوه الرجلين ويُصوِّر قبضات أيديهم المُحتدمة الغاضبة. يُشركني في مغامراته بعد رحيل الرجلين بعرض لوحاته الصغيرة التي بلغت بدقة تفاصيلها مرتبة الإعجاز. أستمع له وأُعجب بمقدرته على إثارة الخلاف وانصرافه سراً لتصوير مشاهد النزاع القائم أمامه.

متعتي بكتمان هذا السر الخطير عن أمي ووجيه لم تكن تضاهيها متعة؛ فقد مثَّل لي خليل في جُرأته البطلَ المقدام الذي يتجاوز المحظور والممنوع وينجح في إخفاء آثار تجاوزاته بمهارةٍ وذكاء، إلى أن جاء ذلك اليوم؛ يومٌ حزين أُجبر فيه خليل على دفن بهجة طفولته ومعها لذَّة الانفلات والتشفي من منظومة السيطرة والطاعة العمياء التي فرضها وجيه علينا.

* * *

تنبَّه الشيخ يوماً لتصرفات خليل وباغته أثناء إحدى النقاشات

العقيمة بأن سلبه الورقة التي كان يرسمها خِفية. اهتاج الشيخ حدَّ الجنون عندما رأى صورته على الورقة مُعتبراً رسم الأشخاص وتصويرهم ضرباً من الكفر.

اتَّهم الشيخ الأستاذ الأرمني بتشجيع تلميذه على إضاعة أوقاته في هذه الرذائل، واهتاج الأستاذ لهذه التهمة الباطلة. أصرَّ الرجلان على البقاء في المُربَّع البرّاني بانتظار عودة وجيه، لوضع حدٍ لخلافاتهم ولتجاوزات الصبي اللاهي.

حرص الأستاذ عندما التقى وجيه على تسويغ الفشل الذي لحق بالمشروع إلى عدم وجود رغبة جدية عند خليل في المشاركة في عمل علميٍ معرفي بهذه الأهمية وعزاه إلى صِغَرِ سِنِّه.

اشتكى الشيخ لوجيه قِلّة احترام الأُستاذ والتلميذ له وعزا فشل المشروع إلى تآمرهما ضدَّه وأرفق شكواه بالدليل القاطع مُتَّهماً الأستاذ بتشجيع خليل على ممارسة رذيلة الرسم أثناء الدرس بدل صرفها في تصوير الأعشاب التي يَجهد في جمعها.

استمع وجيه لشكوى الأستاذ بانتباه ووعد الشيخ بتأديب خليل بحيثُ لا يعود إلى رذيلة تصوير الأشخاص دون علمهم. أبدى لهما استنكاره الشديد لعدم إحراز أي تقدم في هذا المشروع رغم انقضاء عدة أشهر على بدايته. أخبرهم آسفاً برغبته في إيقاف العمل وصاحبَ الرجلين مودِّعاً إلى الباب الخارجي بعد أن نقدهما أجرهما.

* * *

لجأ خليل إلى غرفتي مُختبئاً وجلستُ أنا في بهو غرفِ النوم أرتعش خوفاً. احتميتُ بدادا آمنة التي جلست متربعة على الأرض بجانبي تتلو سورة الزلزلة بصوتٍ مرتجف بلا حول ولا قوة بانتظار نزول غضب الله

على رأس خليل بعد أن رفضت أمي رجاءها بالتدخل لدى وجيه.

ما إن أغلق مسعود البوابة الخارجية وراء الشيخ والأستاذ حتى علا صوت وجيه قاصفاً كالرعد يطلب خليل. عندما لم يتجرأ أحد على الإجابة، صعد إلى الطابق العلوي مجتازاً كالعاصفة بهو غرف النوم؛ دخل غرفة خليل.

خرج منها بعد دقائق، وقد قلبها رأساً على عقب بحثاً عن خليل. حمل في يده والشرر يقدح من عينيه العديد من الأوراق البيضاء الصغيرة والكبيرة التي اعتاد خليل الرسم عليها والتي كان يُخفيها تحت فراشه.

اقترب وجيه مني ناشراً في يده لوحة صغيرةً رسمها خليل لي بثوب نومي الحريري الشفيف أَظهَرَ فيها تفاصيل جسمي وبروز نهديَّ الصغيرين؛ كان لي من العمر حينها اثنتي عشرة عاماً ولم يكن خليل قد تجاوز العاشرة إلا بشهورٍ قليلة.

هزَّ وجيه الورقة في وجهي وسألني إن كان لي أي علم بها. نفيت؛ كنتُ صادقة في إنكاري لكنني أضفت من فرط ارتباكي وخوفي أنَّ خليل لم يطلعني إلا على بعض الرسومات التي ضمَّت الشيخ والأستاذ أثناء شجارهما.

ـ تتسترين عليه؟ حسابك عندي لكن عندما أفرغ منه.

ارتجف قلبي فازددت التصاقاً بآمنة.

صاح من جديد طالباً خليل وهدده إن لم يحضر بمضاعفة العقاب له.

خرج خليل من غرفتي يبكي ويرتعد طالباً الصفح.

حاولت آمنة أن تتدخل، نهرها وجيه فسكتت.

جرَّ وجيه خليل من أُذنيه واتجه به إلى الجناح الغربي. أدخله الغرفة

الملاصقة لغرفته وربطه. ضربه بالحزام وأحرق أصابعه بالنار. شقَّ بكاء خليل وعويله في ذلك المساء عنان السماء.

دام حبسُ خليل أياماً ثلاثة لم يسمح فيها وجيه لأحد أن يقترب من الغرفة.

صفح عنه أخيراً وأخرجه من حبسه منهوك القوى تنزُّ حروق أصابعه حقداً وكرهاً.

أمضت فاضلة الأسابيع التالية في تمريض خليل وتخفيف آلامه ومواساته. لم تجرؤ على الاعتراض على قسوة العقاب الذي أنزله زوجها بخليل لكنَّها عبَّرت عن أسفها وربما عن عجزها حيال قسوة زوجها بالدموع التي كانت تغلبها كلَّما اقتربت من الصبي لتغيير ضمادات حروق يديه.

* * *

رغم حالة الخوف التي عانيت منها والهلع الذي أصابني بعد هذه الحادثة، إلَّا أنَّ حالة التواطؤ التي بيني وبين خليل أصبحت منذ ذلك اليوم أكثر عناداً وإصراراً لحماية أحدنا الآخر.

لم يشف خليل بعد هذه الحادثة الأليمة من الكره الذي لوث قلبه. أحرق وجيه بقسوته محبة خليل له وأحالها إلى رماد.

"هواك يا نجمة ضانيني"

أتمَّ الخدم إعداد مائدة الإفطار فاليوم الجمعة وإفطار أولاد خالي وغداؤهم عندنا. وصل الشباب ولم يكن سليم بينهم. أوصل إخوته إلى بيتنا دون أن يدخل ووعد أن يعود لاصطحابهم بعد صلاة العصر. "سيقضي اليوم يستذكر دروسه عند صديق له"، هذا ما قالته دادا سعدية عندما دخلت تحمل نازلي وتبعها أولاد خالي.

عقدت أمي حاجبيها عندما سمعت رسالة سليم:

ـ كان عليه أن يستأذن قبل أن يقرر أين يقضي يومه، أنا في مقام والده.

هزَّت فاضلة رأسها موافقة وتوجهت بالحديث إلى سعدية قائلة:

ـ كان عليك أن تسأليه أن يستأذن من عمتي قبل أن يذهب.

أجابت سعدية بصوت خفيض:

ـ أصبح السيد سليم رجلاً ولا يصح لي أن أتدخل في شؤونه، هذا ما قاله لي محذراً من أيامٍ ثلاثة.

رفعت أمي يدها في وجه سعدية كعادتها عندما تريد إسكات الخدم. سكتت المسكينة وطأطأت رأسها.

تشاغلتُ أنا عما يدور حولي بمتابعة مراسم تحضير الإفطار من نافذة المُربَّع. يخرج الخدم من المطبخ وعلى رؤوسهم صواني نحاسية مليئة بصحائف الطعام وأدوات السفرة مغطاة بملايات من الكتان الأبيض تعلوها رقائق من الحصير لحمايتها من رذاذ المطر. يتجهون بها إلى غرفة الطعام المجاورة للمُربَّع. يفرغون الصواني لبحر الزين على المائدة فتقوم بتنسيقها.

يعودون إلى المطبخ بالصواني الفارغة ليملؤوها من جديد. بدوا بحركتهم النشطة هذه وألوان بشرتهم الداكنة كسربٍ من النمل.

مرَّ النهار سريعاً. شغلتُ نفسي برواية الحكايات لنازلي ومراد وفك اشتباكاتهما التي تحتدم لاختلافهما حول سير أحداث الحكاية التي يختارانها لأرويها.

للأطفال ذاكرة قوية تسجل كل ما يقوله الكبار! كنت أغلط وأضيف للحكاية التي رويتها سابقاً بعض التفاصيل الصغيرة لجعلها أكثر تشويقاً أو أنسى في بعض الأحيان أحداثاً كنت قد ذكرتها في حكايتي سابقاً. تلقى هذه التغييرات الصغيرة في مجرى أحداث الحكاية الترحيب من نازلي والاعتراض والتصحيح من مراد. تحاول نازلي دائماً إسكات مراد حتى لا يُفسد عليها متعة المتابعة ويحاول هو وبإصرار تصحيح مجرى الأحداث كما اختزنها في ذاكرته.

تتطور هذه المحاولات بينهما إلى مناوشات. يحتدم النقاش ويعلو الصراخ. أصواتٌ رقيقة غاضبة لكنَّها لا تعرف الغلَّ.

ينتهي الخلاف فجأة بموافقة الطرفين على إتمام الحكاية بالتفاصيل التي ارتأى أحدهما أنها الصواب وارتضاها الآخر.

رغم الجهد الشاق الذي يبذله المسكين مراد، لا أدري كيف تتمكن نازلي في معظم الأحيان من إقناعه لصالح التجديد في أحداث الرواية. أُتابع لهم الحكاية بصوت هادئ وسط دهشة عيونهم وتساؤلات ألسنتهم التي لا تفتر. خواتم حكاياتي دائماً سعيدة تبتهج لها قلوبهم الرقيقة وتصفق لها أكفهم الصغيرة.

متعتي بالوقت الذي أقضيه في مراقبة عيون نازلي ومراد البريئة تضيق وتتسع تارة بالدهشة وأخرى بالفرح أو الحزن لا تضاهيها إلا متعة

الاستماع لعزف عودٍ شجي تسكبه فاضلة من بين أناملها؛ هي تعرف كيف تداعب بألحانها أوتار قلبي لتُطلق حنجرتي بالغناء.

لفاضلة أذن مرهفة وحس موسيقي عالٍ، تُعدِّل من ألحان بعض الأغاني ليتماشى مع صوتي العريض خاصة عندما أطلقه بالموشحات والأدوار.

لم نكن لنفوِّت مناسبة غنائية واحدة دون أن نحضرها سواء الحفلات التي تحييها زكية وفرقتها في بيتنا، أو الحفلات التي تقيمها "المغاني" في بيوت صديقات والدتي على عادة زوجات الباشوات وكبار التجار والأعيان في دمشق. نترصد حفلاتهن خاصة تلك التي تحييها صاحبات الصوت الجميل مثل بنات مكنو، رحلو الترك، نادرة، بدرية سعادة، حسيبة إتشي، طيرة، شفيقة، ورسمية جمعة التي تُحسن العزف على العود باحترافية مُبْهِرة رغم أنها كفيفة.

في هذه الزيارات نجلس فاضلة وأنا جنباً إلى جنب كالجواسيس، نتهامس ونضحك. نصغي جيداً عند بدء وصلة الغناء لنَخْتَزِن في ذاكرتنا الكلمات والألحان. نجهد في إخفاء علامات الاستحسان والطرب فقد كان من المُحرَّم على بنات الذوات تذوق الغناء حتى لا يُتَّهمن بالميوعة وقِلّة الأخلاق!

في اليوم التالي للزيارة نرسل في طلب سليم ونمرر له ما اختزنته ذاكرتنا. يسأل هو بدوره أستاذه الذي كان على دراية واسعة بما تتناقله دمشق من فنون الطرب في المسارح التي انتشرت في دمشق خاصة في مسرح قهوة الجنينة[26]، ومسرح القوتلي[27]، فيأتينا باللحن الأصلي والكلمات التي تختلف قليلاً أو كثيراً عما سمعناه لا نناقشه في الاختلافات حتى لا يُحاضِر لنا في أصول اللحن والمقامات فيُضيِّع علينا متعة الغناء.

من باب الدعابة، اختار لي سليم اسم "كروان الجِنان" محاكياً فيه اسمي التركي الأصلي "حورية جنان". نتداول الاسم ككلمة سر لبدء تدريباتنا في الغالب في "بيت الشريفة" بعيداً عن عيون أمي التي تخاف الجيران، وتَحسبها فضيحة لو عرف أحدهم أنَّ بين أهل بيتها مُغنية وآلاتية!

يهمها جداً أن يبقى شغفنا بالموسيقى سراً لا يتجاوز جدران بيتنا وتشترط أن تتم مشروعاتنا الموسيقية خلف الأبواب المُغلقة والنوافذ الموصَدَة.

أمسياتنا في الشتاء مُمتعة وفي الصيف مُضنية.

قضيت وزوجة أخي الأيام القليلة الماضية نتدرب على أغان خفيفة لكنها شجية حفظتها فاضلة أثناء زيارتها الأخيرة لإخوتها.

يقول مطلع إحداها:

على دينك ولا على ديني، هواك يا نجمة ضانيني

سحرتيني بعيون حلوين ... هجرتيني وتركتيني لمين

اتمايلي وافرحي بجمالك، وادلعي ما أحلى دلالك

حبيتك وعشقت خصالك ... يا محلى رقّة أجفانك

ويقول مطلع الأخرى:

حبك يا حلوة غطى علكل ... ارحمي قلبي، كفاني ذل

حكولي عن الحب وأحواله ... وعن القلب وكتر عذابه

يلي جرحتيني ارحميني ... قتيل في حبك ومالي ذنب

اللي عرفتو الحب وطول لياليه ...

بالله ادعولي اللي جرحك يداويك ...

سمعنا طرقاً خفيفاً على باب المُربَّع. هرعت آمنة لاستطلاع الخبر. فتحت الباب. لاحت مسرورة بجسمها الصغير الضامر ووجهها الصبوح الداكن وخلفها سليم.

غاص قلبي بين ضلوعي.

أزاحت آمنة جسمها الهائل من المدخل مُفسحةً لسليم.

رحَّبَت به بصوتها الخشن:

ـ أهلاً سيد الشباب.

دخل سليم تسبقه ضحكته الواسعة ليجد أمي على كرسيها الهزَّاز في صدر المُربَّع عابسة. ذابت على الفور ضحكته فليس من عادتها ألا تمْطِر دخوله علينا بالترحيب. وقف في عتبة المُربَّع حائراً. نظر إليَّ مستفسراً، غضضتُ طرفي. التفت إلى فاضلة مستنجداً، هبَّت واقفة واتجهت إليه معاتبة:

- لماذا حرمتنا من أنسك اليوم يا سليم؟ وبلا استئذان؟

تشاغل بالنظر إلى حذائه الذي لم يخلعه بعد.

أضافت:

ـ عمتي عاتبة عليك.

لم يرد.

تكلمت أمي بلهجة حاسمة:

ـ في غياب والدك، الكلمة الأولى والأخيرة لي في كل شأن، صغيراً كان أو كبيراً.

- بالطبع يا عمتي. رغبتُ اليوم أن أستذكر دروسي عند صديقٍ لي من بيت العابد ...

قاطعته أمي بحدة بعد أن عقدت حاجبيها:

- من سمح لك بزيارة بيت العابد، وفي يوم الجمعة؟

ـ آسف يا عمتي.

التفتت فاضلة إلى أمي:

ـ سماح يا عمتي، أرجوك.

أكملت أمي صبَّ سيل غضبها على رأسه:

ـ تغاضيت عن فعلتك السابقة يوم تحججت بزيارة حورية ولم تعد إلى البيت إلا بعد العشاء لأنك قررت، حينها، أن تزور صديق لك دون علمي. اليوم، تصل إلى باب بيتي ولا تدخله وتقضي اليوم في زيارة صديق لك دون استئذان؛ لو عرف أبوك بأفعالك الطائشة هذه، لن يرحمك.

تدخلت فاضلة:

ـ سماح يا عمتي.

التفتت فاضلة إلى سليم:

ـ سليم، استسمح عمتي.

خلع سليم حذاءه، تجاوز العتبة، وصعد إلى المُربَّع وتوجه إلى أمي. جلس على ركبتيه وقبل يديها وجبينها. مسحت على رأسه وسألته إن كان جائعاً.

عاودته ابتسامته الواسعة فقد عرف أن موجة الغضب التي اجتاحتها لم تتجاوز حدود شفتيها. قال بخُبث:

ـ لستُ جائعاً، لكن طبعاً بعد إذنك. وغمز لها بعينه.

ضحكت لدعابته وقرصت وجنته. أمسك يديها وغمرهما بالقبل.

قبَّلت رأسه وجبينه من جديد. ما إن وقف حتى نظر ناحيتي بعينين يلتمع فيهما الشوق. سألني:

ـ كيف حال كروان الجنان.

ردت فاضلة بمرح:

ـ يا سلام، في أحسن حال.

اقترب مني فأفسحت له فاضلة مكاناً ليجلس بيننا كعادته. انكمشتُ في مكاني.

سألني بهمس مبتسماً كعادته:

ـ أعجبك ما حملت إليك فاضلة من زيارتها الأخيرة من كلمات وألحان؟

استوقفتني عبارة "ما حَمَلَتْ إليكِ فاضلة". إذن هو يُحَمِّل فاضلة رسائله دون علمها وعلمي! كانت هذه هي المرة الأولى التي أفكر بما يمكن أن تحمله كلمات الأغاني من رسائل مبطنة يرغب في إيصالها إليَّ. يلقنني إياها هذا المحتال بطريقةٍ غير مباشرة وأحتفي أنا بها وأغنيها بفرحٍ كالبلهاء. الآن بدأتُ أفهم؛ أنا فعلاً غبية.

لن أغني أمامه بعد اليوم، بل لن أدعه يسمعني أغني طالما حييت!

أعاد سؤاله عندما طال صمتي. أجبت بلا مبالاة:

ـ الألحان جميلة أما الكلمات فلا معنى لها.

خبت ابتسامته، التفت إلى فاضلة ليداري ارتباكه.

أجابت فاضلة مُعلِّلة:

ـ أنت تعرف أن كلمات الأغاني الخفيفة "والطقاطيق" لا معنى لها مقارنة بكلمات الموشحات والقصائد، هذا ما تقصده حورية.

أجبتها:

- لا ليس هذا هو السبب.

علت الدهشة وجه فاضلة واستفسرت عيناها. تجاهلتُها وقمت من موضعي لأجلس في الطرف البعيد من المُربَّع بين مصطفى وخليل على الطاولة الواطئة حيث لعبة الشطرنج القائمة بينهما التي لا تنتهي.

لحق بي سليم. جلس بجانبي دون كلمة. نظرتُ إليه قائلة:

- يمكنك أن تتابع مصطفى وخليل من الطرف الآخر من الطاولة.

أشرت إلى الطرف المقابل بيدي على مرأى من الجميع.

ضحك مصطفى وغمز بعينه لخليل.

ـ سليم ممغنط، ينجذب دائماً إلى مركز الطاقة.

عقَّب خليل:

ـ هذا أمر يحدث تلقائياً؛ خارج عن الإرادة، يعني لا إرادي.

ضحك ثلاثتهم.

قمت من مكاني وتوجهتُ إلى الركن الهادئ الذي يشغله محمود مع كتابه. عدَّلتُ الكرسي وجلست بحيث يكون ظهري لسليم.

واجهتُ محمود دون قصد فرفع رأسه عن كتابه بهدوء. قال دون أن ينظر إليَّ وكأنه يحدِّث نفسه:

ـ الأصل في المحبة أن تكون أنت عين محبوبك، تغيب فيه عنك، فيكون هو، لا أنت.

رجعتُ برأسي إلى الوراء وتأملت الفراغ في سقف الغرفة. كلامٌ رقيق، يصف حالي مع الحبيب البعيد القريب.

نظرتُ إلى محمود من جديد فرأيته هائماً في الكتاب الذي يقرأه وقد اتَّخذت ملامحه هيئة القديسين. وضعت يدي على الصفحة التي كان يقرأها، أردتُ أن أسمع المزيد. رفع عينيه نحوي بخشوع وكأنه يصلي،

أضاف:

ـ الحب صفة الموجود، وما في الوجود إلا الله.

فهمت؛ هززتُ رأسي ورددت جوارحي عبارته البديعة:

ـ ما في الوجود إلا الله.

* * *

تردد في أطراف المُربَّع دندنات للعود فلم ألتفت.

نادتني فاضلة:

ـ هل يتكرم كروان الجنان علينا بصوته ليؤنس أمسيتنا.

فكرتُ فيما أقوله لرد الطلب دون أن أثير الشكوك؛ أجبتها مُتذرِّعة:

ـ حلقي يؤلمني.

تصدَّى لي سليم:

ـ قفلة واحدة، نريد أن نُسمع عمتي اللحن الجديد.

قالت أمي:

ـ هيا يا حورية، أسمعيني.

ـ صدري اليوم ثقيل كأنني لم أتعاف تماماً من الحمَّى التي أصابتني.

خبطت آمنة على صدرها وصاحت من ركنها البعيد:

ـ سلامتك، ألف لا بأس عليك. هل آتيك بكوب من الليمون الدافئ المحلّى بالعسل؟

ردَّت أمي:

ـ هذه لا تحتاج إلى سؤال، أحضري الشراب لنا جميعاً.

ـ لا أريد ليمون بالعسل، حليب اللوز الدافئ بالقرفة لي يا آمنة.

علا صوت سليم:

ـ وأنا أيضاً حليب اللوز بالقرفة.

صفق خليل بيديه قائلاً:

ـ لا فائدة، مُنجذب لمركز الطاقة!

ضحك مصطفى فنهره سليم.

نهضت آمنة بهمَّة، التفَّت بدثارها الصوفي وغادرت إلى المطبخ تُلَبِّي طلباتنا.

عادت أنامل فاضلة لمداعبة أوتار العود بوجد وشوق.

تسربت أنغامها إلى فضاءات روحي.

ما هي إلا لحظات حتى علا صوته بشدوٍ حزين:

على دينك ولا على ديني، هواك يا نجمة ضانيني ...

أخبار من القدس

عاد خالي نوري باشا وأخي وجيه من مهمتهما في الأستانة. عمَّ الفرح بيتنا لوصولهما سالمين.

عادا فأعادا الانتظام والانضباط لحياتنا. حملا أخباراً غير سارة عن القدس؛ قالا الأحوال هناك سيئة. أضافا بأنَّ أثرياء من اليهود الصهاينة بمساعدة قنصليات بلادهم نقلوا أعداداً كبيرةً من يهود أوروبا الفقراء إلى فلسطين بصفة غير شرعية ليعملوا في الأراضي التي يملكونها وأن الصحف المحلية العربية والتركية تضجُّ بالتجاوزات التي يمارسها هؤلاء المتسللون على الأهالي في فلسطين. البرلمان غاضب والديوان السلطاني متوجس مما يجري.

القلق الشديد البادي على وجه خالي، أقلقنا.

سألته أمي:

ـ تبدو قلقاً يا باشا، خير.

أجابها بأسى:

ـ بعض الأوروبيون الصهاينة استغلوا التعديل الذي طال قانون حماية الأقليات في الدولة العثمانية وقاموا بتأسيس مؤسسات وصندوقاً قومياً استثمارياً هدفه شراء أراضي زراعية في فلسطين لتصبح وقفاً لهم. المشكلة تكمن في أنَّ فقراء أوروبيين يهود يفدون إلى القدس بأعدادٍ كبيرة بصفة حجاج وبتصاريح مؤقتة بدعم من هؤلاء الصهاينة الأثرياء ويبقون في فلسطين بصفة غير شرعية بعد نقلهم للعمل في تلك الأراضي. نظام الامتيازات والاستثمارات الأجنبية وحماية الأقليات في الدولة العثمانية،

بنصه القانوني الحالي، يُعَدُّ وبالاً على بلاد الشام وأهلها.

أضاف أخي وجيه:

تشير التقارير إلى انتقال ملكية مئات الآلاف من الدونمات من أفضل الأراضي الزراعية في فلسطين إلى هذه المؤسسات وأنَّ هناك عشرات الآلاف من اليهود معظمهم من فقراء أوروبا الشرقية وروسيا قد تم تسريبهم فعلاً للعمل فيها بصفة غير شرعية.

استنكرت أمي:

ـ كيف ذلك؟

أجاب خالي بحزن:

ـ استيطان مُمَنْهج رفض السلطان عبد الحميد قبل عزله اعتماده. [28]

أضاف:

ـ لا نستطيع مداهمة هذه الأراضي لإجلاء المتسللين أو العاملين الغير شرعيين عن هذه الأراضي أو محاسبة مالكيها بسبب قانون حماية استثمارات الأقليات المعمول به في البلاد؛ هذه الأراضي ملك لمستثمرين أجانب، وبموجب هذا القانون، تقع هذه الأراضي تحت حماية القنصليات الأجنبية التي ينتمي إليها مالكو الأراضي! لا نستطيع التدخل لإجلاء المخالفين لصالح رعايانا من الفلسطينيين لأنَّ هذه الأراضي لم تعد واقعة تحت دائرة نفوذنا وبالتالي لا تخضع لقوانيننا!

بدا القلق على أمي سألت خالي:

ـ هل أفهم أن ابن عمتنا سامي في ورطة؟

ـ لا، لا أعتقد، كان حاضراً عندما كنَّا هناك. الباب العالي غاضباً على ناظر الداخلية وموظفيه لإغفالهم الكثير من المعلومات في التقارير التي كانوا يرفعونها لديوانه؛ لا نعرف إذا كان ذلك إهمالاً أو تآمراً. ناظر

الداخلية في إستنبول الآن قيد التحقيق.

* * *

لم أنم ليلتي باستثناء وسنات خاطفة ملأتها أحلام طافحة بالخوف؛ تستعيد ذاكرتي كلمات عارف في آخر لقاء لنا "سأراك في الربيع وسنزور معاً أوروبا بداية الصيف القادم"، فأزداد خوفاً.

هل يمكن للأحداث الدائرة في القدس أن تشغله عني؟

لم أفهم من الحديث ما إذا كان الباب العالي غاضب على والد عارف؛ لكن ما أعرفه أنَّ غضب السلطان عندما ينزل يجلب في الغالب كارثة.

ماذا لو وضعوا والد عارف كما ناظر الداخلية قيد التحقيق؟ سأسأل في الصباح فاضلة وأرجوها أن تستفهم من وجيه ما معنى "قيد التحقيق".

* * *

اجتمعنا في الصباح الباكر على مائدة الإفطار. بدا أخي وجيه مجهداً لكنه سعيد لوجوده بيننا.

فرحة فاضلة باحت بها شفتاها وفضحتها عيونها التي فاضت حباً والتمعت وجداً. أمي أيضاً فَرِحَة. جلست بيننا تحتسي كأساً من مغلي الحليب بالقرفة. لم تأكل. كانت على رأس الطاولة تنقل عينيها بسعادة بين وجيه وفاضلة.

حاولتُ مراراً أن أجرَّ وجيه للكلام عن القدس وأهلها دون جدوى. يُجيب في كل مرة بهزة من رأسه أو بكلمات قليلة "لا نعرف " "ربما" "ممكن". وددت لو أسأله إذا كان قد التقى عارف أثناء زيارة إستنبول، لكنني لم أجرؤ.

وجيه كما خالي، لا يتكلم كثيراً ويكره الكلام أثناء الطعام.

جلستُ بعد الإفطار مع أمي في المُربَّع أنتظر عودة فاضلة التي صعدت، كعادتها كلَّ صباح، لتقف مرآةً لزوجها.

يرتدي وجيه بذلته العسكرية بمساعدة خادمه الحاج زكي ويقف بانتظار شهادة الرضى التي كانت من مهام والدتي وانتقلت إلى فاضلة بطلبٍ من أمي التي ضَعُف بصرها وأصبحت عاجزة عن رؤية ذرات الغبار التي قد تستغفل وجيه وتتجرأ على الانتقاص من هيبه لباسه العسكري.

يقفُ كلَّ صباحٍ أمام الشريفة، كما يحب أن يدعوها، مواربًا لمرآته الفعلية؛ منتصب القامة، ساكناً، يتابع عينيها التي تمسح كلَّ فترٍ وشبرٍ من قامته. ترفع له يدها فيستدير، تمُسِّد له ياقته وكتفيه، تشدّ أطراف سترته لتعديلها. تدور حوله دورتين تتفحص تسريحة شعره ومن ثمَّ حذاءه من كافة الجوانب. عندما يُشرق وجهها له بابتسامة الرضى والإعجاب ينحني لها شاكراً ويطبع قبلةً صغيرة على وجنتها.

بعد هذا الطقس الصباحي المهيب، يناوله الخادم غطاء رأسه، يضعه بحرص ويغادر البيت بخطواتٍ عسكرية واثقة.

* * *

نزل وجيه اليومَ من جناحه بعد طول انتظار وحده وغادرنا على عجل بعد تقبيل جبهة أمي. قال لها أنه سيتأخر الليلة تلبية لدعوة على العشاء في بيت القائم مقام على شرف عودة خالي من إستنبول.

بعد مغادرته سألتُ أمي لأُشجعها على الكلام لعلها تذكر لي شيئاً عن عارف:

ـ هل بقيت العمة حكمت لوحدها في القدس عندما سافر سامي بك في مهمته إلى إستنبول؟

استغربت أمي سؤالي.

ـ كيف وحدها! إكرام زوجة سامي معها لا تفارقها. ما هذا السؤال؟

ـ أبداً، أردتُ الاطمئنان عليها.

ـ سامي وحيد عمتي، لم تنجب عمتي غيره. لا يمكن أن يتركها وحدها، زوجته دائماً معها لا تفارقها.

ـ أين زوجها؟

ـ مات عنها وهي حامل بابنها. كان زوجها رجلاً ثرياً ورث عن أبيه أراضي زراعية شاسعة أورثها سامي وعمتي التي ورثت أيضاً عن أُمها وأبيها عقارات ومتاجر وخانات في قلب إستنبول. خاف أهل زوجها أن تتزوج بعد وفاة زوجها وتذهب أموالها والأموال التي ورثتها عن زوجها إلى عائلة أخرى منافسة لهم؛ طلبها أخ زوجها الأصغر للزواج، لكنها رفضت. رضيت بقضاء الله ونذرت نفسها لتربية سامي.

ـ مسكينة.

ـ ليس تماماً، واعية. لم تبرح قصرها بعد وفاته رغم الضغوط التي واجهتها من أهلها ومن أهله. أحضرت لتنشئة ابنها أفضل الحاضنات والمربيات. عندما شبَّ قليلاً، استقدمت لتعليمه خيرة أساتذة أوروبا من ألمان وإنكليز. عندما أتم سامي تعليمه وتخرج من الكلية السلطانية العسكرية في إستنبول أوفده الباب العالي إلى ألمانيا. عاد من هناك بشهادة عسكرية عالية خدم فيها جيش الدولة كقائد عسكري في بغداد وحالياً في القدس.

ـ عوض الله صبرها خيراً.

ـ الحمد لله، ابن عمتي سامي من خيرة الرجال، يحبه الكبير والصغير.

هززت رأسي لأشجع أمي على الاسترسال لعلها تتطرق إلى ذكر ابنه.

سكتت أمي وكأنها تستجمع أفكارها ثم سرحت. سألتها:

ـ ما الذي يشغلك؟

ـ أبداً، أفكر بعمتي، حظي كحظها. حَرَمَنا الله نعمة الزوج وعوضنا في أبكارِنا.

علت وجهها مسحة الحزن التي أعرفها والتي تعكسها نظرة عينيها الكسيرة كلما جاءت على ذكر أبي.

سَرَحَتْ من جديد.

تركتها لذكرياتها وتشاغلتُ عنها وعن أحزانها باستكمال تطريز قطعة من قماش أبيض ناعم كانت فاضلة قد بدأتها لمولودها المنتظر.

تنهدت أمي فجأة وقالت بحرقة:

ـ الفراق مرّ.

شعرت لشدة ألمها بطعم مُرٍّ في فمي.

طال صمتنا وطال انتظاري.

هَمَمْتُ بإرسال آمنة وراء فاضلة لتدعوها إلينا؛ منعتني أمي:

ـ دعيها تستريح. لا بد أنها مُتعبة وقد تكون نائمة، فالحامل تنام أكثر كلما تقدمت بها أشهر الحمل!

ضحكتُ من سذاجة أمي وقلتُ في سرِّي مُتعبة من الحمل أم من السهر ليلة البارحة؟

رأيتُ من نافذتي النور مضاءً في غرفة نومها في الجناح الغربي حتى الفجر.

* * *

اقترب موعد الغداء وفاضلة لا زالت في جناحها. استأذنتُ أمي في الذهاب إليها؛ لم تمانع.

"الجو صاقع والليلة على الأغلب بيضاء"، هذا ما قالته دادا آمنة بعد تناولها عباءة أخي وجيه المصنوعة من وبر الجِمَال من وراء باب المُربَّع، لفتني بها قبل خروجي إلى بيت الشريفة لحمايتي من البرد.

أسرعتُ الخُطى إلى مدخل الجناح الغربي، البرد قارس والسماء مكفهرة. رأيتُ فاضلة على رأس الدرج المؤدي إلى بيتها قادمة إلينا وفي ذيلها خادمتها الحبشية سمحة بوجهها السموح. قالت مازحة:

ـ يلزمك عشرة أذرع من الطول ومثلها في العرض قبل أن تفكري بالادِّثار بعباءة وجيه.

ـ عباءة! ظننتها خَيمة.

ضحكنا. نزلت باتجاهي، عانقتني. قبَّلتُها وهمستُ في أذنها:

ـ أريد أن أكلمك على انفراد بعد الغداء.

ـ نقضي ما بعد الظهيرة في جناحي، لكن يلزمنا حجَّة مُقنِعة لعمتي.

ـ الأمر سهل، ستُريني الهدايا التي جلبها وجيه لك من إستنبول.

ابتسمت عينا فاضلة ونظرت إليَّ بمكر.

ضحكت:

- أبداً، ورحمة والدي الهدايا لا تهمني! أنا قلقة وخائفة مما يجري في القدس.

ذابت ابتسامة فاضلة.

- أنا معك. أنا أيضاً قلقة على أبي ووجيه، نرجو من الله اللطف.

دخلنا مُربَّع الجلوس فتهللت أمي لرؤية فاضلة. جلسنا على مائدة الغداء بعد أن تبادلتْ معها بعض الكلمات للاطمئنان عليها وعلى جنينها. دارت علينا بحر الزين، خادمة المائدة، بأطباق الطعام. أكلتُ بضع لقيمات من "فَتّة" [29] اللحمة بالخل المحمرة بالسمنة والمكسرات والمطيبة باللبن

الرائب والثوم وشعرت بالامتلاء. دفعت يد بحر الزين التي حملت إليَّ طبق الأرز وكرات لحم الضأن المغمورة بدبس البندورة وشرائح البصل.

انتبهت أمي؛ سألتني:

- ما الأمر؟

ـ شبعت.

علا صوت آمنة التي وقفت تساعد بحر الزين في خدمة المائدة:

- منذ أن عافاها الله لنا من الحمَّى يا ست نظيرة لم أنقطع في كل يوم جمعة عن زيارة مقام الشيخ محيي الدين وتفريق الخبز والصدقات على الفقراء وفاءً للنذر الذي نذرته لشفائها؛ لكني أرى أنها لم تسترجع عافيتها بعد. ليتك تسمحين لها بزيارة المقام معي. تفريق الصدقات بيدها أدعى إلى البركة.

هزت أمي رأسها مُوافقة:

ـ الصدقة شفاء ودفع للبلاء.

سارعتُ بالتعليق:

- لا مانع عندي على ألَّا تكون الزيارة يوم الجمعة. لا أحب زيارة المقام في الزحام.

ردت آمنة:

- بل يجب أن تُمْنَح الصدقات قبل صلاة الجمعة عندما تكون أبواب السماء مشرَّعة لدعاء الفقراء.

ـ يا دادا، ربنا موجود وحاضر دائماً!

اعترضت:

- يوم الجمعة قبل الصلاة ...

قاطعتنا أمي:

ـ ليكن، الجمعة القادمة إن شاء الله.

ابتهجت آمنة للخبر وابتهجتُ أنا لانصرافها عني.

فرغنا من الغداء فاستأذنَت فاضلة لنا لقضاء فترة ما بعد الظهيرة في جناحها.

أجابت أمي وابتسامة رائقة تعلو وجهها:

- أحاديث الصبايا لا تنتهي.

* * *

سبقتني فاضلة ولحقتُ بها وورائي خادمتها. حملت إلينا سمحة أكواب الشاي في صينية نحاسية صغيرة ووضعت على رأسها صينية أخرى فيها أطباق صغيرة من اللوز والصنوبر، والزبيب، والتين، والمشمش المجفف، والحُمُّص، واللوز الملُبَّس بالسكر.

جلسنا في غرفتها على سجادة سميكة صوفية حول طاولة واطئة قرب مدفأة الحطب التي تأججت نيرانها. قامت الخادمة قبل انصرافها بحشو باطن الموقد بالمزيد من الحطب. علا صوت الشرار المتطاير منها مما أقلق الإبريق المتربع على زاويتها! بدأ بالقرقرة، وما لبث أن بلغ حدَّ الغليان لافظاً قطرات صغيرة من الماء. ذكَّرني غليانه بالأفكار الهائجة التي تمورُ في رأسي.

صبَّت فاضلة لنا الشاي وأضافت السكر. قربت مني الكوب وأطباق التسالي.

قامت إلى خزانتها لتريني الهدايا التي جلبها وجيه. أقسمتُ عليها ألا تفعل. تراجعت وفي عينيها عتاب.

ـ ماذا لو سألتك عمتي؟

ـ أنت تعرفين، أمي لا تسأل.

جلست بجانبي متربعة بعد أن أحضرت من خزانتها "شال" [30] من الصوف الناعم مشغول "بالإبرة" على شكل ورود صغيرة زهرية اللون.

رمت "الشال" على كتفي وقالت باسمة:

ـ هذا واحد من الهدايا التي جلبها وجيه من إستنبول.

لمستُ نعومته.

ـ لوجيه ذوق جميل.

ـ أعجبك؟

ـ رائع.

ـ اقبليه هدية مني، وأُقسم عليك ألا ترديه!

وضعت الشال على كتفيّ. قالت:

ـ لونه جميل عليك. مبارك.

ـ شكراً. دعينا نتكلم في الأهم، هل التقى وجيه بعارف في إستنبول؟

ـ ذكره البارحة خلال حديثه.

التمعت عيناي بالفرحة.

- ماذا قال، وبالتفصيل.

تناولت فاضلة فنجان الشاي، رشفت منه بنعومةٍ. أعادته إلى صحنه بهدوء. أخذت من صحن المكسَّرات حبتي لوز، وضعت إحداهما في فمها ومدَّت إليَّ يدها بالأُخرى. أخذتُها.

انتظرت؛ لم تتكلم. شجعتها:

ـ التفاصيل، وبسرعة!

- ليس هناك أي تفاصيل.

ـ قلتِ إنَّ وجيه التقى عارف.

ـ لم يكن لقاءً فردياً، ذكر وجيه عارف ووالده عندما كان يحدثني

عن دعوات الغداء والعشاء خارج جدول أعماله الرسمية. اجتمعوا برفقة والدي لتلبية دعوات الأهل والأصدقاء هناك.

سكتَتْ. تشاغَلَت عني بإعادة ترتيب الأطباق الصغيرة المتناثرة على الطاولة.

ـ في فمك كلام، لا تشغلي بالي يا فاضلة، أرجوكِ.

ـ بصراحة يا حورية أنا أستغرب أن اجتماعاً قد رُتِّبَ بغير ميعاد بين والدي ووجيه وسامي بك في إستنبول ولم يتحيَّن الفرصة ليطلبك لابنه؟

غامت الدنيا في عيني. قلت في نفسي صحيح، ثم سمعتني أُردِّد:

- صحيح!

نظرتُ إليها بهلع:

ـ لكن لماذا؟

- لا أعرف. كيف لي أن أعرف!

ـ لكنَّ رسائله تؤكد حبه ووعوده.

ـ أعرف وهذا ما أستغربه.

ـ أحبُّه يا فاضلة، أحبُّه.

دمعت عيناها:

ـ أعرف يا ابنة عمتي، أعرف.

ـ ما العمل، أشيري عليَّ.

ـ انتظري الربيع.

أضافت:

ـ لا نعرف الظروف. لعل اضطرابات القدس خطيرة.

ـ ماذا لو ساءت الأمور؟

ـ لا تستبقي الأحداث؛ الربيع قادم.

سألتُها:

ـ هل ذكر لك سليم شيء؟

- سليم! ما دخل سليم؟

ـ سليم يُحبُّني.

اتسعت عيناها وهي تنظر في عينيَّ بدهشة:

- أخي سليم!

هززتُ رأسي مُؤَكدة:

ـ دسَّ لي ورقة صغيرة قال فيها إنَّه يحبني.

ـ ورقة صغيرة! كانت بالفرنسية؟

هززتُ رأسي.

تابعت:

ـ آه، أذكر. عمتي أرتني هذه الورقة عندما كنتِ مريضة، ظننتها من عارف!

ـ لا، من سليم.

أطرقت فاضلة.

عندما رفعت وجهها رأيت القلق في عينيها:

ـ ماذا كان ردُّك؟

ـ لم أردّ.

ـ من حقِّه أن يعرف.

ـ أنا غاضبة منه.

نظرت إليَّ بحنق.

ـ غاضبة! غاضبة لأنَّ أخي يُحبُّك؟

ـ آسفة يا فاضلة، لم يكن قصدي، أحب سليم كحبي لك؛ غاضبة لأنَّه

لا يبادلني نفس الشعور! أحبه كما أحبك وأحب وجيه وخليل.

قالت وكأنها تكلم نفسها:

ـ لهذا كنتِ تعاملينه بجفاء!

ـ ما بيدي حيلة.

ـ يجب أن يعرف.

ـ لماذا لا تكلمينه أنت؟

قالت بحدَّة:

ـ أنا لا أتدخل في الشؤون العائلية!

ـ أية شؤون عائلية؟ سليم أخوكِ! أنت تعرفين بأنني لا أقوى على المواجهة، أخشى أمي ووجيه.

ـ ما هذه المصيبة؟

ـ مصيبة؟ أنا مصيبة؟

تجاهلتني. وقفت، وبدأت تزرع الغرفة جيئةً وذهاباً.

أخذت تمسِّد جبهتها بأطراف أصابعها.

أعرفها عندما تُفكر؛ ستجد لي مخرجاً، بقيتُ ساكنة بانتظار الفَرَج.

جلست فجأةً لتسريحتها وبدأت بإعادة ترتيب شعرها.

ـ ماذا أفعل يا فاضلة؟ أرجوك، أنا في حيرة من أمري.

نظرت بحدَّة عبر مرآتها إلى الركن الذي أجلس فيه وقالت بجفاء:

ـ أعيدي النظر في زواجك من عارف.

نظرتُ إليها بخوف. أضافت:

ـ بصراحة، لا أعتقد أن عارف ينوي الزواج منك!

قمتُ من فوري كمن ضربه مَسٌّ من الجن. نزعتُ "الشال" عن كتفي، رميتُه على الأرض ودُسْتُ عليه. أسرعتُ الخُطى نحو الباب.

التفتُّ إليها قبل مغادرتي:

ـ اسمعي يا فاضلة، سأنتظر عارف كل العمر ولن أكون لغيره.

صفقتُ الباب خلفي ومعه نظرة الغضب التي رمتني بها.

في حضرة الشيخ محيي الدين

اليوم الجمعة. غادرتُ وآمنة باكراً. الهواء بارد والشمس محتجبة وراء ستائر كثيفة من غيوم أثقلتها خيرات السماء.

ناولتني أمي عندما قبَّلتُ يدها مودعة كيساً صغيراً مليئاً بالقروش لتوزيعها على الفقراء. أعطت آمنة بضع ريالاتٍ مجيدية [31] لتوصيلها إلى الشيخ المشرف على تكية الفقراء الملحقة بمقام الشيخ محيي الدين بن عربي.

جلستُ في العربة متدَّثرة بمعطفٍ من الجوخ الإنكليزي الثقيل بانتظار آمنة. قلبي يرتجف برداً، كيف يحتمل مسعود هذا الصقيع بهذا الثوب الصفيق الذي يرتديه؟

انتهت مسرورة وسمحة من نقل سلال الخبز.

وصلت آمنة وأعانها مسعود في الجلوس على أرض العربة بين سلال القش الطافحة بالأرغفة لتمنع انقلابها.

رائحة الخبز شهية ...

لوَّح مسعود بالسوط في الهواء فاستجابت الخيل بهزٍّ رؤوسها وانطلقت مسرعةً وكأنها تعرف وجهتنا.

ما إن انطلقنا حتى علا صوت آمنة بالصياح تطلب من مسعود التمهل؛ كادت انطلاقة الخيل المسرعة أن تُدحرِجَها وسلالها خارج العربة.

شدَّ مسعود رسن الخيل فتهادت في خطوها.

رغم حرص مسعود وتأنِّيه في القيادة إلا أنَّ الخيل لم تسلم عند كل منعطف ومطب من لسان آمنة وشتائمها.

* * *

وصلنا بعد لأيٍ إلى ساحة مزدحمة بمزيج غريب من البشر.

دكاكين واطئة صغيرة ازدحمت ببضائع غير متجانسة؛ خضار، لحوم، أجبان، سجاد، مسابح، شموع، بخور، توابل، قباقيب خشبية، مداسات جلدية، أقمشة...

بعض دكاكين هذه الساحة في غاية الصغر تكاد تكون فتحة في حائط، تشبه "اليوك" [32]، يجلس فيها صاحب الدكان على دكة صغيرة أو كرسي من القش أمامه منقل الفحم الذي يتربع عليه إبريق الشاي المعفَّر بالسواد يفاصل الزبائن ويثرثر مع المارة. يُمسك برؤوس أصابعه كأساً من الشاي تتصاعد منه الأبخرة يعيد ملأه بين الرشفة والرشفة.

عشش في زوايا هذه الساحة فلاحون عرضوا بضائعهم في صواني مسطَّحة من القش ومتسببون وقفوا خلف عربات حمَّلوا عليها حللاً كبيرة من النحاس يتصاعد منها بخار الفول والحمُّص المسلوق المعروف "بالبليلة". احتمى الجمع بأسقفٍ صغيرة نبتت من رؤوس جدران من التبن.

تصدرت الساحة درجات هرمة متآكلة أفضت إلى مجموعة من الأبنية المتهالكة غير المنتظمة.

عند مدخل الجامع جلست أكوام الفقراء ومتصوفة الشيخ محي الدين تستر أجسادهم أسمالاً بالية. كيف يصبرون على زمهرير الشتاء شبه عراة؟

نزلتُ من العربة بإيعازٍ من آمنة ودلفنا إلى الجامع مع الجموع الداخلة.

دفعتني آمنة إلى زاوية صغيرة في صحن الجامع ورجتني أن أنتظر لحين عودتها. نادت على رجلين أسودين يبدو أنها تعرفهما ليساعداها في نقل سلال الخبز إلى تكية الفقراء المقابلة للجامع.

وقفتُ في الركن أتأمل ما حولي. عمر جامع الشيخ محيي الدين بن عربي في دمشق بضع مئات من السنين ويُقال أنَّ السلطان سليم الأول هو الذي أمر ببنائه بعد أن زاره الشيخ محي الدين[33] في الحلم ودله على مرقده وأمره ببناء مسجد وتكية لإطعام الفقراء. هذا ما تقوله المخطوطة التي يحتفظ فيها وجيه في مكتبة بيتنا عن أماكن تواجد أضرحة أولياء الله الصالحين من الأندلس والمغرب العربي إلى بلاد الشام.

جلتُ النظر في صحن المسجد الواسع المرصوف بالرخام الملون والحجر الأبيض والأصفر. في وسط الصحن بركة ماء عذبة فاضت مياها وغمرت الأرض من حولها. نظرتُ إلى الجهة الغربية من الجامع فرأيتُ رواقاً قائماً على قناطر أربعة تدعمها أعمدة قديمة تزينها تيجان كورنثية.[34] جدار الحرم الشرقي للجامع مغطى بألواح من الخزف مُربَّعة الشكل نقشت على سطوحها زخارف بديعة ملونة بالأزرق النيلي والسماوي، أحيطت هذه الزخارف بخطوط دقيقة سوداء جعلتها تبرز للناظر إليها على أرضيتها الناصعة البياض. يسمى هذا النوع من الزخارف بالقيشاني وهو فن فارسي حسبما ذكر لي أخي وجيه حل محل الفسيفساء في معظم المساجد التي أنشأتها الدولة العثمانية.

يحوي الجدار الجنوبي للحرم محراباً خشبياً سقفه مُسنَّم. جدران الحرم الجنوبي مزخرفة أيضاً بالقيشاني المُطعَّم برخام منقوش. تعلو وسط الجدار الجنوبي لوحة نقشت عليها بداية سورة الرحمن كتبت بخط الثلث البديع بلون ابيض محدد بالأسود وخلفية بلون أزرق تزينها زخارف نباتية بلون فيروزي.

للجامع مكتبة جدارية كبيرة تقسم كسوة الجدار الغربي إلى قسمين وفي غرب المصلى خلوتان احداهما بيت الخطبة والأخرى للقائم على

خدمة الجامع.

زُوِّدَ مسجد الشيخ محيي الدين بناعورة ترفع الماء من نهر يزيد. يدفع تدفق مياه النهر دولاباً ضخماً يدير مسنناً من الخشب صمم بقياساتٍ دقيقةٍ ليدير دولاباً آخر رُبِطَت به سلسلة حديدية عُلِّقَت بها دلاء. تمتلئ هذه الدلاء بماء النهر الدافق لتحملها السلسلة الحديدية صعوداً. تُفْرِغ الدلاءُ ماءها في حوض كبيرٍ يتربعُ على قمة برجٍ صُمِّمَ لتسيل المياه المُتجمِّعة فيه إلى قناة محمولة على جسر مُقوَّس. ينتهي الجسر إلى خزَّان يغذِّي بالمياه العذبة ساحة الوضوء وتكية الفقراء القابعة في الطرف المقابل للجامع. صرير السلاسل الحديدية وأنينها اليوم مُرتفع فقد ناءت دلائها بخيرات السماء التي أغرقتها وأغرقت هي بدورها الحوض الكبير الذي فاضت مياهه لتُغرق أرض الجامع وما حوله.

عادت آمنة إليَّ بحالة مزرية؛ تصطك أسنانها من البرد وتقطر المياه من ثيابها وستر رأسها.

قادتني إلى ركن النساء في داخل المسجد بعد أن تأكدت من أني على وضوء. صلينا معاً ركعتين للسلام على ملائكة المسجد. أمرتني أن أُردِّد وراءها دعاءً رجت فيه الله ببركة الشيخ الأكبر أن يقضي حاجتنا ويسبغ علينا ثوب العفو والعافية ويشفينا ويعافينا من كلِّ أذى.

سحبتني بعدها من يدي لزيارة الضريح.

اتجهنا إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من الجامع ونزلنا عبر سلم حجري إلى قبة ضريح الشيخ محيي الدين. لهذه القبة شباكان أحدهما يطل على حديقة صغيرة والآخر على مدفن. أحيط ضريح الشيخ الأكبر الذي يتوسط الغرفة بحاجز من الفضة المزخرفة. إلى جانب الضريح قبران يرقد فيهما ولدا الشيخ، سعد الدين وعماد الدين. على يمين الداخل

إلى القبة يقبع قبر الأمير عبد القادر الجزائري، شيخ الطريقة القادرية الصوفية، أحد أتباع الشيخ محي الدين بن عربي وأشد المتحمسين لجمع ونشر آثاره.

دفعتني آمنة أمامها رغم الزحام وأوقفتني قرب ضريح الشيخ، أو في حضرته على حد تعبيرها.

لمساجد الله حرمة ولأضرحة أوليائه رهبة. سالت دموعي دون إرادة مني عندما اقتربت من الضريح. همست آمنة في أذني:

ـ تمَنّيِّ على الشيخ صاحب الفتوحات المكية ما شئت ليفتح الله عليك أبواب رحمته فإن له كرامات لا يمنحها الله إلا لأمثاله من الأولياء الصالحين.

مددت يدي وأنا أرتعش ولمست الحاجز الفضي. أغمضتُ عينيَّ وتمنيت في سرِّي حتى لا تسمعني آمنة أن يمنع الشيخ بقدرة الله عزَّ وجلَّ زواجي من سليم ويكتب لي الزواج بعارف.

سالت دموعي وعلا نشيجي.

نبَّهتني آمنة من شجوني بأن ساقتني أمامها للخروج. دفعتني عبر حشدٍ من نساءٍ أتت إحداهن تحمل طفلاً لا تبدو عليه علامات العافية.

وصلنا بشق الأنفس إلى الباب الذي دخلنا منه. طلبت مني آمنة أن أُسرع بتوزيع القروش التي أحملها على الفقراء الذين اصطفوا عند المدخل على أن أحتفظ بالنصف لتكية النساء الفقيرات. قالت علينا أن نتحرك بسرعة. دفعتني من جديد أمامها بعد أن ألصقت صدرها بظهري وفردت ذراعيها كجناحي نسرٍ حولي لتحتويني. بدأت ألقي القروش في الأيدي الممدودة وآمنة تدفعني بقوة أمامها تنتزعني من الأيدي المتوسلة التي أمسكت بثيابي طلباً للمزيد.

ما إن انتهينا من هذه المهمة الشاقة حتى قبضت آمنة على ذراعي وجرَّتني وراءها إلى تكية النساء الفقيرات.

مشينا في ممرات مسقوفة تطل عليها غرف صغيرة مُظلمة فيها أكوام من النساء من ذوي العاهات تقوم نساء ضعيفات وشاحبات على إعانتهنَّ. دفعتني آمنة إلى جوف إحدى هذه الغرف.

رغم الظلام رأيتُ ارتفاع السقف الذي أنارته كوةٌ صغيرة. زكمت أنفي رائحة عَطِنة. في ركن من الغرفة، جلست عجوز على حصيرٍ رقَّقَته قساوة الأيام، عليه بطانية بالية من الصوف الخشن. كانت سوداء البشرة كآمنة لكنها نحيلة كخيال المآته.

خاطبتها آمنة بصوتٍ عالٍ:

ـ هذه أنا يا نورِيَّة ومعي حورية ابنة سيدي عبد الماجد.

تهلل وجه العجوز ومدت يديها تتحسس مصدر الصوت. عرفتُ أنها كفيفة.

ركعت آمنة على ركبتيها وتركتها تتلمس وجهها وخديها.

سألتها العجوز بصوت ضعيف عن أحوالها وأحوال البيت الكبير. دار الحديث بينهما بلهجة عربية غريبة لم أفهمها. عندما انتهت، قبَّلت آمنة يد العجوز المعروقة وتركتها تقبل جبهتها. دعت لنا العجوز بالتوفيق ودعت لي بالستر.

غادرنا المكان بعد أن وضعت آمنة قروش في يد المرأة التي يبدو أنها تقوم على خدمة نورِيَّة.

في العربة أوصتني آمنة ألَّا أذكر زيارتنا لنورِيَّة في تكية الفقراء.

سألتها:

- هل تعرف أمي نورِيَّة؟

- لا نريد أن نفتح مع الست نظيرة مواضيع طواها الزمن.

- أية مواضيع؟

- اخفضي صوتك، لا أريد أن يسمعنا مسعود.

ـ من هي نورِيَّة يا آمنة؟

ـ عبدة من عباد الله!

ـ لا تقولي عبدة، هي أمة من إماء الله، لكن من هي، أمك؟ أختك الكبيرة؟

ـ أستحلفك برحمة والدك، لا تسأليني. كما أوصيتك، لا تذكريها أمام الست نظيرة.

- عجيب أمرك يا آمنة.

* * *

وصلنا البيت قبل الصلاة. وجدنا أمي جالسة في المُربَّع البرّاني بانتظارنا؛ أقلقها وجه السماء المُكفَهِّر والسيل الجارف المنهمر منها.

استأذنتُ أمي عند وصولنا بعد أن خلعت حذائي الموحل وأسرعت إلى غرفتي لتغيير ثيابي الغارقة بمياه المطر؛ تبعتني آمنة.

ـ دادا، هل لي بماء ساخن، أريد الاغتسال.

نظرت إليَّ باستنكار بعد أن عقدت حاجبيها:

ـ لا يجوز يا ابنتي، سيضيع أجرك.

ـ ما الذي لا يجوز؟ أريد أن أغسل الأوحال عني.

ـ لا نستطيع الاغتسال أو تغيير ثيابنا إلا بعد التكبير الثاني لصلاة الجمعة. عليك الانتظار وإلا سيضيع أجر زيارتك لضريح الشيخ.

ـ أسناني تصطك من البرد وأطرافي مجمَّدة!

ـ أجرٌ وثواب بإذن الله. اجلسي قرب النار. سآتيك ببطانية وأُمشط

لك شعرك.

جلستُ بغيظٍ ساكنة والماء يقطر من شعري وثوبي، قدماي وجواربي مغطاةٌ بالوحل.

جاءت بالمشط بدأت بفك ضفائري:

....

"أوها يا حورية يا ست البنات

أوها يا سكر النبات

أوها يا شمعة كل الصبيان

أوها يا حورية يا ست البيت

أوها يا حورية يا نور العين!"

....

ـ ما الذي حصل لكوز الزيت؟

ضحكت لاعتراضي.

ـ أنت النور للعين والبهجة للقلب.

سكتت للحظات وقد لا حت سحابة الحزن في عينيها، تابعت:

ـ آه يا حورية، هذا كلام سيدي عبد الماجد. كان كلما وقعت عينه عليك يهدهدك بصوتٍ عذب، رحمه الله.

ـ دعيني يا دادا أغير ملابسي، أرجوك.

ـ لا يا ابنتي، ليس قبل التكبير الثاني للصلاة.

علمتني الأيام ألَّا أجادل آمنة في أمور الدين رغم أن ما تقوله بعيد كل البعد عن المنطق. لها قناعات لا يمكن زحزحتها. هي، مثلاً، تؤمن بالمهدي الذي ظهر في السودان ووحَّد المسلمين، هكذا قالت.

ـ خلَّص الناس في بلادي من ظلم الأتراك والمصريين وحمى أمَّة

الإسلام من الكُفر الذي جاء به الإنكليز لينشروه في البلاد.

أكَّدت لي في أكثر من مناسبة بأن المهدي لم يمت، رفعه الله إلى السماء وأنه عائد لا محالة!

سألتها مرة:

ـ متى؟

ـ عندما يأذن له العليّ القدير؛ سيرجع لتطهير الأرض من الفساد. سيُعلي كلمة الله وسيدي رسول الله.

ـ يا للمهدي ... هذا المُخلِّص الذي لم يُخلِّص.

ـ أسألك بالله يا حورية ألا تذكريه أمامي بسوء.

- يا آمنة فكرة المُخلِّص أو كما تسميه أنتِ المهدي فكرة ابتدعتها شعوب الأرض التي هدَّتها الحروب والهزائم. ابتُكِرَت لتُخدِّر عقل الإنسان وتدخله في غيبوبة الانتظار.

ـ أستغفر الله، أستغفر الله.

لن أكون لك

نزلتُ إلى مُربَّع الجلوس بعد أن اغتسلت وغيرت ثيابي. جلسنا جميعاً بانتظار عودة رجال العائلة من صلاة الجمعة. قضيت وقتي أُمَشِّط شعر نازلي وأضفِّرُهُ بشرائط حريرية حمراء عليها زهور ملونة جلبها لها أخي وجيه من إستنبول. جلست في حضني وأحكمت أصابعها الصغيرة على يد المرآة تراقبني. تابعتني بتحريك المرآة باتجاه أصابعي وقد فاضت عيناها الصغيرتان بمزيجٍ من الدهشة والرضى. عندما انتهينا جرت نحو مربيتها وأرتها تسريحة شعرها الجديدة.

ضحكت دادا سعدية وقالت لها:

ـ عقبال ما نُمَشِّط لك شعرك يوم فرحك.

ابتهجت نازلي ونظرت إلي بعينين براقتين. سألت:

ـ هل يمكن أن تمشطي لي شعغي يوم فغحي؟

ردَّت فاضلة:

ـ لا تستطيع حورية الحضور دون دعوة!

التفتت نازلي إلى دادا سعدية آمرة:

ـ أغسلي لابنة عمتي حوغية دعوة، لا أغيد أن يُمَشِّط شعغي يوم فغحي إلَّاها.

ضحكنا عالياً. جريت نحوها وحملتها بعد أن أمطرتُ وجهها الصغير بالقبلات.

ـ نذر عليَّ يا نازلي أن أمشط شعرك يوم فرحك.

اتسعت عيناها ورفعت سبابتها الصغيرة في وجهي:

ـ دون دعوة؟

ـ دون دعوة.

تغرغرت بضحكتها الطفولية.

بدت بشرائطها الحريرية الملونة وثوبها الزاهي كسلةٍ صغيرةٍ من الأزهار الفوَّاحة. قرَّبت المرآة التي لا زالت تقبض عليها إلى وجهها، تأمَّلت صورتها من جديد، هزَّت رأسها بإعجاب وابتسمت بفرح.

* * *

اكتمل شملنا على مائدة الغداء.

جلس خالي على رأس الطاولة والقلق بادٍ على وجهه واحتلت أمي الجانب الآخر. جلس وجيه على يمينه وبجانبه فاضلة. أكلنا بهدوء وكأن على رؤوسنا الطير.

غادرنا خالي برفقة وجيه بعد الوجبة الرئيسة إلى مُربَّع الجلوس. لحقت بهما أمي بعد أن طلبت من الخدم تأخير الفواكه والحلويات وتقديمها في غرفة الجلوس مع القهوة المطعمة بالعنبر لخالي والشاي المطيب بالقرنفل لنا.

لحقنا بهم بعد أن غسلنا أيدينا تباعاً.

تعمَّدْتُ أن أكون آخر الداخلين إلى المُربَّع. دخلتُ أحمل نازلي وتجنبت النظر ناحية سليم. جلستُ بعيداً رغم أني رأيت بطرف عيني مكاناً شاغراً بجانبه. ما إن استقرت نازلي في حضني حتى قفزت مبتعدة وجرت إلى والدها تعرض عليه تسريحة شعرها. مسح خالي بحنان على رأسها وقبَّل وجنتها. قالت له:

ـ ابنة عمتي حوغية ستمشط شعغي يوم فغحي دون دعوة.

رفع حاجبيه علامة الدهشة.

ـ يوم فرحك ودون دعوة!

هزَّت رأسها مؤكدة. سألها:

ـ ومن سيمشط شعر حورية الحوريات يوم فرحها؟

نظرت نازلي ناحيتي وأجابت:

ـ أنا.

ضحكنا جميعاً. تابع كلامه:

ـ عظيم، ضَمِنَّا الماشطة يا نازلي لكن ماذا عن العريس؟

أطرقت نازلي للحظة وقالت:

ـ أنا.

ضحك الجميع لبراءتها وسرعة جوابها إلا أنا. سرت في أوصالي قشعريرة لذكر العريس.

أكمل خالي كلامه بأن نظر إلى يمينه حيث تجلس أمي.

ـ نريد أن نفرح بحورية يا نظيرة.

ابتسمت أمي.

ـ إن شاء الله، بحياتك يا باشا.

نظر مستبشراً ناحية سليم الذي اتسعت ابتسامته لتُغرِقَ الكون.

غاص قلبي لرؤية ابتسامة سليم وعرت أطرافي برودة الموت.

ما وراء كلام خالي؟ هل حُسِمَ أمر زواجي دون علمي؟

نظرتُ إلى فاضلة مُستنجدة. استجابت بأن نهضت من مكانها وقد رسمت على وجهها ابتسامة باهتة. حملت نازلي بين ذراعيها واتجهت ناحيتي، جلست بجانبي بعد أن أعادتها إلى حضني. حاولت فاضلة أن تشغلني بأن سألت نازلي عن ثوبها وأشياء أخرى لم أعيها.

جلستُ بلا حراك كتمثال من الثلج أجول بفكري في متاهات

الخوف. تنبهتُ عندما سمعتُ أمي تسأل خالي:

ـ كيف هي أخبار القدس؟ هل العمَّة حكمت بخير؟

ـ لا جديد، الأخبار لا تسر. اضطرابات، وخلافات، وشكاوى، وتقارير بسبب المستثمرين الأجانب من اليهود الصهاينة؛ يشترون أفضل الأراضي الزراعية حول القدس والساحل بمساحات شاسعة ويجعلونها وقفاً لهم. لكن أتعرفين، حالنا هنا ليس أفضل؛ نحن أيضاً نواجه مشكلة.

ـ خير يا باشا!

ـ مشكلة خطيرة أهملناها فتفاقمت. مشكلة "الحمايا" أو "البراءتلية".

سكت خالي برهة ثم عدَّل من جلسته، نظر إلى أمي بأسى، تابع:

- كنتُ في زيارة لمقر القائم مقام واجتمعتُ هناك بروجرز، قنصل بريطانيا في دمشق. عبرتُ له عن قلقنا من تبعات قانون الحمايا الذي يضمن حماية القنصليات الأجنبية لرعاياها والذي تخطى حدود الإعفاء الضريبي والتجنيد الإلزامي إلى تقديم قروض بفوائد فاحشة للفلاحين دون أي مرجعية قانونية. انتقلت ملكية العديد من القرى والأراضي الزراعية حول دمشق إلى مجموعة من هؤلاء بعد أن عجز الفلاحون عن تسديد الفوائد التي تراكمت عليهم. أقسم الفلاحون وشيوخ القرى على أنه جرى التلاعب في حسابات القروض وفوائدها. ردَّ القنصل بكل وقاحة أن الحصول على حماية القنصليات الأجنبية هو ما يطمح إليه كل موسر من الأقليات في هذه البلاد. أجبته، أتكلم عن تزوير وتلاعب؛ أنت تعلم أن القضاء وبموجب قانون الحمايا لا يستطيع التدخل. لا نستطيع دخول بيت أحد رعاياكم حتى لو أنَّ جريمة ارتُكِبَت فيه. حماية هؤلاء يا سيادة القنصل يعني حماية حفنة من المرابين والمزورين وموظفيهم؛ هؤلاء وأولئك يستغلون حاجة الناس، تتم مصادرة القرى والأراضي في هذه الحالة

بحماية قانون لا يسمح للعدالة أن تأخذ مجراها! هذا نهبٌ منظَّم.

تساءلت أمي:

ـ حمايا؟

أجاب بمرارة:

ـ نعم، حمايا. هم مجموعة من بعض الموسرين من الأقليات تخلوا عن انتمائهم لأوطانهم وحصلوا بقدرة قادر على جنسيات أجنبية، خاصة بريطانية وأميركية. تمثيل القنصليات الأجنبية في بعثاتها الدبلوماسية لهم أمام السلطان لحماية نهبهم للفلاحين يُشجِّع على المزيد من التجاوزات.

ـ كيف يوافق السلطان على مثل هذا القانون؟!

ـ فعلاً، العلَّة في القانون؛ أراد السلطان بإصدار هذا القانون أن يُنَمِّي أموال وممتلكات رعايانا من الأقليات وجلب أموال واستثمارات لهم من الخارج لدعمهم ولإنعاش التجارة وإصلاح حال البلاد. انقلبت هذه البادرة وبالاً علينا وعلى رعايانا، حق أُريد به باطل. استغلت فئات قليلة من الموسرين ثغرات في هذا القانون وحصلوا على جنسيات أجنبية وانقلبوا إلى مرابين لمضاعفة ثرواتهم؛ يُقرضون الناس بفوائد فاحشة ويُصادرون أملاكهم عندما يتأخر السداد مما أشاع الفرقة والكراهية بين الناس. هذه بذور فتنة ستطال الأقليات المسيحية في بلادنا ما لم نتدخل، هذا ما قلته للقنصل البريطاني الذي ابتسم في وجهي بلؤم وأجاب، يا صاحب الفخامة لا شيء خارج القانون، بالنسبة لنا هؤلاء بريطانيون ومن رعايانا لحصولهم على الجنسية البريطانية، نحن ملزمون بتمثيلهم وحماية استثماراتهم.

التفت خالي إلى وجيه وتابع:

ـ تعمل بعض القنصليات الأجنبية على تقويض هيبة الدولة عندما

تحمي هؤلاء المرابين. ينهبون ثروات البلاد ويثيرون نقمة الفلاحين وصغار التجار عليهم وعلينا. نشهد الظلم ونهب البلاد والعباد ولا نستطيع التدخل. لا حول ولا قوة إلا بالله.

أطرقت أمي بحزن.

ـ كان الله في عونكم. لكن ماذا عن الباب العالي، ألا تُرفع له التقارير بهذا الخصوص؟

لوح خالي بيده في الهواء إشارة إلى عدم الجدوى.

ـ نرفع شكاوى ومظالم الناس لكن أشك في وصول أيٍّ منها إلى مسامعه. بكل الأحوال السلطان غارق في متاهات الدستور وتقارير الخزينة الخاوية والديون التي أصبح في حكم المستحيل تسديدها.

* * *

أجمل ما في اجتماعاتنا سواء في بيتنا أو في بيت خالي إمامة خالي للصلاة.

علا صوت المؤذن لصلاة العصر فأعلن خالي بلطف كعادته:

ـ من يرجو أن يتفضل عليَّ بأجر مضاعف عليه أن يتبعني بعد الوضوء إلى "الآعة" لصلاة الجماعة.

تقاطرنا وراءه. دلفنا بسرعة من بابها هرباً من البرد لنجد القائمون على خدمة البيت بالانتظار وقد فرشوا عتبة "الآعة" بالسجاد. وقف خالي في المقدمة ووجهه إلى القبلة واصطف خلفه الرجال الثلاثة القائمين على خدمة البيت، عساكر الحراسة العشرة، ناطور البوابة الرئيسة، أولاده الأربعة، أخي وجيه وخليل. وقفنا نحن النساء وخادمات البيت وراءهم تتقدمنا دادا سعدية وآمنة والصغيرة نازلي.

كبَّر خالي للصلاة واستهلَّها بفاتحة الكتاب وأتبعها بترتيل آيات من

القرآن الكريم؛ رتَّل بصوتٍ عذبٍ خاشعٍ:

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ؛ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ؛ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ).

انهمرت دموعه ومعها دموعنا.

ختم الصلاة كعادته بدعاء سأل فيه الله العفو والمغفرة وطلب منا أن نغسل قلوبنا بالمحبة ونسامح بعضنا بعضاً. صافح القائمين على خدمة البيت من الرجال والعساكر المُرافقة له فرداً فرداً وشكرهم كعادته على تأدية أعمالهم؛ سامحهم وسألهم السماح. ألقى التحية على الخادمات والمربيات بأن رفع يده لهن ووضعها على صدره دون النظر في وجوههن. دعا لهن بالصحة وطول العمر وسألهنَّ السماح وحسن الدعاء. عانقنا نحن أهل بيته وقبَّل رؤوسنا. سامحنا وسألنا أن نسامحه.

لن أسامح سليم!

* * *

غادَرَنا خالي وأولاده بعد أداء الصلاة رغم اعتراض أمي ورغبتها باستبقائهم للعشاء. احتضنني خالي قبل رحيله، قبَّل جبهتي وربت على خدي بتحنانٍ أبويٍّ دافئ. تجنَّبتُ النظر في عينيه الرقيقتين وحبستُ دمعتي حتى لا يفضحني خوفي.

عدنا جميعاً بعد رحيلهم إلى المُربَّع.

استأذن أخي وجيه أمي لقيلولة قصيرة، لحقت به فاضلة.

جلستُ في المُربَّع على الأريكة قرب خليل الذي بدأ يستذكر بعضاً من دروسه.

دار بين أمي وآمنة حديث جانبي عن حاجيات المولود الجديد انشغلت بعده آمنة بالخياطة وأمي بالتطريز.

تناولت آخر عدد من مجلة العروس ورفعتها أمام وجهي. تظاهرتُ بالقراءة.

لا تعليق من أمي على كلام خالي!

لعلَّ وساوسي التي تعصف برأسي هي السبب؛ خالي يداعبني دائماً بأرق العبارات ويلاطفني بأعذب الكلام.

هدأ بالي فبدأتُ أتصفح المجلة باهتمام. أحب أسلوب صاحبة العروس، ماري عجمي.[35]

مجلة العروس مجلة ثرية في مواضيعها ومتنوعة في مشاربها؛ تاريخ، شؤون بيتية، عناية ورعاية الأطفال، مناظرات أدبية، روايات تهذيبية، باب للفكاهة والنوادر. اختصرت الآنسة ماري شعار مجلتها بعبارة "إن الإكرام قد أعطي للنساء ليزينَّ الأرض بأزهار السماء"، وقدمت لمجلتها بفقرة جميلة قالت فيها "إليكِ «العروس» فرحبي بها غير مأمورة ليذهب عنها شيء من حيائها، فتُسِرُّ إليك بمكنونات قلبها وشعائر موقفها". هذه البلاغة وهذا الرقي في التعبير خاطب وجدان الآنسات والسيدات من متابعيها فنالت الرضى والتقدير.

آه، بودي أن أبوح أنا الأخرى بمكنونات قلبي عن الحب الذي يملأه؛ أود نشره ليعرف الجميع خاصة سليم بأنني في حكم المخطوبة!

امتدت ظلال المساء وقاربنا على وقت العشاء. نزلت فاضلة من بيتها. لم تجلس كعادتها بجانبي، جلست قرب أمي وتشاغلت عني في تقليب

ما أنجزته أمي وآمنة. تَوَجَّسْتُ من تصرفها. قررت الانسحاب إلى غرفتي.

ـ آمنة، أنا مُتعبة، هل لك أن ترافقيني إلى غرفتي.

التفتت أمي ناحيتي.

ـ ماذا عن العشاء؟

ـ لا رغبة لي بالطعام يا أمي.

اعترضت آمنة كعادتها من الركن الذي تجلس فيه فأسكتُّها.

ـ أنا مُتعبة وأريد النوم باكراً.

نظرت إليَّ، أومأتُ لها برأسي أستنهضها وتوجهتُ نحو الباب لأغادر المُربَّع. نهضت من رُكنها مُسرعة وتبعتني.

فُتِحَ الباب وإذا بأخي وجيه يدلف إلى العتبة بعباءته الصوفية الثقيلة.

ـ إلى أين؟

ردَّت آمنة:

ـ تريد الست حورية النوم باكراً ودون عشاء.

تخطى وجيه العتبة باسماً خلع عباءته ورماها على يد آمنة التي امتدت لاستقبالها. تقدَّم نحوي، لفَّ خصري بيده، ضمني إليه بقوة وقال مداعباً:

ـ لن أسمح لأحلى حورية بأن تغادرنا، سنتعشى معاً.

أدارني باتجاه ركن الجلوس الواسع حيث أمي وفاضلة وخليل.

ابتهجت أمي لعودتي وابتسم خليل. فاضلة لم تنظر ناحيتي.

أسرعت آمنة بمغادرة المُربَّع إلى المطبخ لتُشْرِف على تحضير العشاء.

عاودتُ الجلوس على الأريكة قرب خليل. قلبي ينبض بشدة لا أدري لماذا. جلس وجيه في مواجهتي بين أمي وفاضلة، أحاطهما بذراعيه. نظر

إليَّ ليزفَّ إليَّ النبأ التعيس:

ـ طلبك خالي زوجة لسليم.

صمتَ. تأملني وعلى وجهه ابتسامة عريضة. أكمل:

ـ سنحتفل بقراءة الفاتحة بإذن الله يوم الجمعة القادم.[4] اتفقتُ مع خالي أن يتم زواجك في صيف العام المقبل؛ سننتظر حتى ينهي سليم دراسته في المدرسة الرشدية تمهيداً لالتحاقه بمدرسة الطب العسكرية في إستنبول.

التفتَ إلى أمي وقرَّبها إليه. قبَّل وجنتها، وأضاف:

ـ الحورية الصغيرة أصبحت عروساً يا أمي.

هزَّت أمي رأسها فَرِحة ودمعت عيناها. علَّقَت بأن فرحتها الكبرى هي قيام فاضلة بالسلامة!

صفَّق خليل بيديه لسماع خبر خطوبتي؛ قربني منه وقبَّل خدي.

ـ مبارك.

نظرتُ حولي كالمصعوقة. هل أنا في حلم؟ بل هو كابوس.

تلفتُّ حولي. لا ليس حلماً أو كابوساً! خليل بجانبي يشدّ على يدي بسعادة ويردد مبروك، مبروك. الفرحة مرسومة على وجه أمي ووجيه، الابتسامة الباهتة على فم فاضلة تؤكد يقظتي وخبر خطوبتي على سليم.

كيف لم يسألني أحد إن كنتُ أرغب بالزواج أصلاً! وَمِنْ سليم؟! مَن قال أنِّي موافقة؟ كيف يمكن أن تتجاهل فاضلة مشاعري؟ ماذا عنكِ يا أمي؟ ألم تشعري يوماً ونحن في الناصرة بالحب الذي ملأ قلبي؟

آه... في باطني ثورة وفي رأسي فوضى.

---

4 يوم الجمعة ٨ ذو الحجة ١٣٢٨ الموافق ٩ كانون الأول، ديسمبر ١٩١٠.

تسمَّرت عيناي على فاضلة، حاولتُ الكلام؛ لم أفلح.

صمَّمْتُ في خضم الحرائق التي شبت في باطني بأني لن أكون لرجل لم يخفق قلبي له. لن أكون لسليم ولن يلمس شعرة من رأسي.

هدأت الطاحونة التي عصفت بأفكاري.

كل ما فعلته فاضلة لتصرف الانتباه عن الذهول الذي أصابني بأن بدأت تعرض على زوجها بعض القطع التي أنجزتها أمي استعداداً لاستقبال مولودها! أصغى إليها وجيه باهتمامٍ وأبدى إعجابه بما عرضت عليه كطفلٍ صغير.

اغتنمتُ فرصة انشغالهم وخرجتُ من المُربَّع إلى قاعة الطعام هرباً من وجه أخي وأمي. جلستُ على الطاولة حزينة أنتظر إعداد مائدة العشاء. شغلتُ نفسي بمتابعة الخدم. لطالما أشفقت عليهم من المشاوير التي يقضونها جيئة وذهاباً في زمهرير الشتاء بين المطبخ القابع في آخر البيت و"صالية" الطعام.

عادت آمنة تتبعها مسرورة، وبحر الزين، وسمحة. عبق المكان برائحة شراب اللوز الساخن والحليب المغلي بالقرفة وضجَّت الغرفة بأصوات إعداد المائدة.

انهمكت بحر الزين في ترتيب الطاولة وغادرت آمنة ومسرورة وسمحة من جديد لإحضار أطباق الطعام. عدن بصوانٍ حملنها على رؤوسهن. طبق البيض المقلي بالزبدة ولحم الضأن، فطائر الجبن الأبيض المغموسة بالعسل، طبق ساخن من القمح المطبوخ بقشدة الحليب المحلَّى بسكر القصب غُطيَ وجهه بحبات من الزبيب والجوز المقشور.

التأم شملُ العائلة على المائدة.

دارت بحر الزين بأطباق الطعام.

شربتُ كأس الحليب بالقرفة المحلى بالعسل مع بضع قضمات من فطيرةِ جبنٍ ساخنة.

استأذنت للصعود إلى غرفتي.

سألتني أمي:

ـ هل أنت مريضة؟

نفيت.

ـ أنا فقط مُتعبة.

أصرَّت أن أقترب منها وأقرب جبهتي لتلمسها. اطمأن قلبها فافترَّ ثغرها عن ابتسامتها الحنونة.

ـ تصبحين على خير.

هززتُ رأسي.

أي خير هذا الذي سأصبح عليه!

غادرتُ إلى غرفتي. تبعتني آمنة.

* * *

ما إن دخلتُ غرفتي، الرحم الذي يؤويني كل ليلة، حتى غلبني البكاء. بكيت بحرقة. حضنتني آمنة ولسانها لا يفتر عن السؤال:

ـ ماذا جرى؟ لم البكاء؟ بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، اللهم اصرف الغم عنا، اللهم اشرح صدر حورية بنت نظيرة يا أرحمن الراحمين، ماذا جرى يا قرة العين؟ أوجعتِ قلبي.

ـ طلبني خالي من أخي وجيه زوجة لسليم. أنا لا أحبه يا دادا، لا أحبه.

اتسعت عينا آمنة.

أمسكتني من كتفي وهزَّتني:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم، هل جُننتِ!

ـ لا يا آمنة، أنا أقول الحقيقة.

ـ ماذا؟ متى؟

- اليوم، الآن، قبل العشاء.

ـ عجيب؛ لمَ لم تُفرحني الست نظيرة بهذا الخبر؟ خير إنشاء لله.

تابعت بعد صمت قصير:

ـ ما الذي يعيب سيدي سليم يا حورية؟ شاب يليق ببنت السلطان!

ـ لا أحبه يا دادا، لا أحبه.

ضحكت آمنة وعانقتني.

ـ ستحبينه يا صغيرتي، ستحبينه.

دفعتها عني:

ـ لا، أنا لا أحبه، أحب عارف.

ـ مَن عارف هذا؟

ـ ابن سامي بك؛ حفيد العمَّة حكمت، عَمِّة أمي. وعدني بالزواج عندما كنتُ في الناصرة. سيأتي في الربيع مع الأهل ليطلبني وسيتم الزواج في الصيف. دادا، أحبه، ولن أكون إلا له؛ لن يفرقني عنه إلا الموت!

ـ اسمعي يا ابنتي، قد يكون كلام هذا الشاب ...

قاطعتها:

ـ يا دادا افهميني، عارف شاب مُتعلِّم وفي غاية الرقة والأدب، تصلني رسائله بانتظام عبر مدرسة اللغة الفرنسية. تعاهدنا على الزواج، هو يحبني وأنا أحبه. شعوري تجاه سليم كشعوري تجاه أخي وجيه أو خليل، الموت عندي أهون من أن أكون زوجةً له.

ـ أعوذ بالله، أستغفر الله. لا أدري ما أقول. من الممكن أن ترفضي

أي عريس يتقدم لك بأي حجة لكن هذا العريس، ابن خالك وأخ زوجة أخيك وابن الباشا خالك سليل آل البيت ومن سلالة السلطان، ما السبب الذي يمكن أن تتحججي به لرفضه؟ سليم شاب كامل، علم، ونسب، ووجاهة! هداكِ الله يا ابنتي.

ـ لا أحبه يا دادا، لا أحبه. الموت ولا زواجي منه.

ـ اشش، اخفضي صوتك.

حضنتني. شدتني إلى صدرها. ربتت على ظهري بحنان. سالت دموعي دون إرادة مني. كتمتُ نشيجي في صدرها.

ـ خذني إليكَ يا إلهي!

ـ استهدي بالله يا ابنتي، استهدي بالله.

ـ كيف أهدأ، ستُقرأ فاتحتي على سليم يوم الجمعة القادم.

ـ ماذا؟

ـ هذا ما قاله أخي وجيه لأمي قبل العشاء.

أَطرقَت وقد كسا الهمّ مُحيَّاها:

ـ لا تخافي. توكلي عليه واسأليه الفرج. من يدري، كرمه لا حدود له. اللهم إنا نسألك الفرج فتدبر أمر عبدتك حورية بعلمك يا أرحم الراحمين.

أدنتني منها ومسحت على رأسي بيمينها. أغمضت عينيها بخشوع وبدأت بتلاوة القرآن بصوت خافت. عندما انتهت نفخت في وجهي.

نظرت إليَّ ملياً، عرفتُ أنَّها تفكر.

شدَّت ستر رأسها، أمسكت بوجهي، قبَّلت جبهتي وقد تألُّقت بشرتها السوداء بأطياف الطمأنينة والسكينة.

ـ اسمعي يا ابنتي، لماذا لا تكلِّمي سيدي سليم؟ لن يخرجك من هذه الورطة سواه.

ـ كيف؟

ـ قولي له ما قلتيه لي، أحبك كحب أخت لأخيها. لا يمكن بمحبتي هذه أن أكون زوجةً صالحة لك. سيفهم ويُخبر والده بأنَّه صرف النظر عنك وبهذا تنتهي المشكلة كما بدأت من طرفه.

ـ هل أخبره عن عارف؟

ـ لا أدري يا ابنتي. لو لم تتواعدي على الزواج من سيدي عارف هل كنت ستقبلين بسليم زوجاً؟

ـ لا، أبداً.

ـ إذن السيد عارف ليس المشكلة. القلب وما يهوى يا ابنتي، القلب وما يهوى!

ـ صحيح، لا دخل لعارف. يجب أن أشرح لسليم، لكن متى؟

ـ قومي لتغيير ثيابك الآن واتركي هذا الأمر للصباح. سنتدبر الأمر بمشيئة الله.

خلعتْ عني آمنة ثيابي ومعها الهموم التي أثقلت قلبي. مسحت جسمي بزيت اللوز وبماء الورد ومسحت معه أحزاني. دلكت ذراعي وكتفيَّ فزال عني التوتر وهدأت أنفاسي.

وضعتني في سريري وهدهدتني بصوتها الأجش بزغرودة حملتني فيها إلى عالمها الوديع.

....

"أوها ببيتنا رمانة

أوها حامضة ولفَّانة

أوها وحلفنا ما نقطفها

أوها ليوصل وِلِف[36] ستي حورية بالسلامة"

....

تشبَّثْتُ بذراعها عندما همَّت بالنهوض. أجلستُها فسكنت. قرَّبتُ وجهها مني ومررتُ بأصابعي على آثار الفُصود الرفيعة التي على خديها. هي التي أخبرتني يوماً بأن هذه العادة كانت مستحكمة عندي عندما كنت صغيرة لأجلب النوم إلى عينيَّ. شجعتني بابتسامتها الرائقة وتركتْ نفسها لي بتحنان أُموميّ لا يعرفه إلا من كان له قلبٌ كقلبها؛ قلبٌ قادرٌ على أن يغمر الكون محبةً.

هدأت نفسي فداعب النعاس أجفاني. قبَّلتها وهمستُ في أذنها:

ـ تصبحين على خير يا جدتي الحبيبة.

ابتسمت فبدت أسنانها البيضاء كأقمار مضيئة في ليل وجهها الطيب. وقفت على هون بعد أن مسحت عن خدِّها بستر رأسها دمعةً غلبتها.

ـ والله كبرت يا حورية وأصبحت عروسة. سنفرح بك بإذن واحد أحد.

تابعت بعد أن نظرت إليّ بحنان:

ـ قلبي يحدثني يا قرَّة عيني بأن فرحنا بك وبالسيد عارف سيكون قريباً.

مضت وأغلقت الباب وراءها بعد أن تمنَّت لي ليلة هانئة.

ليلتي طويلة يا آمنة، فمثلي لم يعد يعرف للهناء طعماً.

* * *

تقلبت في سريري. أين سأقابل سليم قبل قراءة فاتحتي عليه وكيف

أبدأ حديثي معه؟ أدرت في رأسي حوارات عديدة؛ استقر رأيي على إحداها.

حاولتُ أن أجلب النوم لعينيَّ اللتين أنهكهما التحديق في الظلام، فلم أفلح. جلستُ في سريري من جديد. تخيلتُ نفسي في مواجهة سليم. بدأت أقول له الكلام الذي قضيت الليلة بتحضيره. لم أفلح.

أفكاري مشوشة ورأسي ثقيلة.

غادرتُ السرير وبدأت أزرع غرفتي جيئة وذهاباً. اشتعل رأسي بأفكار جديدة. لم أرتح لأيٍ منها.

ردَّدْتُ فجأةً بيني وبين نفسي "يا جبانة".

وقفت برهة في وسط الغرفة أُفكر، أنا فعلاً جبانة؛ ألا ينعقد لساني ولا أقوى على الكلام عندما يتطلب الموقف إبداء رأي؟ ألم تتبخر الكلمات من فمي أمام أخي وأمي هذا المساء؟ كنت أصرخ في داخلي بأني أحب سليم كحب أخت لأخيها، فكيف أقبله زوجاً؟ ومع ذلك لم أتفوه بكلمة ولم يُسْمَع لي صوت.

أعياني اللف والدوران في غرفتي وجمَّد البرد أطرافي. عاودتُ الجلوس على السرير والتحديق في الظلام. قررتُ فجأةً أن أخبر أمي. أجل، كفاني خوفاً؛ سأقول لها في الصباح بأني لا أرغب بالزواج من سليم.

لكن، لماذا الانتظار للصباح؟ أذهبُ إليها الآن، أوقظها وأخبرها بقراري.

خرجتُ من غرفتي على رؤوس أصابعي، وقفت بباب غرفتها. هممت بفتح الباب. ارتعدت فرائصي وعقد الخوف لساني.

عدتُ مسرعةً إلى غرفتي. أغلقتُ بابها وسددته بظهري. كيف لم أفكر بالعواقب! آمنة على حق، مفتاح الحل في يد سليم. لكن كيف السبيل

لرؤيته قبل موعد قراءة الفاتحة؟

جلستُ على حافة سريري. فكرت، لماذا لا أكتب لسليم رسالة؟ ألم يلجأ هو إلى الكتابة للتعبير عن شعوره نحوي!

أعجبتني الفكرة.

قمت من فوري إلى خزانة ملابسي. مددت يدي إلى جيبٍ داخليٍّ لمعطفٍ قديم كنتُ قد خبَّأت فيه الورقة التي حملت نبضات قلب سليم العاشقة. أحضرتُها ومعها من درج مكتبي المحبرة والريشة. وضعتهم على الطاولة بجانب سريري. اندسست تحت اللحاف طلباً للدفء. غفوت.

حملتني غفوتي إلى عالمٍ مضطربٍ. رأيتني في خضم نهرٍ هائج تمور مياهه بدوامات تحاول ابتلاعي، أصرخ وأستغيث ولا من مجيب. رأيت أمي تقف على حافة النهر بعيدة وشبه عارية تناديني، كانت تبكي وتلطم. صحوت فزعة.

لاحت خيوط الفجر الأولى وأنا في سريري مُنْهَكَة. نهضتُ بصعوبة، رفعتُ ستارة النافذة القريبة من سريري ليدخلها النور، دخلها على استحياءٍ. كل شيء في الوجود ساكن إلا نبضات قلبي، هائجة.

تناولت الورقة، فتحتها. طالعتني عبارة سليم بالفرنسية "أحبك".

خططت تحتها بالفرنسية ما معناه:

"آسفة، لا أبادلك الحب. شعوري تجاهك أخوي. لا يمكن أن أكون لك زوجة. أرجو أن تفهم شعوري وتحترم قراري."

سالت دموعي وأنا أراقب حبر الورقة يجف.

لكم تمنيت أن يحمل لي سليم ذلك الحب الكبير الذي أحمله له، حب أخوي مجرد من أي رغبة.

وضعتُ الورقة في مكانها الآمن في جيب معطفي القديم بعد أن

طويتها بحرص.

يجب أن تجد رسالتي هذه طريقها إلى سليم في أقرب فرصة.

عدت إلى سريري. لم أنم، أخذتني وسنات خاطفة.

* * *

سمعتُ قرعاً على باب غرفتي. فتحتُ عينيَّ. أصغيت، لا أحد. أرحتُ رأسي على وسادتي من جديد.

عاود قرعٌ خفيفٌ على الباب.

ـ من؟

ـ خليل.

ـ ادخل.

دخل بهدوء بثياب النوم يحمل كرَّاسة. قال بصوت هامس:

ـ صباح الخير يا أحلى عروس.

جلست في سريري بانزعاج.

ـ ماذا تريد وباختصار.

ـ هكذا يكون استقبال العرائس.

ـ كف عن المُزاح.

ـ أعانَك الله يا سليم!

ـ أخرج الآن من غرفتي وإلا ناديتُ أُمي.

ـ لا أرجوكِ.

ـ ماذا تريد؟

ـ تصحيح سريع لواجب الفرنسية. لن يكون لدي وقت كافٍ لنسخه بعد الظهيرة فكما تعلمين يصل أستاذ الفرنسية لدرسنا الخاص مبكراً حتى قبل وصولي ومصطفى من المدرسة.

ـ لا بأس، هاتها.

ـ أعود إليك بعد الإفطار؟

ـ ستكون جاهزة بانتظارك.

ـ أنت أحلى حورية في لوجود.

وضع مجموعة من الأوراق على طرف السرير وخرج.

فتحتها، تمهلتُ في قراءتها. خطه جميل وعباراته رشيقة.

خطرت في بالي فكرة، خليل أهل للثقة ويعرف كيف يحميني ويكتم أسراري لمَ لا أعهد له بمهمة توصيل رسالتي إلى سليم؟

أعجبتني الفكرة، هززتُ الجرس أطلب آمنة لاستشارتها.

* * *

تستيقظ أمي كلَّ صباحٍ في موعدٍ محددٍ لا تخلفه.

تقف آمنة وبحر الزين وسمحة ومسرورة بهدوء أمام غرفتها كلَّ صباح. تفتح الباب لتخرج إليهم في كامل ثيابها وزينتها. تجلس على أريكتها الوثيرة في بهو غرف النوم وتبدأ بإلقاء أوامرها.

على غير عادتها هذا الصباح أوجزت للخادمات عن وجبتي الغداء والعشاء. استمعت لتقرير بحر الزين اليومي عن أحوال البيت والخدم واطمأننت على صحتهم وأهليتهم التامة للعمل.

أمي رحيمة لا تسمح لخادم أن يعمل إذا كان مريضاً. تعطي المرضى منهم إجازات وترسلهم إلى حي الصالحية لزيارة طبيب يدعى مصطفى أفندي البكباشي. توصي السائس مسعود بشراء الدواء الذي وصفه الطبيب دون تأخير من أقرب أجزخانة[37]. تطمئن على صحتهم بزيارتهم في دورهم وتشرف على طعامهم وعلاجهم حتى الشفاء.

أمي أيضاً قاسية؛ عندما يبدر خطأ أو تصرف غير لائق من أحدهم،

سوط الحاج زكي يؤدبهم دون رحمة.

وقفتُ وراء باب غرفتي بعد أن قرعتُ الجرس لآمنة وانتظرتُ حتى فرغت أمي من أوامرها وغادرت لتناول الإفطار. فتحتُ الباب بهدوء، مددتُ رأسي وأشرتُ على آمنة بيدي أن تأتي إليَّ بسرعة. كانت تُعمِّر مدفأة البهو بالحطب لإيقادها. مسحت يديها في ذيل ردائها وجاءت تهرول وضِحكَتُها تملأ وجهها.

ـ أسعد ربي صباحك كما أسعدتِ صباحي بهذه الضحكة المُشرقة.

حضنتها وأجلستها على طرف السرير.

- لم أنم يا جدَّتي.

ـ لا إله إلَّا الله، توكَّلي عليه، الفرج بيده وحده.

سحبتُ الكرسي من وراء المكتب وجلستُ أمامها. أمسكتُ بيديها وضممتهما بين يديّ.

ـ دادا، كتبتُ رسالة إلى سليم، سأعطيها لخليل ليوصلها له، ما رأيك؟

ـ الخيرة فيما اختاره الله؛ دعوتُ لك وصليت ليلة البارحة ليهديك الله إلى ما يريح قلبك. هل كلَّمتِ خليل؟

ـ أريد أن أُكلِّمه بحضورك، لن أعطيه الرسالة قبل أن يعدني أمامك بأن لا يُفشي سري.

ـ خير إن شاء الله، خليل في "الصالية" يتناول إفطاره مع سيدي وجيه والست نظيرة.

ـ أعرف، أريدك أن تبقي في غرفتي لأنه سيعود إليها؛ أيقظني باكراً وطلب مني تصحيح واجبه.

ـ هل أجلب لك الماء للاغتسال؟

ـ انتظري حتى نفرغ من خليل.

ـ سأنزل إذن حتى لا تفتقدني الست نظيرة وألحق بخليل عندما يصعد إليك.

ـ لا تتأخري.

ـ لا تقلقي، لن أتأخر.

* * *

غادرتني آمنة. قمت إلى نافذتي المطلة على أرض الديار. رأيت سطح البحرة وأطرافها تلتمع في غبش النهار. طبقة رقيقة من الجليد غطت وجهها بغلالة شفافة. بدا وجه البحرة كوجه عروس حزينة. تذكرتُ أحزاني ففاض قلبي بعذاباته.

ظهرت الخادمات على مدخل صالة الطعام يحملن أطباقاً وسلالاً فارغةً اتَّجهن بها إلى المطبخ. كنَّ يتقافزن طلباً للدفء.

ها هو خليل. أين آمنة؟

آه ها هي تتدحرج خلفه.

أسرعتُ إلى خزانتي، أخرجتُ رسالتي وأخفيتها في درج المكتب.

جلستُ على الكرسي ووضعت أوراق خليل في حضني.

قرع خليل الباب.

ـ ادخل.

دخل وفي ذيله آمنة التي شغلت نفسها بتهيئة السرير.

ـ ها، ما رأيك؟ هل تغطيتي للموضوع جيدة؟ أريد أن أكيد مصطفى بعلامة عالية.

ـ الموضوع جيد والمصادر التي استعملتها موثَّقة. أنت تغفل استعمال الفاصلة، وضعتها لك في أماكنها. هناك فقرة يجب أن تكون مستقلة، وضعت لك ملاحظتي بجانبها.

ـ أنت أحلى حورية في الوجود. سأعيد نسخ الموضوع في فترة الغداء.

تناول أوراقه واقترب ليقبل جبهتي. أمسكت بمرفقه.

ـ خليل، عندي لك طلب صغير!

ـ اطلبي، عيناي لك.

عقَّبت آمنة.

ـ الأخ سند. الله لا يحرمكم من بعض.

وقفتُ وضعتُ كفي على كتفه أدرته وضغطت عليه ليجلس على الكرسي الذي كنت أجلس عليه. بدا مندهشاً. سألته:

ـ هل تعدني بألَّا تقول أي شيء عن المهمة التي سأوكلها لك؟

ضحك عالياً.

ـ مهمة!

ـ الأمر في غاية الأهمية، أنا لا أمزح.

ـ يا سيدي خليل، الأخ ستر وغطاء على أخته.

بدا الخوف على محياه وقال هامساً:

ـ عيوني لك يا حورية. ما الأمر؟

فتحتُ درج المكتب وتناولت الورقة المطوية.

ـ أريدك أن توصل هذه الرسالة لسليم.

ابتسم بخبث وحرك حاجبيه بمرح:

ـ أَوقعتِ قلبي! سأكون مرسال الغرام؟

نظرتُ إليه بغيظ. تدخلت آمنة.

ـ يا سيدي خليل، كل شيء يمُكن أن يتم بالإكراه إلا الزواج!

التفت إليَّ باستنكارٍ ودهشة.

ـ لم أفهم، ماذا؟!

اغرورقت عيناي بالدموع. جلستُ على حافة السرير.

اختنق صوتي عندما حاولت الكلام. استنجدتُ بآمنة.

ـ يا بُنَي، بتَّ الكبار في أمر زواجها دون موافقتها. لسيدي سليم في قلب حورية معزة ومحبة كمحبتك أنت. هل فهمت؟

التفت ناحيتي:

ـ لكن سليم غارق في حبِّك يا حورية، ولم يسألك أحد أن توافقي لأنَّ العائلة برمَّتها تعرف بأنك تبادلينه الحب!

ـ أحبه يا خليل حب أخت لأخيها وظننت أنه يبادلني نفس الشعور. لم يكشف لي عن حقيقة مشاعره إلا قبل أن يطلبني خالي.

ـ حقيقة مشاعره! هل أنت جادَّة؟ تراب الأرض، ذرات الهواء، ونتف السحاب تعرف أن سليم عاشق لحورية ولا يحلم إلا بها!

ـ هل قال لك سليم ذلك؟

ـ لا لم يقل، لم يكن بحاجة للقول! كل هذه القصائد والألحان التي يُدرِّبُك عليها وترددينها عجزت عن أن تنقل إليك غرامه بك وذوبانه في حبك!

ـ يا سيدي خليل، هذا الكلام لا يُجدي، القلب وما يهوى.

ـ يجب أن تعلمي يا حورية أنَّ رفضك لسليم سيُدمره؛ سيُدمِّر الجميع. ألم تحسبي حساب وجيه؟ خالي؟ نسيت أن فاضلة أخت سليم؟ وماذا عن أمي؟

ـ يا خليل افهمني، كيف يمكن أن أتزوج مِنْ شخصٍ لا أكن له سوى مشاعر أخوَّة؟ مستحيل. مَن يقبل بهذا؟

ـ آه، تأخرت، يجب أن أغادر.

ـ أرجوك أن توصل الرسالة لسليم، أرجوك.

وضعتُ الورقة المطوية في كفه وأضفت:

ـ هذه أمانة؛ لا تفتحها.

ـ سأعطي الرسالة لمحمود. هكذا نضمن وصولها اليوم لأنني أولاً، لا أرى سليم يومياً، وثانياً، لا أريد أن أحمل له حكم الإعدام! كوني على يقين بأن رفضك للزواج منه، سيقتله.

نظر إليَّ متضرعاً:

ـ أليس هناك احتمال لتغيير رأيك؟

ـ لا يا خليل. أُفضِّل الموت على أن أكون لرجل أعتبره أخي.

ـ لو علم وجيه بأمر هذه الرسالة، سينصب لك مشنقتك! إياكِ، ثمَّ إياكِ أن تشي بأنَّ لي أي علاقة؛ أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع.

ـ أقسم بأنني لن آتي على ذكرك مهما حصل.

ـ اتفقنا.

ـ خليل، أرجوك، قل لمحمود هذه أمانة من حورية وعليه إيصالها لسليم، اليوم. يجب أن يعدك بألا يطَّلِع عليها أحد سوى سليم.

هزة رأسه أكدت لي حرصه.

ـ تأخرت، عليَّ أن أذهب.

وضع الرسالة في جيبه. حمل أوراقه وخرج. شيعته آمنة بدعواتها:

ـ ربي يحميك ويوفقك يا سيدي خليل.

التفتت إليَّ بعد خروجه.

ـ ستُفرج يا ابنتي، ستُفرج. كل عقدة ولها حلّال.

قمتُ إليها ودفنت رأسي في صدرها. امتلأتُ برائحتها وشعرتُ بالأمان. بكيت. مَسَحَت على رأسي:

ـ توكلي عليه وسلمي أمرك إليه. هو صاحب الأمر، لا اله إلا هو.

* * *

انتظرتُ عودة خليل بفارغ الصبر، أكد لي بأنه سلَّم رسالتي لمحمود. رجوت خليل أن يسأل محمود في الغد ليتأكد من وصولها لسليم.

تجنبت في ذلك اليوم ولليومين التاليين أن أنفرد بأمي. لم يكن لي رغبة بالمجاملات والكلام عن التجهيزات الجارية للطفل المنتظر، مللتُ هذه الأحاديث.

عبرَّت أمي هذا الصباح عند انفرادنا بعيداً عن عيون الخدم عن فرحتها لاقتراب موعد قراءة فاتحتي. قالت والفرحة تغمرها:

ـ سأتفرغ لجهازك بعد أن تقوم لنا فاضلة بالسلامة. سيكون جهاز عروس تتحدث عنه دمشق وإستنبول.

تُراها لا تشعر بحزني!

نظرتُ ناحيتها، ابتسمت لي بحنان. غضضتُ طرفي.

ابتلعت مرارتي وهززتُ لها رأسي موافقة؛ لن أُفسد عليها فرحتها. الطفل الذي تحمله فاضلة لها في أحشائها، أصبح شغلها الشاغل فقد مضى على زواج وجيه وفاضلة سنواتٌ أربع دون حمل. خافت أمي وقلق خالي، وجيه لم يهتم. حبيبته بقربه وهذا أقصى ما يتمناه.

قلت في نفسي مطمئنة "زواجي من سليم لن يتم؛ وإذا تم دون إرادتي فلن يلمس سليم شعرة من رأسي".

* * *

اليوم الجمعة، يوم اجتماع العائلة والمفروض أنه موعد قراءة فاتحتي على سليم. صحوتُ باكراً وبقيت في سريري أفكر، لم أسمع من سليم بعد أن تَسَلَّم رسالتي لكنني لم أعد خائفة؛ قالت آمنة بأن سليم بعد

معرفته لحقيقة مشاعري تجاهه لا بدَّ أن يجد مخرجاً لي وله دون أن يُغضِب الكبار. قالت ما معناه بأن المسألة تحتاج إلى الوقت والصبر والتَأَنيِّ. لعل الفرج قريب كما تقول آمنة.

طمأنتُ نفسي وجلستُ في سريري أسترجع حلماً رائقاً.

رأيتني صغيرة أمسك بيد ابن خالي سليم نلعب في أرض الديار في بيتنا. لا أدري لمَ غافلته واختبأت. بحث عني، لم يجدني، بحث من جديد وتراكض في أرض الديار. أعياه التعب. جلس على الدرج خائفاً وبكى. خرجتُ له مسرعة ونادمة على فعلتي. عانقته، ومسحت دموعه. سألني أن أغنِّي له ليسامحني!

غنَّيت. تمايل رأسه طرباً وأنارت ابتسامته الواسعة وجهه. عرفتُ أني مسحت عن قلبه خوفه وحزنه.

ليتنا يا سليم لم نكبر.

ستجتمع العائلة على الغداء بعد صلاة الجمعة.

كيف سألقاك؟ أم تُرى كيف ستلقاني؟

هل سيحمل لي لقاؤنا اليوم الفرج الذي أرجوه؟

* * *

لم أطق البقاء في المُربَّع بعد الإفطار. تعللتُ لأمي بأن أحد رفوف المكتبة في بهو غرف النوم آيل إلى السقوط وأنني أنوي رفع ما عليه من الكتب ريثما يتم إصلاحه. سألتُ أمي أن تسمح لآمنة بمرافقتي. استغربت أمي.

ـ اليوم قراءة فاتحتك والمطبخ بحاجة لآمنة؛ اصبري إلى الغد. سآمر الحاج زكي بأن يحضر النجار في الصباح وسأرسل آمنة ومسرورة لرفع الكتب عقب صلاة العصر.

ـ لا عليك يا أمي، سأرفعها أنا، هي كُتُبي وقد قمت بترتيبها ولا أريدها أن تختلط. سأنقلها إلى غرفتي هذا الصباح ريثما يتم اصلاح المكتبة.

ـ حسناً، سأرسل آمنة لرفع الغبار عن الرفوف بعد أن تفرغ من المطبخ.

غادرتُ المُربَّع أحمل مشاعر الغضب التي تثيرها ابتسامات فاضلة الباهتة كلَّما تكلمت. أعرف أنها تخاف وجيه ولا تتدخَّل في المسائل التي تمَسُّ عائلتنا، ما آلمني أنها لم تُكلِّف نفسها منذ أن طلبني خالي لسليم أن تنفرد بي لتسألني سعيدة أنا أم تعيسة، كأنني لم أُفصِح لها يوماً عن مكنونات قلبي.

أغلقتُ باب المُربَّع ورائي ومشيت في الردهة في طريقي إلى الدور العلوي. وجه السماء مكفهر وفي الأجواء ريحٌ عاصفة؛ أرض الديار تَعِسة ومهجورة كأرملةٍ مفجوعةٍ.

* * *

أصبحت غرفتي الرحم الآمن الذي أدخله لأحتمي به من مخاوفي وأحزاني. حضن آمنة الدافئ كان ولا زال ملاذ آمالي وأفراحي.

عندما وصلت آمنة كنت قد انتهيت من نقل الكتب. جلستُ قرب المدفأة أتصفح بعض الأوراق القديمة وجلست آمنة على السجادة الصوفية بقربي بعد أن مسحت الغبار عن رفوف المكتبة. أحضرت معها كتاب دلائل الخيرات لأقرأ لها وردها قبل إقامة صلاة الجمعة.

انتهينا من قراءة الورد. قمنا لصلاة الظهر وصلينا معاً. وقفتُ قرب نافذة غرفتي أرقب مدخل المُربَّع وأنتظر آمنة التي بركت على السجادة في غرفتي متربعة وبدأت بترديد دعواتها.

فرغت من صلاتها ووقفت بجانب الباب لنغادر. لم أتحرك. جلستُ على الكرسي قرب سريري.

ـ ما الذي يشغل بالك يا حورية؟

ـ دادا، أنا خائفة من زيارة بيت خالي اليوم. لا أدري كيف أواجه سليم.

ابتسمت ابتسامةً مُطَمْئِنة ولوحت بيدها:

ـ اتركي الأمر لصاحب الأمر. سيدي سليم شاب مُحترم ومُتعلِّم. قلبي يُحدِّثني بفرجٍ قريب. لا تخافي، هيا، سنتأخر.

هممتُ بالوقوف. سمعنا جلبة أقدامٍ على الدرج الخلفي وصوت أمي يدعو وجيه أن يتريث.

نظرتُ إلى آمنة بهلع فرأيت الرعب والخوف في عينيها. جمَّدني صوت أمي في مكاني فلم أقو على الحركة. رفعتُ يدي إلى آمنة مستنجدة.

ـ دادا!...

ركضت آمنة باتجاهي ووقفت بجانب الكرسي الذي أجلس عليه. وضعت يدها اليسرى على كتفي الأيمن وشدَّت عليه بقوة. صكَّت أسنانها وقالت بصوتٍ مُرتعش:

ـ يا رب سترك.

باب غرفتي مُشَرَّعاً.

دخل وجيه كالعاصفة دون استئذان ودخلت أمي وراءه. أمسكت بساعده وشدَّته إليها. وقف كالمارد منتصباً في مدخل الغرفة.

عقد حاجبيه ونظر إليَّ بغيظٍ:

ـ اعتذر الخال عن زيارتنا اليوم. ما هذا الذي بدر منك بشأن سليم؟

تجمَّد الدم في عروقي وعقد الخوف لساني.

حاولتُ الكلام، ماتت كلماتي في فمي رغم الصراخ الذي هدَّ كياني في داخلي.

علا صوت أمي:

ـ إنها مزحة، كانت تمزح!

أجاب وجيه بعنف:

ـ مُزاح! اسمعي يا حورية، لن أسمح بمثل هذه التصرفات الصبيانية في بيتي ولا مكان لمزاح سمج في أمور الزواج. طلبتُ من خالي تأجيل قراءة فاتحتك على سليم إلى أول أيام العيد، سنقرؤها بعد يومين؛ لا نقاش في هذا القرار، فهمتِ!

شدَّت أمي على ساعد وجيه تدعوه إلى الانصراف بعد أن حسم الموقف.

استدار غاضباً وخطا بضع خطوات في بهو غرف النوم.

صاحت آمنة مُستنكرة:

ـ قراءة فاتحة سليم على حورية! لا يجوز، بين الست حورية والسيد سليم رضاعة.

عاد وجيه إلى الغرفة، نظر إلى أمي التي جمَّدَتْها المفاجأة.

ـ ماذا؟

ـ أم عبد الله مرضعة حورية، يا سيد وجيه، أرضعت سليم. لم يكن سيدي سليم قد تجاوز السنتين وقتها، أذكر ذلك جيداً. كان يقترب من أم عبد الله، رحمها الله، في كل مرة يراها تُرضع حورية ويحاول شد حورية عن الثدي ليرضع هو. كان يبكي حتى تُشفِق عليه وترضعه عندما تفرغ من إرضاعها.

ـ ما هذا الذي تقولينه يا آمنة؟ كيف لم أعرف أنا؟ ولماذا كتمتِ

الأمر عنا كل هذه المدة؟

ـ لم يسألني أحد قبل اليوم.

نظر وجيه إلى أمي التي تسمَّرت في مكانها تنقل نظرها بيني وبين آمنة التي أرخت يدها عن كتفي ومسحت بباطن كفها المرتجف جبهتي التي بللها العرق.

رَمَحَ وجيه خارج الغرفة دون كلمة.

وقفت أمي بعد رحيله لدقائق تُحدِّق في وجه آمنة التي عقدت يديها على بطنها وأرخت نظرها تأدباً. كانت آمنة ترتعش وأنا أيضاً. كلانا يعرف سطوة أمي وقسوتها.

ـ لن أغفر لك يا آمنة.

ارتجف قلبي خوفاً.

تابعت:

ـ رضاعة! كان عليك أن تقولي.

أجابت آمنة بصوت خافت:

ـ لم يسألني أحد يا سيدتي.

ـ كاذبة؛ تخبري حورية عن هذا الأمر وتكتمينه عنا؟

ـ وعزَّة الله، لم أخبر الست حورية عن أمر الرضاعة. الآن، وفقط الآن تذكرت عندما سمعت منك ولأول مرة خبر قراءة فاتحة حورية على سيدي سليم. لو علمت بالأمر مسبقاً لما كتمت!

ـ منذ متى نستأذن أو نستشير الخدم في أمورنا العائلية؟

ـ العفو يا سيدتي لم أقصد!

رفعت أمي يدها في وجه آمنة. سكتت المسكينة.

غادرتنا أمي أخيراً بعد أن توعَّدتني وآمنة بأشد العقاب.

تحركت آمنة ببطء من ورائي. تهالكت على الأرض أمامي كالناقة؛ كانت ترتجف. أراحت كفها على ركبتي. ابتسمت بحزن وقد فاض دمعها.

ـ أسأل الله العفو. أستغفره وأتوب إليه، أستغفره وأتوب إليه.

اختنق صوتها. بكت وبكيت لبكائها. عندما هدأت، مَسَحَت دموعي بكفيها ومَسَحَت دموعها بستر رأسها. حلَّقت بنظرها عبر النافذة، غابت عني للحظات؛ عندما عادت، مسحت بيديها المرتعشتين وجهها. همست:

ـ يا ابنتي، الزواج ممن يرفضه قلبك ولا تتآلف معه روحك عذاب مُقيم. لم يكن الله، تبارك اسمه، ليقبل لك أن تدخلي سجناً تقضي فيه عمرك معذبةً وتُعذبي معك روحاً أخرى، سيدي سليم، هو أيضاً لا يستحق العذاب.

ابتسمت لي مُطَمْئِنة. همَّت بالوقوف. ناديتها:

ـ جدتي.

التفتت. أمسكتُ بساعدها وقرَّبتُها نحوي. اقتربت. احتضنتُ وجهها، غمرته بالقبلات وأغرقته بالدموع.

* * *

غادرتني آمنة وبقيت في غرفتي وحيدة. لجأت إلى سريري أنشد الدفء فغفوت. زارني في الحلم رجل قال إنَّه أبي. بدوتُ في الحلم طفلة صغيرة سوداء البشرة أشبه آمنة. احتضنني أبي وكأنه يحميني من أمي التي وقفت بجانبه غاضبة. كانت تصرخ لكني لم أكن أسمعها. فجأة تحولت أمي لتكون فاضلة ابنة خالي. أخذت فاضلة تشدني بعيداً عن أبي. كانت كلما شدتني تشبثتُ به أكثر.

فتحتُ عينيَّ.

الظلام يملأ الغرفة وأصابعي التي لا زالت تقبض بشدَّة على حافة

الغطاء تؤلمني. جلستُ في سريري مُجْهَدَة، قرأتُ المعوذتين ومسحتُ على وجهي.

قمتُ من سريري، أزحت الستارة عن النافذة ونظرتُ إلى أرض الديار فوجدتها هي الأخرى غارقة في الظلام. نور شاحب يتسرب من نافذة المُربَّع. لم أتبين الوقت. عدت إلى سريري أنشد الدفء. تذكرت فجأة وجيه وكلمات أمي القاسية والغضب الذي صبَّته على رأس آمنة.

قررتُ أن أنزل إلى المُربَّع.

دخلت المُربَّع فوجدت خليل، أمي، فاضلة، ووجيه في حالة من الشرود. التفتوا إليَّ عندما دخلت. سألتُ أمي:

ـ أين آمنة

أجابت:

ـ حبيسة في غرفتها. لن أسمح لها بمغادرتها حتى أتحقق من روايتها عن الرضاعة التي بينك وبين سليم؛ كيف تكتم أمراً كهذا؟

ـ ألا يمكنك يا أمي التحقق من الأمر دون حبسها؟ تعاقبينها لأنها قالت ما رأت؟

رد وجيه:

ـ تستحق الجلد.

ـ أرجوك وجيه، آمنة مربيتي ومرضعة والدنا.

أدرتُ ظهري وهممتُ بالخروج. علا صوت أمي:

ـ إلى أين؟

لم ألتفت. أغلقت باب المُربَّع ورائي. ركضت عبر أرض الديار قاصدة دور الخدم. صفع زمهرير الشتاء وجهي. وصلتُ غرفتها؛ قرعت الباب وحاولت فتحه. البابُ موصداً. ناديتها أن تفتح، أجابت بأن الباب مُقفل من

الخارج والمفتاح مع الحاج زكي.

ناديتُ على زكي؛ جاء مهرولاً، سألته أن يفتح الباب فقال بانكسار:

ـ لا أستطيع دون علم الست الكبيرة.

وتابع:

ـ لو علم سيدي وجيه بأني تجاوزت أوامر الست نظيرة سيكسر رقبتي.

ـ لا بأس.

تركته في مكانه ودرت حول غرفة آمنة فرأيت شباكاً صغيراً مرتفعاً. ركضت باتجاه المطبخ وأحضرت سلماً وضعته على الحائط. تسلقت السلم وسط دهشة الخدم الذين التمُّوا في هدأة المساء على توسلات زكي وصراخ آمنة من داخل الغرفة بأن أرحل. صرخوا ولطموا ورجوني، دون جدوى. وصلت إلى الكوة، دفعتها إلى الداخل فانفتحت. أدخلت رأسي وصدري ارتفعت بجسمي وتكورت، استندت على ركبتي وأدخلت ساقيَّ، أمسكت بطرف الكوة العلوي وجلست على حافتها. بخفة غزالة قفزت إلى الداخل. نزلتُ على فرشة آمنة القابعة تحت الشباك مباشرة.

تربعتُ على فرشتها ونظرتُ إليها بفرحٍ. تلمَّست دادا طريقها إلى حافة طاولة خشبية. تناولت فانوساً صغيراً وأشعلته. التفتت إليَّ:

ـ ستغضب الست نظيرة وسيدي وجيه؛ أصلحك الله يا ابنتي، أصلحك الله.

قمتُ إليها وتعلَّقتُ برقبتها:

ـ لا يهم، لن أغادر هذه الغرفة إلا برفقتك.

زفرت آمنة بحرقة وابتعدت. قصدت زاوية غرفتها وجلست على سجادة الصلاة التي كانت ممدودة. تبعتُها وجلستُ بجانبها على كرسي

صغير من القش. قالت:

ـ سأنتظر صلاة العشاء هي وشيكة وأنا على وضوء. يا رب سترك!

سمعنا جلبة في الخارج. انتصبت آمنة واقفة حملت القنديل وقالت بصوتٍ هامسٍ وبذقنٍ مرتجفة:

ـ الست نظيرة! اللهم أجرنا؛ لا حول ولا قوة إلا بك يا رب.

* * *

ما هي إلا لحظات حتى دار المفتاح في القفل.

فُتِحَ الباب. خطت أمي وخلفها أخي وجيه بِضعَ خطواتٍ في غرفة آمنة. سقط ضوء القنديل الذي تحمله آمنة على وجه أمي الغاضب. بادرتني بصوت آمر:

ـ قومي إلى غرفتك دون إبطاء.

ـ لن أخرج إلا ومفتاح غرفة آمنة في جيبي.

ـ أتعصين أمر الوالدة؟

ـ أنا لا أعصي الأوامر يا وجيه، أريد أن أعرف ماذا فعلت آمنة لتستحق العقاب؟

ـ هذا ليس شأنك.

ـ لم تخطئ دادا، هذا ظلم.

ـ ابقِ إذن في غرفة آمنة إلى ما شاء الله.

شدَّ وجيه على ذراع أمي، أدارها واستدار مغادراً.

صرخت آمنة:

ـ أرجوك يا سيدي وجيه، السماح، أرجوك، لا ذنب للست حورية.

أغلق الحاج زكي الباب. أدار المفتاح في القفل.

سمعتُ أمي وكأنها تحتج على وجيه رغم أني لم أفهم ما قالته.

وضعت آمنة القنديل على الأرض وتهالكت على فرشتها وأخذت تنوح. قمت من مكاني وجلست بجانبها. أدارت ظهرها وأخفت وجهها بيديها. أحطت عنقها بذراعي ودفنت وجهي بين كتفيها. هدأت.

ـ سأنام الليلة في حضنك يا جدتي.

استدارت بعد أن مسحت دموعها بستر رأسها. قبَّلت جبهتي.

ـ أصلحك الله. إليه أشكو همِّي وحزني.

ـ لا هم ولا حزن يا دادا، أين كتاب دلائل الخيرات؟ هاتِه، سنحيي ليلتنا وسأرتِّل لك الصلوات على النبي حتى طلوع الفجر.

تهلل وجهها، شدتني إلى صدرها:

ـ ليلة مُفْتَرَجة بإذن الله، يا حبيبي يا رسول الله. ننتظر صلاة العشاء. هل أنتِ على وضوء؟

ـ لا

ـ ننتظر حتى تأتينا مسرورة بالعشاء ونطلب منها ماجور الوضوء لك.

علا صوت أذان العشاء. صلَّت آمنة وسجدت طويلاً. انتحبت أثناء سجودها وتَضَرَّعَت إلى الله بصوتٍ متهدجٍ وروحٍ شقية تطلب العفو والمغفرة.

غرقتُ في أحزاني ولمتُ نفسي على العذاب الذي سببته لآمنة:

ـ دادا، ليتني مِتُّ قبل أن أسبب لك كل هذا الشقاء.

ـ أعوذ بالله، أمر الله يا ابنتي، أمر الله.

انتبهتُ من أحزاني على جلبة عند الباب. فتح زكي الباب، وقف وظهره لنا. دخلت سمحة تحمل على رأسها صينية كبيرة من النحاس تفوح منها رائحة الخبز الطازج غُطيَ وجهها بغطاء أبيض من الكتان. تبعتها مسرورة بصفيحة من القش عليها صحن فيه أرز ولحم وكأس فارغ وابريق

شاي صغير معفر بالسواد. وضعوا الصواني على الطاولة الصغيرة بجانب القنديل الذي تراقص ضوؤه الشاحب مع اهتزاز الطاولة ذات الأرجل القصيرة النحيلة.

نهضتُ من جلستي وصرختُ في سمحة:

ـ عودي بصينية العشاء إلى أمي، قولي لها آمنة لم تُذنِب ولا تستحق العقاب وقد حرَّمت حورية على نفسها الطعام والشراب حتى تخرج آمنة من حبسها. وأنتِ يا مسرورة، اجلبي لي ماءً للوضوء وثوب النوم وبطانية ومخدة من غرفتي، سأبيت الليلة عند آمنة.

علا الخوف والفزع وجه الخادمتين. هبطت مسرورة على الأرض تُقَبِّل قدميَّ:

ـ أرجوك يا سيدتي، لا نستطيع أن نعود إلى الست الكبيرة بالطعام ولا يمكن أن ندخل غرفتك ونلبي أوامرك دون إذنها. أتوسل إليك أن تعفينا من هذه المهمة.

أبعدتُ مسرورة عني، توجهتُ إلى الطاولة. حملت الصينية النحاسية الكبيرة وخرجت بها إلى زكي الذي كان يقف بجانب الباب مرتعشاً من شدة البرد؛ أمرته أن يعود بالطعام إلى المطبخ وأمليتُ عليه طلباتي. حمل الصينية بيدين مرتجفتين دون كلمة. استدرت، أشرتُ إلى سمحة بالخروج خرجت تتبعها مسرورة. صفقت الباب ورائهما.

سمعت المفتاح يدور في القفل من جديد.

التفتُّ ورائي، وجدتُ آمنة متربعة على سجادة صلاتها والمسبحة في يدها وقد سقط ظلُّ جسمها الهائل على الحائط. جلست تتلو ما تحفظه من القرآن بصوت هامسٍ، تهزُّ رأسها والحزن يجللها.

عندما فرغت، قامت إلى المنقل الذي خبا توهج فحمه ووضعت

إبريق الشاي على حافته ليبقى ساخناً. فتحت صندوقاً قديماً في زاوية الغرفة وأخرجت دثاراً صوفياً خشناً رمته على كتفيَّ قبل أن تجلس إلى جانبي على فراشها.

قالت:

ـ يا حورية، العناد لا يجدي مع الست الكبيرة؛ اعدلي يا ابنتي عن المبيت عندي. غرفتي باردة والليلة، والعلم عند الله، بيضاء.

ـ اسمعي يا دادا، ليلة بيضاء، ليلة سوداء، لا يهمني، لا أريد نقاشاً في هذا الأمر.

عادت مسرورة بالأغراض التي طلبتها وخرجنا بصحبتها. قضيت حاجتي وتوضأت في الملحقات المخصصة للخدم. عدنا إلى الغرفة. غادرتنا مسرورة بعشاء آمنة الذي لم تمسه. قبل مغادرتها وضعت على الطاولة القصيرة فنجاناً من الخزف الصيني قالت إنَّ أمي أرسلته لأشرب فيه الشاي! أمرتها أن تعود بالفنجان وتخبرها بأنِّي صائمة، ولو لزم الأمر، الدهر كله!

خرجت مسرورة تلملم حيرتها وتداري خوفها. استرقتُ النظر إلى وجه آمنة على ضوء القنديل الشاحب رأيتها تبكي. سالت دموعي حزناً عليها. مرت لحظات صمتٍ ثقيلة، كسرتها آمنة:

ـ يا ابنتي ...

ـ وفِّري كلامك يا دادا، لا أريد أن أسمع.

قمتُ إلى سجادة صلاة آمنة التي لا زالت ممدودة بعد أن أزحتُ بيدي سجادة الصلاة الحريرية التي جلبتها مسرورة لي. وقفتُ ووجهي إلى القبلة الشريفة، صَلَّيت.

دعوتُ الله في سجودي بقلبٍ خاشعٍ أن يغفر لي ولآمنة ولأمي

وأخي.

جلستُ على الكرسي القش الصغير قرب الطاولة وطلبت من آمنة كتاب دلائل الخيرات. أجابتني بصوت حار:

ـ اقرئي لنا سورة "ياسين"، يقال بأنَّها تفرج الهم وتشرح الصدر. صدري ضيِّق.

ـ لكني لا أحفظها.

ـ عندي منها نسخة. كتبها لي شيخي، الشيخ إدريس المبروك. والله يا ابنتي منذ اليوم الذي وضعت هذه السورة الكريمة تحت مخدتي رحلت عني الكوابيس التي كانت تقلق نومي كل ليلة.

ـ كوابيس؟ من أين تأتيك الكوابيس يا آمنة.

أطرقت ثم زفرت.

ـ آه يا ابنتي، لا يعلم بالعباد إلا رب العباد.

ـ هات سورة "ياسين"، سأُرَتِّلُها لكِ.

أشرق وجهها بفرحٍ طفولي. سحبت مجموعة من الأوراق من تحت مخدتها التي تنام عليها. وقفت بخفة، تهادت في مشيتها اقتربت وبركت أمامي على سجادة الصلاة.

أخذتُ الأوراق من يدها وتصفحتها. السورة مكتوبة بخط الرُّقعة على ورقٍ رديء؛ لا بأس، الخط واضح. قرَّبتُ الأوراق من ضوء القنديل وبدأت بالترتيل. عندما وصلت إلى قوله تعالى:

(*فاليوم لا تُظلم نفسٌ شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون*)

بكت آمنة كطفلةٍ صغيرةٍ وعلا نشيجُها. سكنتُ للحظات؛ هدأت.

تابعتُ الترتيل رغم الجوع الذي أعياني والبرد الذي نخر عظامي. حلقت بصوتي على أجنحة الرجاء فحملته ملائكة السماء إليه في علياءه.

حلَّت سكينة الإيمان والتسليم بقضاء الله في قلوبنا فأدفأتنا.

عندما انتهينا كان إبريق الشاي على حافة المنقل يقرقر وكأنَّه هو الآخر يُدفئ قلبه بتسبيح الخالق؛ للجمادات أرواحٌ يُمجِّدن بها الله بلغاتٍ لا نفهمها نحن البشر.

ملأت آمنة كأسها بالشاي وقدمته لي. رفضت.

ـ أنا صائمة ولن يدخل الزاد فمي حتى تصفح أمي عنكِ.

ـ يا حورية، أنا راضية بحكم الله. لا تُغضبي والدتك، مرضاة الأم من مرضاة الرب يا ابنتي.

ـ الله عادل لا يرضى الظلم.

ـ قومي يا ابنتي إلى الفراش، سنلوذ بلحافي السميك ولبدة الصوف هذه لدرء البرد. الليلة بيضاء، أعاننا الله عليها وأدفأ قلوبنا بذكره.

قمتُ معها. وضعنا بعض "الطواطي"[38] والمخدات على الحائط وأسندنا ظهرينا إليها. التصقتُ بها ووضعتُ رأسي على كتفها. أحكمت آمنة الغطاء حولي فتسلل دفء قلبها إليَّ.

ـ كيف كان أبي يا جدتي؟

ـ زينة الرجال. عمل مع والده ووسع تجارتهم. كان يتكفَّل بتأمين القمح والحبوب للانكشارية[39] في بلاد الشام وشمال الحجاز. كان كأبيه، آية في الكرم ورفعة الأخلاق. رحمهما الله.

ـ الانكشارية! لا وجود للانكشارية اليوم، اسمه الجيش والدرك.

ـ الانكشارية، هذا ما أعرفه.

ـ ما علينا. أين ابنتك التي رضعت مع والدي؟

ـ لم ترضع معه، ماتت.

ـ ماتت؟

ـ أثناء الولادة. رضيَّة، العبدة التي ساعدتني عندما جاءني المخاض، قالت أنَّ الطفلة نزلت من بطني لا روح فيها رغم أني سمعت بكاءها. قالت بأنني أنجبتها مسخ.

ـ مسخ؟

ـ يعني طفلة خلقتها غير كاملة والعياذ بالله. أسميتُها "خضرة" لأنه لا يجوز دفن المولود دون اسم.

ـ ماذا فعل زوجك عندما عرف بخبر المولودة؟

ـ زوج! ليس للعبدة زوج.

ـ لا زوج لك! من أين أتت خضرة؟

ـ آه، القصة طويلة.

ـ وليلتنا طويلة، احكِي لي.

عدَّلت آمنة من جلستها؛ تربَّعت. أرخت كتفيها وبدأت أصابعها تطوي حبات مسبحتها الألفية الطويلة. سقط ضوء القنديل على وجهها.

لم أرَ حزناً في حياتي كالذي رأيته في عينيها تلك الليلة.

قالت:

ـ قدمني تاجر كبير هدية لجد والدك. كنت جاريةً صغيرةً وكان هو شيخاً قارب الثمانين. عاشرتُه بضع سنوات. مات الشيخ قبل ولادة خضرة ببضعة أسابيع.

ـ رجل في الثمانين يعاشر طفلة؟

ـ عبدة يا ابنتي.

ـ عبدة أو حرَّة كنتِ صغيرة وكان هو شيخ تقولين في الثمانين.

ـ رحمه الله.

ـ وُلِدَتْ خضرة في بيتنا هنا؟

ـ لا، لا. أرسلني ابن الشيخ البكر بعد موت أبيه إلى بيت أخته السيدة أسماء رحمها الله. جاءني المخاض في بيتها وتعسَّرت ولادتي. ماتت ابنتي هناك. أعادوني بعد يومين إلى القصر الكبير ثم انتقلت للعيش عند جدك، والد والدك رحمهما الله، في هذا البيت بعد أن باعوا الأراضي التي أحاطت بالقصر واقتسموها. كان جدك رجلاً طيباً وكذلك زوجته، عاملوني بما يُرضي الله.

ـ شهدتِ ولادة أبي؟

ـ لا لم أشهدها. عندما انتقلت إلى بيت جدك كان عبد الماجد صغيراً، يحبو. رأيتُه فطفح ثديي بالحليب. أشفقت عليَّ جدَّتك وسمحت لي بإرضاعه. أرضعتُه. لم يكن يغادر صدري لا ليلاً ولا نهاراً. الحمد لله الذي عوض صبري ولطَّف فجيعتي بأبيك.

ـ مهلاً يا دادا، أنت إذن جدتي فعلاً، كنتِ زوجةً لوالد جَدِّي وأنجبتِ لجدي أختاً ماتت صغيرة.

ـ عبدة يا ابنتي، عبدة.

ـ لا يا آمنة، العبدة تصبح حرَّة إذا حملت وأنجبت مِنْ مَنْ يملكها ووليدها حرٌّ يحمل اسم أبيه، هي ووليدُها يرثانه، هذا هو الشرع والقانون المعمول به في أنحاء البلاد الإسلامية.

ـ لا تُقلِّبي عليَّ المواجع يا حورية.

ـ أية مواجع؟ كيف تجرؤ أمي على معاملتك هذه المعاملة المهينة.

ـ لا تشغلي بالك. لنخلد إلى النوم.

ـ لا يا آمنة، انتظري، أين ميراثك من زوجك الشيخ، والد جدي؟

ـ ليس لي ميراث، يكفي أنهم ستروا عليَّ!

ـ ستروا عليك! بل أنكروا عليك حقِّك يا آمنة.

ـ اخفضي صوتك، أريد أن أقضي بقية عمري مستورة.

ـ سأخبر أمي وأخي بحكايتك.

ـ لا، لا يا ابنتي، لا تخبري أحداً. طُوِيَتْ صفحة تلك الأيام من زمنٍ بعيد.

ـ حقك يا آمنة، يجب ألَّا يضيع.

ـ لا حق لي يا حورية. أنا عبدة.

ـ كيف؟

ـ اسمعي يا ابنتي، كان للشيخ الكبير عادات غريبة. عندما يرغب بمضاجعة إحدى عبداته كان يناديها إلى غرفته، يجلدها حتى يسيل دمها ثمَّ يضاجعها.

ـ أين زوجته؟

ـ لا نعرفها، ماتت قبل أن يملكنا. لم يتزوج بعد موتها اكتفى بنا، كنا ثلاث عبداتٍ وكنتُ أصغرهن.

ـ ولماذا الجلد والضرب؟

ـ لا أدري يا ابنتي، لا أدري. لم أعانده أو أتمنع عنه يوماً؛ كان ضربه مبرحاً ولم أكن أجرؤ حتى على البكاء في حضرته.

ـ حضرته، هل جُننت يا آمنة؟

ـ لو عرفتِه لفهمت ما أقول. كنتُ طفلةً صغيرةً، أصغر منك يا حورية، ابنة تسع أو عشر سنين وهو شيخ كبير قارب الثمانين؛ كبيرٌ في السن والمقام. من يتجرأ على الشيخ؟

ـ رجلٌ متوحش.

ـ سامحته يا ابنتي، سامحته.

ـ سامحته! على أذيتك!

ـ يا حورية، أنا عبدة، والعبدة غير الحرَّة.

ـ عبدة أو حرَّة، الرب واحد. ثم، لماذا تقولين عن نفسك أنك عبدة؟ أنت حُرَّة.

ـ لا يا ابنتي، أنا بين بين.

ـ بين بين؟

ـ عندما كنت ملك يمين الشيخ الكبير، أحبني بخيت، هو عبد مثلي، وبادلته الحب. كان بخيت يكبرني ببضع سنين، أمه نورِيَّة.

ـ نورِيَّة! العجوز العمياء التي زرناها في تكية الشيخ محيي الدين؟

ـ نعم، لم تكن عمياء، كانت زادي وملاذي من الألم والمهانة التي كانت تلحق بي في القصر الكبير. تحنو عليَّ تُضمد جراحي، تُطعمني، وتُهون عليَّ الرعب والخوف الذي كنتُ فيه. عندما مرض الشيخ وقالوا إنَّه على فراش الموت، وسَّطتْ أم بخيت، جدك ليسأل والده الشيخ أن يستر عليَّ قبل وفاته ويوافق على زواجي من ابنها. لا ندري ماذا جرى، اختفى بخيت بعدها بأيام. عندما سألت نورِيَّة عن ابنها، نصحها جدِّك بأن لا تذكر اسمه. عرفنا بعدها أن الشيخ وهب بخيت لقريب له يعيش في حلب لإبعاده عني.

ـ هذا ظلم وإجرام!

ـ بكيتُ بخيت وبكيتُ فجيعة أمِّه فيه حتى جفَّت دموعي.

ـ وهل مات الشيخ؟

ـ أبداً، كان مرضه كصحوة الموت كما يقولون؛ استعاد صحته وعاد إلى سيرته الأولى. يطلبني، يضربني، ثم يضاجعني. قاربتُ الموت من الضرب. استمر حالي معه على هذا المنوال لسنتين أو أكثر.

ـ وحملتِ منه وأنت لم تتجاوزي الثانية عشرة من العمر!

ـ إرادة الله. هَزُلَ جسمي ولم يعد لي شهية للطعام سألتني نورِيَّة عن حيضي، أخبرتها بأنَّه انقطع عني. قالت لعله خير. لم يكن خيراً يا ابنتي، كان وبالاً عليَّ وعليها.

ـ لماذا؟

ـ عندما تكور بطني تأكدت نورِيَّة بأني حامل، أخبرت جدتك التي أخبرت زوجها. مرض الشيخ مجدداً وقد قاربتُ على الوضع. بقي على فراش الموت عدَّة أسابيع. أحضروا له الأطباء والشيوخ دون فائدة. صرنا ندعو له أن يخفف الله عنه. ليلة وفاته، جاءنا ابنه البكر في دار الخدم. كان رجلاً قوياً وقاسياً كأبيه. نادى عليَّ وعلى نورِيَّة. اتهمنا بالسحر وبدسّ السُّم لأبيه واتهمني أنا بالفاحشة، قال مُتوعداً "الطفل الذي في بطنك من بخيت"! ركعتُ على قدميه وأقسمت له بكتاب الله أن بخيت لم يلمسني. لم يلمسني رجل في حياتي سوى الشيخ! لم يصدِّقني. أخذ يركلني بقدميه.

ـ ما هذه الوحشية!

ـ تصدت له نورِيَّة وقالت مضى على اختفاء ابنها أكثر من سنتين فكيف أحمل منه؟ عندما حاولت نورِيَّة حمايتي بجسدها خوفاً عليَّ من الإجهاض، أخذ يركلها هي الأخرى. ضربنا ليلتها حتى أسال دماءنا. خبط رأس نورِيَّة بالحائط فسبب لها العمى. قال لنا قبل أن يغادرنا إنَّ والده عقيم ولا يُنجب!

أطرقت آمنة لثواني، مسحت دمعها الذي جرى لذكر نورِيَّة، تابعت:

ـ لولا تدخل جدِّك رحمه الله في تلك الليلة لكنت ونورِيَّة في عداد الأموات.

ـ أين المرأة التي ساعدتك على الولادة يا جدتي؟

ـ رضيَّة، كانت حينها عجوزاً؛ ماتت بعد ولادة ابنتي بأشهر قليلة.

ـ يا إلهي، رحمتك.

ـ الله رحيم يا ابنتي، رحيم. نامي، نامي. سأطفئ القنديل.

ـ دعي القنديل يا آمنة، سأطفئه أنا قبل أن أنام.

ـ الليل انتصف.

ـ نامي أنتِ. تصبحين على خير.

ابتسمت رغم حزنها فلمعت أسنانها في عتمة الليل؛ مالت برأسها قرب أذني وهمست:

ـ ليس قبل أن أهدهدك!

عدلت غطاء رأسها، قرَّبتني إليها بحنانٍ لا تعرفه إلّا الأمهات. مدت ذراعها وأحاطتني:

ـ "*أوها يا حورية يا شمسة، يا غاطسة بالذهب غطسة* ..."

وضعتُ رأسي المتعب على صدرها:

ـ دادا، كيف احتمل قلبك كل هذا العذاب؟

ـ يُبْلي ويُعين يا ابنتي؛ يُبْلي ويُعين، ألم يقل أنَّ رحمته واسعة؛ عوضني بنعمة إرضاع والدك. كبر عبد الماجد في حضني كما لو كان ابني.

لاح بريقٌ فَرِحٍ في عينيها، اعتدلت في جلستها؛ أكملت:

ـ عندما عاد من الأزهر الشريف، جاء إليَّ في غرفتي ليبشرني بنجاحه؛ جاء لي أنا قبل أن يدخل على والديه؛ حملني، "أي" والله، حملني من فرحته وقال أنَّه نجح بفضل بركات دعائي له.

التمعت عيناها، أمسكت بذراعي وشدَّت عليها، تابعت بصوتٍ خافتٍ حتى لا يسمعنا أحد:

ـ عندما نوى الزواج، أصرَّ أن أذهب مع والدته، لأرى العروس، الست نظيرة؛ رأيتُها، جميلة، كما هي اليوم، قلت له "عروستك يا عبد الماجد

بهية كالشمس وبيضاء كالثلج" احمرَّ وجهه خجلاً؛ كان رحمه الله تقياً ورعاً.

تابعت:

ـ أتعلمين، يوم فرحه رآني أقف بعيداً. قام من مكانه، أمسك بيدي، ومشى بي حتى أجلسني مُقابلة له، في الصف الأول مع المدعوات! آه يا ابنتي، رقصت له يوم فرحه كما لم أرقص في حياتي. شوقي له لا يوصف، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

غلبتها دموعها فمسحتها بستر رأسها، نظرت إلي وابتسمت بعد أن أمالت رأسها ورققت صوتها:

ـ ثمَّ وُلِدتِ أنت، حورية الحوريات، نور للعين وبهجة للقلب. أنتِ نسخة عن والدة عبد الماجد رحمها الله. كان لا يحلو لوالدك أن يبدأ يومه إلا بك. أحملك إليه باكراً ليتصبح بك. كانت أياماً هانئة. رحمة الله واسعة يا ابنتي، تبارك اسمه.

تهدَّج صوتها من جديد:

ـ لا أطلب من الله إلا أن يمد لي عمري لأطمئن عليك وأرى ذريتك قبل أن أموت.

ـ العمر الطويل لك يا جدتي.

غمرتني بساعديها وقبَّلت جبهتي. استلقت على جنبها الأيمن استعداداً للنوم، كان ظهرها لي، ربتُّ عليه بحنان:

ـ قلّبتُ عليك المواجع، سامحيني.

ـ لا ذنب لك يا ابنتي، هو قضاء الله وقدره. تأخر الوقت، نامي. ستأتي مسرورة قبيل صلاة الفجر لإيقاظي كما اعتادت.

مسحتُ على كتفها بيدي وقبَّلتُ رأسها. سمعتها تُتَمتِم بأدعية مهموسة وتتضرع إلى الله أن يغفر لها.

ابتسمتُ بأسى، إذا لم يغفر الله لك يا آمنة، فلمن عساه يغفر؟

سبحانه...

حائرةً استلقيتُ بجانبها، فكرتُ بأبي. آه يا آمنة، لو كان أبي حياً لسطَّر القدر لنا حياةً أخرى.

شحب ضوء القنديل بعد أن ترنح مودعاً ثم ذوى.

لعقني النعاس برفقٍ، تلمَّظ، ثمَّ ابتلعني.

نمت.

لن نفترق

خططتُ لعارف اليوم رسالتي الخامسة والأخيرة بالفرنسية. سيكون لقاؤنا قريب، لقاءٌ لا فراق بعده ...

* * *

الثلاثاء، ١٥ صفر ١٣٢٩[5]

حبيبي،

فرغت لتوي من قراءة رسالتك التي حملتها جوزفين إليَّ. نبضات قلبك التي كانت حاضرة مع كل كلمة سطرتها لي ملأتني دفئاً وشوقاً. كم أفتقدك وكم أنا بحاجة إليك. غيابك يجعل روحي هائمة في فراغ؛ متى ألقاك؟

فرحتُ لنتائج امتحاناتك، بل طار قلبي إليك يحمل أحرّ التهاني. طبعاً أنت دائماً معي؛ هل يمكن أن تفارق الروح الجسد؟ أراك كما تراني وأناجيك كما تناجيني. أقسم بأني أشعر بحرارة أنفاسك وأسمع نبض قلبك كلما فاض بي الشوق إليك.

أؤكد لك بأن صفحة ابن خالي سليم قد طُوِيت. أمي التي أغلقت عينيها وصمَّت أذنيها عن معاناتي طوال فترة حبسي تقبَّلت، على مضض، رواية آمنة. نظرات الشك والاتهام التي ترمي بها آمنة من وقتٍ لآخر تُخيفني. لا أريد لآمنة المسكينة المزيد من الألم فقد نالها الكثير من الظلم الذي يعجز البيان عن وصفه. سأروي لك قصتها عندما نلتقي.

استقبلتُ بفرحٍ لا يوصف التلغراف الذي وصلنا من القدس عن خبر زيارة والدك لدمشق منتصف الشهر القادم بصحبة الأهل. يُرتِّب خالي وأخي وجيه استقبالاً رسمياً حافلاً للترحيب به؛ ليتك تكون حاضراً.

---

5 الموافق ١٤ شباط، فبراير ١٩١١.

صحف دمشق مليئة بأخبار لا تسر عن اضطرابات شديدة في فلسطين. أنا قلقة رغم أن خالي يؤكد أنَّ الجهود التي يبذلها والدك لإعادة الاستقرار هناك تأتي ثمارها.

يُحزنني أن أُخبرك بأنَّ جوزفين قد قررت الرحيل عن دمشق في بداية الشهر القادم. قالت بأنها تنوي القيام برحلة إلى أوروبا بصحبة أصدقاءٍ لها ولا تنوي العودة. حزينةٌ أنا لفراقها لكن ما يُعزِّيني قرب لقائنا.

أحبك وشوقي لك لا يوصف.

إلى أن نلتقي، كُنْ في رعاية الله.

المُحِبَّة المُخْلِصة

حورية

في أحضان جدتي (2)

دمشق - نيسان، أبريل، ١٩٦٠ ميلادية

هو قضاء الله

صحوتُ على مداعبة جدتي لجبهتي. اعتدلتُ في سريرها الذي لا زال مفروشاً بالصور التي بعثرتها.

ـ جدتي، أين العمة حورية؟

ـ في الجنة.

ـ ماتت!

ـ توفيت في حلب، كانت في ريعان الصبا.

ـ في حلب!

ـ لا وقت لدينا يا ست البنات. الحمام ساخن، سنغتسل بسرعة. هيَّا، أم أيسر في انتظارنا.

ضحكتُ في سرِّي من عبارة "سنغتسل بسرعة"! اغتسالنا، حسب المنهج الذي نتبعه في الاستحمام يستغرق ساعتين أو أكثر، نَتَنَقَّل خلالها بين غرفٍ ثلاثٍ في مواقيتٍ محددة لا تقبل التعديل.

* * *

تدخل جدتي حمام بيتها تحمل "بقجة" كبيرة بيضاء مطرزة الأطراف كانت قد حضَّرَتْها في الصباح الباكر تمهيداً لعملية قشط جلدنا، عفواً، اغتسالنا. تضع في هذه "البقجة" أو الصرَّة كمَّاً هائلاً من المناشف البيضاء المطرَّزة، بعضها كبير والآخر صغير، غيارات داخلية وثياب نظيفة، مشابك لشعرها، شرائط لضفائري، مشط صغير، قارورة عطرها المفضل "Soir de Paris". عندما يحين الوقت وتتأكد من سخونة الهواء بوضع يدها على زجاج الغرفة الأخيرة لحمامها، تدفعني أمامها لأدخل بسلِّة صغيرة فيها

كيس خشن لفرك الجلد، ليفة استحمام خشنة لها وأخرى ناعمة لي، صابونة غار، صرَّة صغيرة من قماش الكتان بحجم الكف تفوح منها رائحة الترابة الحلبية، كيس قطن طبي، ثلاث قوارير صغيرة تحتوي الأولى على ماء الورد، الثانية على زيت اللوز، والثالثة على مزيج من الغليسرين وعصير الليمون.

تشتري السيدة المسؤولة عن تهيئة الحمام في بيت جدتي حاجيات الاستحمام هذه من دكان "برو" العطار في نزلة زقاق القرماني. تعبيراً لها عن امتنانها، تنقدها جدتي أضعاف ثمن مشترياتها. أم أيسر، وهذا اسمها رغم أنها لم تُنجب، تعيش وحيدة في غرفة صغيرة استأجرتها في آخر الحارة. مات زوج أم أيسر من سنين وتبعته والدته. خلَّفوها وراءهم دون مُعين. كانوا من التركمان الذين هاجروا واستقروا في دمشق في أواخر القرن التاسع عشر.

* * *

أدخل وجدتي غرفة الحمَّام الأولى الدافئة ونجلس متقابلتين على دكتين خشبيتين ضيقتين. نأخذ في خلع ملابسنا على دفعات. عندما تتأكد جدتي من أنَّ حرارة جسمي أصبحت معتدلة، ولا أعرف كيف تقرر اعتدال حرارتي، تخلع عنِّي بقية ملابسي وتحيط خصري وخصرها بمنشفة، الصغيرة لي والكبيرة لها، هكذا تقول. وضع المناشف يعني أن موعد دخولنا إلى الغرفة الثانية الدافئة والمُظلمة قد حان؛ ندخلها بعد أن نلبس في أقدامنا قباقيب عالية، لها سيور ذهبية وحوافي خشبية ملونة ومنقوشة.

تُغلق جدتي باب هذه الغرفة الخشبي وراءنا بإحكام، تتلمَّس بحذر الجدار في الظلام إلى نهايته وتنير مصباح كهرباء الغرفة الثالثة.

الغرفة الثانية أشبه بسقيفةٍ خشبية مرتفعة منها إلى غرفة، سقفها

واطئ وهي مفتوحة بكُلِّيَتِها على الغرفة الثالثة الحارَّة، غرفة الاستحمام.

تُغطي أرض الغرفة الثانية ألواح خشبية سميكة متصالبة بينها فتحات مُربَّعة منقوشة الأطراف بحجم كف اليد تمكِّن الناظر عبرها من رؤية أرضية غرفة الاستحمام الرخامية التي تمتد تحتها.

تتهادى جدتي بحذر بقبقابها لتهبط درجة صغيرة تؤدي إلى الغرفة الثالثة، غرفة الاستحمام، وتفتح صنابيرها النحاسية الثلاث. تجري مياه ساخنة في جرن رخامي واسع، وتتدفق منه بغزارة على أرضية الغرفة حاملة إلينا عبر فتحات الأرضية التي نجلس عليها سحباً كثيفةً من البخار. تتمدد جدتي على دكةٍ خشبيةٍ وأجلس أنا مقابلها على كرسي صغير من القش. تغمض عينيها وتسترخي؛ أُقلِّدها. تنتظر بعض الوقت حتى تتعرق. أنا لا أتعرق لأنني نحيلة وصغيرة، هذا ما قالته لي يوماً.

نقضي قرابة الساعة في رحم هذه الغرفة الضبابية الحارة. عندما تشعر جدتي بأنها أصبحت جاهزة للدعك، تقرع جرساً صغيراً لاستدعاء أم أيسر التي تهرع بثوبٍ قطنيٍ قصير تطوي أكمامه بسرعة كاشفةً عن ساعدين أشبه بسواعد المصارعين. تبدأ عملها؛ حفلة فرك وقشط لجلودنا!

أخرج وجدتي عند انتهاء اغتسالنا ببشرة حمراء كالشمندر يُلطِّف احتقانها ماء الورد وزيت اللوز. وجوهنا مهترئة غارقة في مزيج من الغليسرين وعصير الليمون.

لا أشتكي من حرقان جلدي خوفاً من أن تعاود أم أيسر دعكي وفركي.

قبل مغادرتنا الحمام، تفتح جدَّتي قارورة عطرها الفرنسي، تضع القليل منه في كفها، تغمس رؤوس أصابعها فيه وتوزعه بنقراتٍ خفيفة على خديها، جيدها، خلف أذنيها، ولا تنسى تعطير فتحة صدرها.

أمدُّ لها كفِّي.

ـ عَيْب، لا زلتِ صغيرة.

أخجل من فعلتي رغم حبِّي لرائحة عطرها. أكتفي بعطر الترابة الحلبية ورائحة صابون الغار الذي يتضوَّع من شعري.

نتوجه إلى "الصالية" بانتظار انتهاء أم أيسر من تحضير وجبة غداءنا.

تنشغل جدتي بتضفير شعري، تعقد ضفائري بشرائط حمراء على طرفي وجهي، وتغني:

....

"أوها انتِ ست البنات

أوها وسكر النبات

أوها يا شمعة كل الصبيان

أوها انتِ ست البيت

أوها وكوز الزيت!"

....

ـ كوز الزيت؟

تضحك:

ـ الجواب عند آمنة مربية حورية، رحمها الله.

أسكت رغم حيرتي.

تُقرِّبني منها، تقبل وجنتيَّ بغبطة. تشم رائحة رأسي:

ـ الله، نعيماً يا ست البنات.

أقبل يدها وجبهتها.

تطلُّ ابتسامتها الوديعة من عينيها اللوزيتين فأنسى حيرتي وحرقان جلدي.

* * *

أنهينا غداءنا اليوم، وغادرتنا أم أيسر ببقايا الطعام. غَسَلَت الأطباق وحوائج السفرة الفضِّية وأعادتها إلى مكانها. أقفلت جدتي الباب الخارجي بالمزلاج بعد أن نقدت السيدة أجرها وزادت عليه بسخاء.

صعدنا إلى الدور العلوي بعد زيارة إخوتها وتوجهنا إلى غرفة نومها. خلعتُ عني ملابسي وارتديت قميص النوم القطني استعداداً لقيلولة ما بعد الظهيرة. وقفتُ أنتظر فراغها من صلاة العصر.

ـ جدتي، هل تعرفين حلب؟

ـ لا، لم أزرها ولا أنوي زيارتها.

ـ لماذا ذهبت العمة حورية إلى هناك؟

ـ نصيبها.

ـ ماذا يعني "نصيبها"؟

ـ تزوجت عارف، ابن سامي بك، ابن عَمِّة أبي. غادرت معه بعد زفافها للإقامة في إستنبول.

ـ قُلْتِ حلب!

ـ غادرت إستنبول لتستقر في حلب. كُلِّف زوجها بالعمل هناك.

ـ ألم تريها بعد زواجها؟

ـ زارتنا بعد استقرارها في حلب مرّة واحدة. جاءت بقطار السكة الحديد بصحبة مربيتها آمنة. كانت سعيدة. توفيت بعد أشهر قليلة من زيارتها لنا، كانت حامل عندما توفيت.

دمعت عينا جدتي وارتجفت ذقنها، تابعت:

ـ أصابها الوباء الذي ضرب حلب حينها، يُسمونه "الهواء الأصفر". رحمها الله. دُفِنَت حسبما قيل لنا مع مربيتها في قبرٍ واحد. جُنَّ زوجها المسكين بعد وفاتها. غادر إلى أوروبا بصحبة والدته للاستشفاء هناك.

ـ هل شُفي؟

ـ لا أعرف، انقطعت أخبارهم عنا بعد الحرب.

ـ أي حرب؟

ـ الحرب الكُبرى. كفى ثرثرة؛ نامي.

عدَّلَت المخدة تحت رأسي وأحكمت غطاء السرير حول رقبتي. قبَّلت جبهتي.

- نامي.

حاولتُ أن أجلب النوم لعينيَّ دون جدوى.

جدتي أيضاً لم تنم. تمدَّدت بجانبي تُقلِّب في الصور.

أزحتُ الغطاء عني ونهضتُ.

ـ جدتي... أنتِ تبكين!

مسحت دموعها بظاهر كفِّها.

ـ أبداً؛ عودي إلى النوم.

ـ هل تعرف أمي عمَّتها؟

ـ لا. لا يعرفها أحد من أولادي، مضى على وفاتها قرابة الخمسين سنة. رحلت قبل أبي.

ـ لو تزوجت الخال سليم، ولم تذهب إلى حلب!

ـ إرادة الله.

ـ أو، لو تزوجت من عارف وعاشت في القدس!

ـ القدس! حسرة على القدس. ترك سامي بك القدس وعاد بعائلته

إلى إستنبول بعد أسابيع قليلة من فرح ابنه على حورية. كان غضب السلطان قد بلغ ذروته فقرر طرد حاكم القدس ظُلماً. ترك سامي بك منصبه احتجاجاً على الظلم الذي لحق بعزمي بك.

ـ ولماذا يغضب السلطان؟

ـ مؤامرات ووشايات تحاك في دهاليز القصور والسرايات وتُنفَّذ بإحكام لتشغل الناس عن مخططات الغرب لتوطين اليهود الصهاينة في فلسطين. كانت الدولة العلية في مأزق. حفر لها الغرب قبرها، فانزلقت فيه بغباء ودون وعي بمساعدة الأنواع الخسيسة من البشر. تآمروا لتدميرها، هذا ما كان يقوله جدك، رحمه الله. لم يعرفوا لجهلهم وقلة وعيهم أنَّ خرابها يعني خراب بلادهم ومستقبل أطفالهم!

انتقت جدتي من بين الصور صورة لثلاثة أشخاص يقفون باللباس الرسمي أمام مبنى قالت إنَّه مبنى السراي. ناولتني إياها.

نزلت عن سريرها ومشت نحو "البيرو". سكبت لنفسها كوباً من الماء من إبريقٍ زجاجي صغير. حملت الكأس والتفتت ناحيتي:

ـ ماء؟

ـ لا، شكراً.

شرِبت.

ـ الحمد لله.

ـ هنيئاً.

ابتسمت عيناها.

عادت للجلوس على الأريكة الصغيرة المحاذية لسريرها.

ـ في هذه الصورة يا جدتي والدك رحمه الله وبجانبه سامي بك باللباس العسكري.

ـ صحيح.

ـ مَن الثالث؟

ـ عزمي بك. حاكم القدس.

ـ ظننتُ سامي بك هو الحاكم!

ـ كان قائد المنطقة العسكري.

قرعت بكفها على الأريكة تدعوني للجلوس بجانبها.

طرتُ إليها والصورة في يدي؛ حشرتُ نفسي في خاصرتها وأرحتُ رأسي عند منبت ذراعها.

نظرتُ إليها برجاءٍ أن تُكمِل.

لاح في عينيها بريق الذكريات؛ ستحكي.

ما أجمل أن تدب الحياة في صندوق "الحكايا" وتعود فاضلة صبية صغيرة يملأ الحب قلبها؛ تصرف أمسيات فجر صباها تداعب أوتار العود وتبثُّه أشواقها وأحزانها.

فاضلة

دمشق، ١٩١١ - ١٩٢٠ ميلادية

أخبار القدس لا تسرّ

وصل سامي بك في زيارةٍ شبه رسمية إلى دمشق مع بداية الربيع مصطحباً والدته وزوجته وابنته.[6]

أقام والدي ترحيباً بزيارته حفل استقبال رسمي حضره حشدٌ كبير من كبار موظفي الدولة ومشايخها وعلمائها وكبار تجار دمشق وأعيانها.

طلب سامي بك في الأيام الأولى من زيارته يد حورية لابنه عارف.

لاقى طلبه الترحيب والقبول اللائق وغمرت بهجة الأفراح الأجواء من حولنا.

قرأ رجال العائلة الفاتحة وطارت الأخبار إلى عارف في إستنبول الذي جاء على وجه السرعة إلى دمشق لملاقاة محبوبته.

اتفق الرجال على إقامة حفل عقد القران في منتصف الشهر القادم في دمشق وإقامة حفل الزفاف في القدس. طلب عارف من والدي وزوجي اصطحاب حورية معه إلى فيينا بداية هذا الصيف لإتمام دراسته هناك.

اعترضت عمتي؛ الوقت غير كافٍ لتجهيز ابنتها الوحيدة! حاولت أن تُقنع سامي بك وزوجته بإقامة الفرح بداية ربيع العام القادم. لم يلق اقتراحها أذناً صاغية خاصةً من عمتها حكمت خانم التي وقفت في صف عارف وحورية لإتمام مراسم الزواج في بداية الصيف. رضخت عمتي المسكينة تحت إلحاح عمتها وضغط إكرام خانم زوجة سامي بك وإصرار عارف وحورية.

6 في ١١ ربيع الأول ١٣٢٩ هجرية الموافق ١٢ آذار، مارس ١٩١١ ميلادية.

بدأت استعداداتنا المحمومة لتجهيز العروس.

لم يمضِ على زيارة سامي بك لدمشق أربعة أسابيع حتى اضطر للعودة إلى القدس تاركاً عائلته في ضيافة والدي. سافر على وجه السرعة قبل حفل عقد قران ابنه بأسبوع لإجهاض عملية تعبئة وتهديد بالإضراب شملت القدس وكادت تمتد إلى ما جاورها. تابع والدي مستجدات الأحداث من دمشق ونقل إلينا الأخبار القادمة من هناك أولاً بأول. دارت الأحاديث في اجتماعاتنا عن أخبار الانتهاكات السافرة للمقدسات الإسلامية التي يُمارسها البعض من الأجانب المهووسين بالتنقيب عن الآثار والكنوز في القدس الشريف.[40]

* * *

عاد سامي بك إلى دمشق مطلع الأسبوع الماضي لحضور عقد قران ولده عارف على حورية.

أُقيم لهذه المناسبة السعيدة حفلٌ كبيرٌ.

جموعٌ غفيرة جاءت إلينا من تركيا ومن أنحاء بلاد الشام تلبية لدعوة والدي وزوجي وسامي بك لحضور حفل عقد القران. عشرات الرسائل وبرقيات التهنئة وصلتنا من إستنبول، بغداد، الموصل، حلب، القاهرة، الناصرة، القدس، وبيروت تبارك للأهل وتتمنى للعروسين حياةً زوجية هانئة.

أخي سليم لم يحضر.

رفض رؤية حورية منذ أن سلَّمه محمود رسالتها.

قتلت حبَّه، فدفنها حيَّة.

كان أقصى أمانيها أن يُسامحها ويُبارك زواجها.

ليته فعل.

* * *

تربط والدي ومصطفى باشا العابد، أحد أعيان مدينة دمشق، أواصر صداقة عميقة تعود إلى أيام دراستهما في إستنبول. امتدت أواصر هذه الصداقة لتشمل والدتي رحمها الله وعمتي نظيرة وفريدة خانم زوجة مصطفى باشا. نشأنا نحن أبناء وبنات العائلتين وكأننا إخوة وأخوات رغم ظروف العمل والسفر التي كانت تضطر مصطفى باشا للغياب عن دمشق أشهراً طويلة تاركاً زوجته وأولاده لمتابعة دراستهم تحت عناية ورعاية والدي ووالدتي رحمها الله.

فريدة خانم، سيدة جادَّة ومثقفة وكذلك بناتها وأبنائها. تربيتُ وإخوتي بصحبتهم فكانوا لنا نعم الرفقاء وخير الأصدقاء. نازك[41]، ابنة مصطفى باشا العابد الأقرب إليَّ سناً والتي يُسميها والدي تحبُّباً "أيقونة آل العابد"، فتاة مُتعلمة ومُتنورة كإخوتها وأخواتها إلا أن الله قد حباها بشجاعة سخَّرتها للاهتمام بشؤون المرأة. تخوض نازك برَوِيَّة وفصاحة في الندوات العامَّة وعلى صفحات المجلات في المواضيع التي تهم المرأة العربية في مجتمعاتنا. تنشر الوعي بين صفوف من يُتابعها عن ضرورة المُطالبة بالتعليم الالزامي للأولاد والبنات على حدٍ سواء وتراه الحل الوحيد لنهضة البلاد خاصة لنهضة المرأة التي تربي أجيال الأمة. تُريدها نهضة علمية معرفية تبني مجتمعات متقدمة تحترم الدستور وتصون كرامة الفرد وحريته.

* * *

أقام مصطفى باشا العابد في قصره في حي المهاجرين مأدبة كبيرة احتفالاً بعقد قران حورية وعارف والتي كان شاهداً عليه.

لبَّت العائلة دعوته بسرور وقضينا في ربوع قصره المنيف أمسية لطيفة.

استمعنا أثناء استراحتنا في بهو القصر الكبير قبل العشاء لمقطوعات غربية عزفتها فرقة موسيقية صغيرة رافقتهم فيها نازك بالعزف على البيانو. استقرينا بعد مأدبة العشاء الحافلة في غرفة الاستقبال الرئيسية.

تجاذبنا في جلستنا الحديث عن أهمية الفن في ثقافة المجتمعات وتشعَّب الموضوع ليشمل الموسيقا والمسرح. تكلمت نازك ودعمها عارف وأُختها مُسِرَّة عن ثراء الموسيقا الغربية وتنوع وجمال آلات عزف سيمفونياتها الشهيرة وتحدثتُ أنا ودعمتني حورية ووالدي نوري باشا عن سحر الموسيقى العربية وخفايا مقاماتها وبديع ألحانها. أسهبتُ لهم في وصف آلة العود التي أعشقها وبهاء الأنغام التي تئن بها أوتارها والتي لا تضاهيها في دقة أدائها أي آلة موسيقية أخرى. فاجأني مصطفى باشا بأن طلب مني أن أعزف لهم بعضاً من الألحان التي أحفظها على عودٍ طلب بإحضاره. قال بأنَّه سمع من بناته وأبنائه عن منتدى الثلاثاء الذي نعقده أنا ووجيه في بيتنا مطلع كل شهر قمري وعن جمال وعذوبة الألحان التي أعزفها على العود ويستمتع بها ضيوفنا. لبيتُ دعوته بعد أن تلقيتُ ايماءة الرضى من والدي وابتسامة التشجيع من زوجي.

اخترتُ للعزف المنفرد على العود مقطوعة صغيرة على مقام بياتي وأخرى على مقام نهاوند. رغم تعذُّر احتضاني للعود كما اعتدت لتكور بطني وبروز سرَّتي بسبب الحمل، عزفتُ الألحان بمزاجٍ رائقٍ فحازت إعجاب وتصفيق الجميع خاصة فريدة خانم ومصطفى باشا.

ختمنا أمسيتنا بطلبٍ مُلِّحٍ من عارف كي أعزف لهم موشح "قدُّك الميَّاس" لتغنيه لنا حورية. شجع سامي بك الطلب بأن قال لحورية بأنه سمع الكثير عن بهاء صوتها وبودِّه أن يسمعها الليلة. امتنعت حورية في البداية خجلاً فلم يسبق لها أن غنَّت خارج جدران بيتنا. قامت العمَّة حكمت خانم

من مكانها وجلست إلى جانبها، قبَّلت جبهتها ورجتها أن تجود علينا بصوتها. نظرت حورية نحو عارف مُعاتبة، كادت تبكي. تقدم منها، ركع أمامها وقبَّل يدها، تمنى عليها ألا ترد طلبه وطلب والده. نظرت حورية ناحية والدتها تستأذنها، هزَّت لها عمتي نظيرة رأسها موافقة، لكن على مضض.

دندنتُ لها على أوتار العود مطلع الموشح فانطلقت حنجرتها البديعة بالغناء.

بدأت بصوتٍ خافتٍ وقد أربكها الحضور لكنها ما لبثت أن جادت. حلَّقت بصوتها الخلَّاب على أجنحة أنغام العود الشجية فأخذتنا معها إلى ملكوتٍ سحري. رنَّ صوتها في طيات هذا الكون الفسيح فازدادت نجوم السماء ألقاً، والقمر ضياءً، ورقصت لها الثريا في علياءها طرباً.

تواعدنا وآل العابد عند انتهاء زيارتنا على قضاء إجازة يوم الجمعة القادم في ربوع البساتين والمزارع التي يملكونها في غوطة دمشق؛ طقسٌ تحرص عائلتنا وعائلة آل العابد على مُزاولته كلّ سنةٍ ترحيباً بقدوم الربيع.

* * *

أرسلت فريدة خانم صبيحة اليوم، الجمعة، عربتها لتُقل العمَّة حكمت، ضيفة الشرف في هذه الدعوة، وليتولى سائسها إرشاد عرباتنا إلى قصرهم الريفي في الغوطة.

لم يتمكن سامي بك من الحضور لاضطراره للسفر مجدداً إلى القدس. اعتذر أخي سليم طبعاً عن المناسبة متعللاً بدراسته ولم يأتِ أبي لاضطراره في فترة الصباح الذهاب إلى السرايا لمتابعة الأخبار والتلغرافات الواردة عن أحوال القدس وما جاورها من الأقضية. وعد والدي أن يوافينا بصحبة مصطفى باشا الذي أصرَّ على لقائه في جامع قرب السرايا لأداء

صلاة الجمعة واصطحابه مع إخوتي إلينا.

غادرنا وجيه وعارف قبل انبلاج الفجر لملاقاة أبناء مصطفى باشا الأربعة في منطقة قريبة من الغوطة للصيد. غادرا على فرسين عربيتين أصيلتين، الشهباء والغرَّاء، هدية والدي رحمه الله لنا، زوجي وأنا، يوم زواجنا.

* * *

خبَّت عرباتنا الثلاث مترنّحة على الطُرُق الترابية الضيِّقة في صبيحة هذا اليوم المُشرِق الدافئ باتجاه غوطة دمشق. سارت في المقدمة عربة مُضيفتنا يقودها سائسها النوبي النحيل أحمدُ تُقِل العَمَّة حكمت وممرضتها وخادمتها، تبعتها عربة والدي يقودها صابر تُقِل إكرام خانم وحورية ومُسِرَّة، تلتها عربتنا التي أقلَّتني وعمتي نظيرة وأختي نازلي. تهادت العربات الثلاث ببطءٍ مراعاةً لحملي وجهد مسعود، سائس عربتنا، في تجنب المطبَّات الكثيرة التي لم يخلُ منها الطريق.

دارت أحاديثنا الصباحية المُعتادة بيني وبين عمتي وشَغُبَت نازلي في حديثها مع حورية ومُسِرَّة كلَّما اتسع الطريق الترابي واستطاعت عربتنا محاذاة العربة التي تقلهن.

توقفت أحاديثنا الجانبية وثرثرة نازلي الطفولية فجأةً عندما عبرنا بلدة دوما. لفَّ الجميع صمتٌ مهيب وسكنت النفوس بتعويذةٍ سحرية.

يا لروعة الخالق وبهاء صنعه!

فضاء شاسع من الظلال والألوان امتد أمامنا نحو الشرق والجنوب بلا حدود. بساتين خضراء نضرة بوسع الكون غسلت عن عيوننا غبش الصقيع وغيوم الشتاء الكالحة. أعدادٌ لا متناهية من أشجار السرو الباسقة وقدود الحور المشوقة وقفت بهيبةٍ وجلالٍ على جانبي الطريق تُحدِّد

لعرباتنا مساراتها. أشجار الصفصاف العتيقة استجابت لمداعبات نسيم الصباح بأن مدَّت شعورها بدلال لتغسله في قنواتِ مياهٍ جارية على أطراف البساتين الخضراء.

آلافاً مؤلفة من الأشجار المُزهرة، من مشمش، كرز، خوخ، دراق، تفاح، جوز، ولوز اصطفت لاستقبالنا كعرائس صغيرة بأثواب فرحٍ زاهية الألوان وقد ناءت أغصانها بأحمالها وتزاحمت أزهارها في حزمٍ متلاحمة بحيث لم يبق لزهرة واحدة مكانٌ خالٍ لظهورها. التفت أغصان هذه الأشجار مع جاراتها وكأنَّها في حديثٍ صباحيٍ لا ينتهي. ألقى تكاتفها ظلالاً كثيفة على المعابر والطرقات وسمحت فتحاتها الصغيرة لضوء الشمس أن يتسلل ويلتمع كما يلتمع الألماس على صدور العرائس؛ سناءاتٌ تابعناها بعيونٍ ملأها الفضول دهشةً وسروراً.

داعبت آذاننا في هدأة هذا الصباح المبارك "سيمفونيات" عزفتها حناجر عصافير فرحة غرَّدت جوقاتها الهادرة لموسم الربيع، فطربنا نحن لبهجة تجدد الحياة.

ما أبدع الخالق وما أكرم عطاءاته...

وصلنا منطقة "جرمانا" وعبرنا في طريقٍ فرعيٍ صغير إلى مدخل بيت العابد. وجدنا فريدة خانم وكريمتيها نازك وعائشة في انتظارنا. غابت ابنتاها ثريا وراقية عن المناسبة.

تبادلنا التحيات والقبلات ودلفنا تباعاً تتقدمنا العمَّة حكمت إلى غرفة الاستقبال الواسعة بشرفتها المرتفعة النيِّرة تَصحبنا عبارات الترحيب الرقيقة واللطيفة من صاحبة البيت وكريمتيها.

البيت أشبه بقصرٍ ريفيٍ صغير تظلل شرفته الواسعة شجرة وارفة تمتد أغصانها أفقياً كالمظلة. تغطي فروع الشجرة المتشابكة أزهارٌ حمراء

قانية بحجم كف اليد، رائحتها عطرية هامسة أما مظهرها وملمسها فمُخمليٌ بديع. قالت فريدة خانم مُفسِّرة أنَّ هذه الشجرة دخيلة على دمشق، إن صحَّ التعبير، رأتها في إحدى زياراتها إلى إيطاليا وأُعجبت بها. أحبها مصطفى باشا أيضاً وسعى لنقلها هي وأخرى قاما بزراعتها تحت شرفة قصر حي المهاجرين. كبرت وأزهرت شجرة الغوطة لكنَّ الحظ لم يحالف مثيلتها في دمشق.

أخذتنا فريدة خانم بعد استراحتنا القصيرة في جولةٍ في أنحاء الحديقة وتناولنا إفطاراً شهياً على الشرفة التي حملت نسائمها عبق شجيرات الورد الجوري الدمشقي وأريج زهور الحديقة الغنَّاء.

قضينا الضُحى، نحن الصبايا، في صخبٍ نلعب "البرجيس" "وأبو الفول"[42] كما اعتدنا عندما كنَّا صغاراً. ضحكنا طويلاً عندما تذكرنا العقوبات التي كنا نتفنَّن بإنزالها بالفريق الخاسر أو بمن لم يستطع التخلص من "أبو الفول".

انتصف النهار وعاد الشبان من رحلتهم بصيدٍ وافرٍ.

أشعل الخدم النار للشواء ونحروا أربعة جداءٍ صغيرة وجهزوها للغداء.

أولمنا عند وصول والدي ومصطفى باشا وإخوتي. استمتعنا بأنواع من الخضروات الطازجة والمطهية بنكهاتٍ جديدة تفننت في تقديمها طاهيتهم الشركسية. تذوقنا أيضاً أصنافاً من لحم البط والحجل والجِدِي المشوية والمُتبَّلة بالبهارات الحارَّة والزنجبيل وزيت الزيتون والخل والثوم، رفع الخدم بعضها على سفود لشَيِّها ودفنوا بعضها الآخر بعد وضعها في أواني من الفخار أحكموا سدَّ فتحاتها بالطين وتركوها تنضج في بطون أكوامٍ الجمر المتوهج.

بدا والدي على طاولة الطعام مهموماً.

سألته العمَّة حكمت عن أخبار القدس.

ـ لا جديد يا عمتي، لا زال أعيان مدينة القدس يقودون المظاهرات احتجاجاً على عمليات التنقيب التي يقوم بها الفريق الإنكليزي وهددوا مجدداً بالإضراب العام.

سأل عادل ابن مصطفى باشا والدي بأدب بعد أن مسح فمه بفوطة الطعام:

ـ لمَ كل هذا الغضب من عمليات التنقيب في القدس يا باشا؟ كيف نعرف أخبار من سبقنا من الأقوام إذا لم ندرس الآثار التي خلفوها وراءهم؟

أطرق والدي للحظة بعد أن أعاد إلى صحنه الشوكة بقطعة اللحم التي اقتطعها:

ـ لا اعتراض يا بني على فكرة التنقيب عن الآثار بحد ذاتها؛ لا يُرحب أهل الشام بنشاطات الفرق الأجنبية المُنقِّبة عن الآثار في أراضي فلسطين لسببين؛ الأول، أن القرارات التي تُتَّخَذ للسماح بأعمال التنقيب تتم في إستنبول وبسريةٍ تامة حيث يُوقع عقود التنقيب هذه ممثلون عن الحكومة المركزية دون علم الحكومات المحلية أو موافقة مالكي الأراضي والعقارات المتضررين من أعمال الحفر؛ والثاني، لمس أهالي فلسطين جشع هذه الهيئات واقتنعوا بأن مُعظم فرقها الاستكشافية ما هي إلا مجموعة من الأجانب المهووسين بنهب الكنوز دون دراية أو خبرة في بحوث الآثار. يعتقد أهالي القدس على وجه الخصوص أن التنقيب عن الآثار في مدينتهم ذريعة ونشاط مُمَنْهَج يقوده ويُموله صهاينة غايتهم إثبات حقّ اليهود التوراتي في أرض فلسطين حتى ولو أدى ذلك إلى تخريب وإزالة

المقدسات الإسلامية. جاءت حادثة الحرم القدسي الشريف الأخيرة لتؤكد مخاوفهم.

علق مصطفى باشا بعد أن رفع كأسه للخادم لإعادة ملئه بالماء المُعطر بالريحان:

ـ فعلاً، هذا ما أكَّدته جريدة فلسطين والنفير وتناقلته بقية الصحف باللغتين العربية والتركية؛ لا يمُكن السكوت عن انتهاك حرمة المسجد القُدسي الشريف؛ نرجو من الله اللطف والسلامة.

سألت حورية:

ـ لِمَ يستهدفون المقدسات الإسلامية؟ ما شأنهم بها؟

أجابها مصطفى باشا:

ـ للقدس مكانة دينية وتاريخية وقد استقطبت على مرّ العصور اهتمام العديد من المستكشفين الغربيين.[43]

سارع مظهر ابن مصطفى باشا بالتعليق والطعام لا زال في فمه:

ـ لكنها استقطبت أيضاً الكثير من المُغامرين والصعاليك من ناهبي الكنوز والآثار.

قاطعه نهاد، الأخ الأصغر بعد أن مدَّ رأسه ليوجه إلى أبي الذي جلس بمحاذاته سؤالاً بمنتهى الأدب:

ـ يجدر بنا أن نسأل يا باشا من صرَّح لفريق المنقبين بالدخول إلى الحرم القدسي؟

أجاب والدي:

ـ في الليل يا بني؛ دخلوا خلسةً تحت جنح الظلام. رآهم أحد سدنة الحرم أثناء جولته التفقدية. رأى واحداً من أبواب الحرم وقد تُرك موارباً في وقتٍ متأخرٍ من الليل؛ استغرب الأمر لأنَّه مرَّ به من وقتٍ قريب وكان

مُقفلاً. عندما نظر عبر فتحة الباب رأى أكثر من خمسة رجال معفرين بالتراب. أبلغ على الفور مساعد مدير الأوقاف في القدس الذي جاء في تقريره عن الحادث أن فريق استكشاف انكليزي تابع للمدعو مونتاغيو باركر، دخل المسجد دون تصريحٍ رسمي وكان ينوي فتح إحدى قنوات الحرم الشريف.[7]

قالت فريدة خانم باستنكارٍ شديد وهي تنظر ناحية العمة حكمت:

ـ هذا اعتداء سافر على حرمة المسجد.

هزَّت العمة رأسها بأسف وتطلعت إلى والدي ترجوه التعقيب.

أجاب والدي:

ـ دون أدنى شك يا سيدتي وقد هبَّ الناس هناك شيبة وشباباً على اختلاف دياناتهم ومعتقداتهم وتفاعلوا مع هذا الحدث وانتشرت أخبارهم في أنحاء البلاد. أثار هذا الحادث، في واقع الأمر، حفيظة كل من يغار على مقدسات المسلمين. سمعتُ منذ أيام عن عزم لجنة تُمثِّل المسلمين الهنود للسفر إلى القدس لمتابعة التحقيق في الانتهاكات التي نفذها المتآمرون.

سألت عائشة بصوتها الناعم الرقيق وهي منهمكة بمساعدة الخدم في ترتيب أطباق الحلوى والفاكهة على طاولة جانبية:

ـ أين حاكم القدس من كل هذه الأحداث؟

ـ مع الأسف، لم يفلح عزمي بك في تهدئة الغضب الشعبي العارم رغم أنَّه اعتقل رئيس سدنة الحرم واثنين من أبنائه والمترجم الأرمني الوسيط بتهمة السماح للفريق الإنكليزي بالتنقيب داخل الحرم الشريف

---

[7] وقع حادث الحرم القدسي الشريف في ١٣ ربيع الآخر ١٣٢٩ الموافق ١٢ نيسان، ابريل ١٩١١.

دون إذنٍ رسمي وأمر بفتح تحقيق محلي يشترك فيه كل من له علاقة بحماية المقدسات الإسلامية، بدءاً بقائد المنطقة العسكري، سامي بك، وانتهاءً بمفتش المعارف.[8]

هزَّ مصطفى باشا رأسه آسفاً ونظر إلى أبي:

ـ من الصعب تهدئة خواطر العوام بمثل هذه الإجراءات الشكلية؛ الأمر خطير ويحتاج لتدخل الحكومة المركزية.

علَّق عارف الذي انهمك في تقطيع قطعة كنافة بالقشدة لحورية:

ـ العوام غاضبون وأعوان القدس يُحمِّلون عزمي بك حسبما فهمت من والدي مسؤولية انتهاك حرمة المسجد.

نظر هولو ابن مصطفى باشا نحو عارف وقال بجدية:

ـ أرى أنَّ عزل حاكم القدس هو الحل الوحيد لتهدئة الجموع الغاضبة.

أجابه والده بحدَّة:

ـ لا يا بني، قرارات ارتجالية متسرعة دون تحقيق رسمي، تنتقص من هيبة الدولة وقد تزيد الحالة سوءاً. يحكم هذه الدولة دستور وقوانين ولديها مجالس وهيئات قضائية مهمتها تحقيق العدالة ومعاقبة المخالفين؛ يجب أن يأخذ العدل مجراه لمعرفة المسيئين ومعاقبتهم.

تنحنح أبي في جلسته وأجاب بعد أن رشف القليل من مغلي زهور البابونج الذي طلب تحضيره لتهدئه آلام معدته:

ـ تماماً، مصطفى باشا؛ أشرتُ على ابن عمتي سامي بك منذ البداية

---

[8] بدأ التحقيق في ١٧ ربيع الآخر ١٣٢٩ الموافق ١٦ نيسان، ابريل ١٩١١ وضمّ قائد المنطقة العسكري، المدعي العام، رئيس بلدية القدس، مفتي الشافعية، مدير الأوقاف العام، ومفتش المعارف.

بأن لا سبيل للخروج من هذه الأزمة إلا بإجراء تحقيق نزيه لا تشترك فيه الحكومة المحلية وجهازها القضائي؛ اقتنع سامي بفكرتي ورفع طلب رسمي إلى إستنبول طلب فيه فتح تحقيق مستقل وفوري في الحادثة. لم يُغادر دمشق هذه المرّة إلا بعد أن جاءه الرد بأنَّ محمود شوكت باشا وزير الحربية أمر خليل بك وزير الداخلية بتشكيل لجنة في هذا الحادث وأوكل مهمة التحقيق إلى نخبة من خيرة رجالات القضاء والأمن في الحكومة المركزية وهي الآن في طريقها إلى القدس إن لم تكن قد وصلت.[9]

قالت العمة حكمت:

ـ غادرنا سامي حفظه الله لهذا الأمر أول أمس، كان بوده أن يكون اليوم معنا. أدعو له الله بالتوفيق لما فيه خير وصلاح هذه الأمة.

أجابتها فريدة خانم بصوتٍ رقيقٍ ولهجةٍ صادقة:

ـ كان الله في عونه وكتب له السلامة في كل خطوة.

سألت نازك:

ـ هل صحيح ما تناقلته الصحف الإنكليزية من أن فريق التنقيب الإنكليزي المتهم بحادثة الحرم مستقلٌ، لا يتبع أي صندوق أو مؤسسة استكشافية بعينها؟

أجابها وجيه:

ـ ربما كان مُستقلاً لكنه على الأغلب لا يختلف في أطماعه وهوسه عن غيره من الفرق الأجنبية التي تنقِّب عن الكنوز. يدخلون تحت غطاء التنقيب عن الآثار، كصندوق استكشاف فلسطين البريطاني والمدرسة الفرنسية للآثار التوراتية، لنشر أفكارهم حول حق اليهود الصهاينة في

---

9 تشكلت اللجنة المركزية للتحقيق في حادث الحرم القدسي الشريف في ٢٣ ربيع الآخر ١٣٢٩ الموافق ٢٢ نيسان، ابريل ١٩١١.

"أرض الميعاد".

علَّق والدي بعد أن وضع فنجان الشراب الساخن على الطاولة ورفع فوطة الطعام عن حضنه ومسح بها فمه:

ـ فريق باركر مُستقل وغير تابع لهيئة أو مؤسسة معينة، هذا صحيح. انتماء هذا الرجل لطبقة الأثرياء الارستقراطيين الإنكليز وصلات أخيه العضو في الحكومة البريطانية، هي التي مكَّنته من الحصول على دعم غير مشروط لمشروعه من إستنبول دون الحاجة لهيئة بحثية تدعم أعمال التنقيب التي يقوم بها فريقه.[44] من المؤسف أن يتصرف بعض الوزراء في الحكومة المركزية السابقة بهذه الصفاقة. ستكشف نتائج التحقيق الكثير من ملابسات هذه القضية لكننا، ومع شديد الأسف، لن نتمكن من ملاحقة أياً منهم، إقالة الوزراء واستبدالهم في إستنبول بات أسرع من تعاقب فصول السنة؛ ما إن يأتِ الربيع حتى يزيحه الصيف، ويخلفه الخريف، ليعقبه الشتاء. مهازل!

أجابه مصطفى باشا بأسى بعد أن نفث دخان غليونه:

ـ حالنا يا نوري باشا يدعو فعلاً إلى القلق.

هزَّ والدي رأسه موافقاً وبدت نظرة الأسى والحزن في عينيه.

سأل نهاد والدي:

ـ تقول الصحف الأجنبية بأنَّ باركر قد واجه صعوبات كبيرة في بداية مشروعه، هل هذا صحيح؟

ـ يتكلمون عن عقبة شراء الأراضي لمشروعه في منطقة السلوان في القدس؟

ـ لا أدري، ربما.

قالت نازك بصوتها الهادئ:

ـ تقول الصحف الإنكليزية على لسان باركر بأن فريقه يقوم بالتنقيب في أراضٍ اشتراها ويُصر أنه لا يحق لأحد الاعتراض على أعمال تنقيب تجري ضمن حدود ممتلكاته.

قال والدي بعد أن عدل من جلسته وعقد حاجبيه علامة الاستنكار:

ـ كلام الصحف الأجنبية غير دقيق يا ابنتي، يعرضون في هذه القضية نصف الحقيقة. هل يقع المسجد الشريف ضمن ممتلكات باركر؟ انتهاك فريقه لحرمة المسجد دون تصريح رسمي قضية لا خلاف فيها؛ أما موضوع التنقيب في أراضي يملكها، تشير الوثائق التي حصلت عليها الصُحُف في القدس بأن أصحاب هذه الأراضي كانوا قد رفضوا من سنواتٍ ثلاث بيع أراضيهم لباركر ولم يكتفوا بالرفض بل أتبعوها بشكوى رفعوها إلى حاكم القدس السابق قالوا فيها بأنَّهم يتعرضون لضغوط ومضايقات للبيع. دعم حاكم القدس قرارهم بعدم البيع واقترح تشكيل لجنة للتحقيق في الأمر. علم باركر بالشكوى فراجع إستنبول التي منحته كتاباً موجهاً إلى حاكم القدس وموقَّعاً من وزير المالية السابق يأمره فيه بتسهيل عملية بيع الأرض المنشودة أو بمصادرتها من مالكيها إذا امتنعوا عن البيع بحجة الحاجة إليها لبناء مستشفى!

قال مظهر بضيقٍ واستنكار:

ـ هذا احتيال وتسخير واضح للوزراء من ذوي المناصب الرفيعة لإرضاء الدُخلاء من الأوروبيين المُتَنَفِّذين على حساب رعايا الدولة.

ـ لا شك، فسادٌ سافر وسلوكٌ مشين.

قال وجيه:

ـ نقمة رعايا البلاد في تزايد من تدخل قنصليات بعض الدول الأجنبية في الشؤون الداخلية للبلاد بحجة الامتيازات التي يتمتع بها

مواطنوها.[45]

علَّق والدي:

سيلتم شمل البرلمان قريباً لمناقشة حادثة الحرم القُدسي الشريف وسنعرف تفاصيل هذه القضية وملابساتها.[46]

أجاب وجيه بحماس:

ـ سيكون روحي الخالدي[47] وشكري العسلي[48] نائب كتلة المعارضة، في هذا الاجتماع بالمرصاد فيما لو حاول مبعوث الحكومة المركزية طمس الحقائق أو حماية بعض المتنفذين الكبار.

أجابه والدي بعد أن هزَّ رأسه نافياً:

ـ لا أعتقد أنَّ أحداً سيجرؤ على التبرير أو طمس الحقائق يا وجيه؛ انتهاك المقدسات الدينية لا يمس فقط مشاعر رعايا الدولة العثمانية بكافة أطيافها بل مشاعر المسلمين في جميع أنحاء العالم؛ التغاضي في مثل هذه القضايا عن أي تآمر أو إهمال صدر عن موظف مسؤول، صغيراً كان أم كبيراً، سيكون وبالاً علينا وعلى هيبة الدولة.

أفراحنا القصيرة

ما أروع أن تكون النعمة التي هبطت عليَّ هي السبب في إشاعة هذا الفيض الغامر من مشاعر الهناء وأسباب السعادة لأبي وعمَّتي وزوجي وللآخرين من حولي. جاء ربيعي محمولاً في طيَّاتِ غيمةٍ صغيرةٍ سكبت أفراحها القصيرة على عالمي وتلاشت كما ظهرت، بين ليلةٍ وضحاها.

ليتها دامت.

لن أنسَ فرحة عمتي عندما دخلت لتهنئتي عقب ولادتي التي سبقت موعدها ببضعة أسابيع؛ أنبتت لها فرحتها جناحين فلم تلمس قدماها الأرض! حلَّقت وحطَّت بجانب سريري، همست في أذني:

ـ فاضلة، المولود ذكر!

ـ ابتسمتُ لها بفرح رغم التعب وآلام الوضع.

تابعت بعد أن التفتت إلى وجيه الذي كان بجانبي:

ـ هل نسميه عبد الماجد؟

ضحك أبي الذي دخل وراءها مهنئاً مع العَمَّة حكمت خانم.

ـ بل نسميه نور الدين!

ردَّت حورية التي لم تبارح سريري طوال فترة الوضع:

ـ بل هو ربيع! ألم يأتِ مبكراً ليستقبل الربيع.

هزَّت عمتي رأسها والفرحة تطل من عينيها كنافورة بهجة ضجَّت بألوان الربيع.

ـ ربيع؛ ربيع الفرح. ما أجمله من اسم.

نظرتُ إلى وجيه. افترَّ ثغره عن ابتسامة الرضى:

ـ ربيع، ما رأيك بهذا الاسم يا خالي؟

ـ بارك الله لكم في ربيعكم، وجعله آية التُّقى ومن عباده الصالحين. هات الصغير لأُكبِّرَ له في أذنه، أنا على وضوء.

لم نعلم بأن القدر لن يمهل ربيعنا إلى الغد.

* * *

جهد ربيع في التقاط أنفاسه. ينتظم التنفس لديه لدقائق ثم لا تلبث زُرْقة شفتيه أن تظهر. هالني منظره. ابتلعتُ دموعي وكتمتُ خوفي حتى لا أُفزع الصغير وحتى لا أفسد على الأهل فرحتهم.

ابتهلتُ إلى الله سراً أن يهبه من نفحات رحمته ما يُعيدُ إليه انتظام أنفاسه؛ عندما أنهكتني معاناته تمنيتُ أن يأخذ الله أنفاسي ويمنحه إيّاها.

لم تلقَ ابتهالاتي استجابة.

مع اقتراب المساء، بدأت حالة ربيع بالتراجع وبدأت زرقة شفتيه تمتد إلى وجهه الوردي الصغير. يفتح عينيه ويناديني بالخوف الذي يُطل منهما مُستنجداً، أهبُّ لنجدته، أضمه إلى صدري وأبكي بحُرقة؛ "يا رب خذ مني روحي وأمنحه إياها"...

تسارعت نوبات ضيق التنفس لدى ربيع وطالت. اشتد خوفي عليه. حملته وبدأتُ أدور به كالمجنونة في أنحاء الغرفة. حاولت دادا سعدية التي لم تفارقني تهدئتي وإقناعي بالعودة إلى سريري. لم تفلح.

هرعت مُربيتي بعد أن أعياها خوفي إلى الجناح الغربي وأيقظت وجيه؛ جاء بثياب النوم مهرولاً. أخذ الوليد الذي بدا كفرخٍ صغير في راحتيه، قبَّل جبينه بحنو وأخذ ينفخ في وجهه أنفاساً قصيرة ورقيقةً. استجاب ربيع لمحاولات وجيه وهلَّلتُ أنا وسعدية لهذه المعجزة. أعادني زوجي إلى السرير وأمر بإرسال مسعود في طلب القابلة التي قرر

استدعاءها للعناية بالصغير حتى الصباح.

جاءت المرأة على عجل. سحبت ربيع من بين يدي وجيه وأخذته إلى غرفة الضيوف المجاورة ليقضي ليلته الأولى معها. أكَّدت لي ولزوجي بأنَّ الأطفال الذين يولدون قبل أوانهم يعانون من ضيق في التنفس سرعان ما يختفي. أضافت أن الخوف والرعب سيؤثر سلباً على حليبي وعلى صحتي وتخشى عليَّ إن لم أهدأ إصابتي بحمَّى النفاس.

لم تقل أو ربما لم تكن تعرف أنَّ ملاكي الصغير كان يصارع الموت.

ـ تمنحه يا إلهي الحياة لتحرمه منها! أين الحكمة في معاناة هذا المخلوق الضعيف؟

ـ استغفري الله يا فاضلة. اللهم لا اعتراض على حكمتك وقضائك. اصبري يا سيدتي، ما بعد الضيق إلا الفرج.

ـ من أين آتي بالصبر يا سعدية؟

* * *

أسلم ربيعي الروح مع انبلاج الفجر.

عشش الحزن في يوم رحيله في فضاءات روحي ولم يفارقها.

أخبر وجيه عمتي بوفاة ربيع والدموع تملأ عينيه. دخلت المسكينة من هول الصدمة في طورٍ غريبٍ. امتنعت عن الكلام والطعام لأيام. لولا أبي وعمَّتها وعائلة سامي بك واقتراب زفاف حورية لما خرجت وأخرجتني معها من ظلمات الكآبة التي انتابتنا.

شغلتنا حورية بجهازها الذي جهدنا في إتمامه بأسابيع قليلة وسافرنا إلى القدس لحضور حفل زفافها.

* * *

وصلنا القدس بعد خمسة أسابيع وقد ازدانت شوارعها وشرفات

منازلها بالأعلام والأنوار احتفالاً بزفاف حورية ابنة أخت الشريف نوري باشا، كومندان الشام ورئيس ديوانها العرفي، على عارف ابن سامي بك القائد العسكري لمنطقة القدس.

لم يحضر حاكم القدس الفرح؛ ذهب عزمي بك إلى إستنبول لمقابلة رئيس الوزراء ووزير الداخلية في محاولةٍ منه لتهدئة النفوس هناك بعد أن انتشرت الشائعات التي كان يُروجها البعض عن علاقته بحادثة الحرم القدسي الشريف.

رغم الأزمة القائمة في القدس، والغليان الشعبي في أنحاء البلاد، إلا أن محبة الأهالي لسامي بك وتقديرهم لمواقفه معهم طوال سنوات خدمته جعلت من مناسبة زواج ابنه فرصة للتعبير عن مشاعر الاحترام والامتنان له.

عمَّت الاحتفالات أنحاء القدس وملأت سلال الأزهار وهدايا العروسين حُجرات السرايا. أُضيئت المصابيح والمشاعل في الشوارع والأزقَّة والحواري. قَرَعَت الطبول وعزفت الموسيقا وصَخَبَ العوام. نُحِرَت العجول والإبل والخرفان ونُصِبَت الموائد في كلِّ ساحةٍ وزاوية وقد حَفُلَت بما لذَّ وطاب. احتفالاً بهذه المناسبة، وُزِّعَت الحلويات المقدسية والتركية والشامية الفاخرة على القاصي والداني. حُشيت قلوب التمر باللوز ووُضِعَ في علبٍ ازدانت أطرافها بمشابك من الفضة ووزعت مع المصاحف على القريب والبعيد. كانت علب اللوز المُلبَّس بالسكر المُلون بألوان الفرح التي أرسلها سامي بك وزوجته مع دعوة حضور حفل زفاف ولدهم عارف على حورية لكبار أعيان المنطقة من الذهب الخالص.

استمرت الأفراح في القدس ثلاثة أيام بلياليها؛ سافر العروسان بعدها إلى أوروبا ليعودا إلى إستنبول بانتظار بعثة عارف إلى فيينا.

* * *

عدنا إلى دمشق وسمعنا بعد أيامٍ قليلةٍ من عودتنا قرار سامي بك طلب إعفائه من منصبه.

* * *

تمتَّع سامي بك ابن عمة والدي، القائد العسكري للقدس، بشخصية قوية وعلمٍ واسعٍ. ثراء العائلة الفاحش وأصولها الشريفة [49] إضافةً إلى تواضع شخصه ورِفعة أخلاقه قرَّبته من قلوب أهالي القدس على اختلاف معتقداتهم الدينية وخلفياتهم الاجتماعية والثقافية. مواقفه الشجاعة في دعم الصحافة المحلية لفضح الفساد المستشري في الحكومة المركزية شكَّلت تهديداً واضحاً لنفوذ الأقلية الفاسدة الداعمة للصهيونية في إستنبول وأقلقت رجالاتها لكنَّها نالت التقدير من الطبقة المثقفة من أبناء المجتمع الفلسطيني ورجالات الفكر الحرّ فيها. كان لصلة القرابة البعيدة بين زوجة سامي بك وزوجة شكري بك العسلي وأواصر الصداقة المتينة التي ربطت سامي بك بسعيد الحسيني وروحي الخالدي كبير الأثر في الثقة والدعم الذي لَقِيَهُ من أهالي القدس وما جاورها. لا نعرف تفاصيل كثيرة عما جرى في دهاليز الحكومة المركزية في إستنبول، لكن ما نعرفه بأن سامي بك طلب إعفاءه من منصبه بعد أيامٍ قليلةٍ من وصولنا لدمشق قادمين من القدس.[50]

جافى النوم وجيه في الليلة التي سبقت زيارة والدي لنا في ضحى اليوم الذي تسلم فيه برقية من سامي بك يُعلمه فيها بقرار استقالته من منصبه ويُخبرنا بعودة أسرته للإقامة في إستنبول.

على غير عادته، ترك وجيه أكوام الصحف التي طالعها في مساء ذلك اليوم مُبعثرة على الأرض في الركن الذي تعودنا أن نقضي فيه أمسياتنا الهانئة. رؤية مكتبه في الصباح الباكر في حالة من الفوضى

أقلقني. تضاعف قلقي عندما وجدته غافياً على مكتبه وسط أكوام من التقارير التي جلبها معه مساءً لمطالعتها.

لم ننعم، زوجي وأنا، منذ عودتنا من القدس بأوقاتٍ هادئة، أحوال الناس في البلاد مضطربة وكذلك قلوبنا.

لم يقل وجيه الكثير قبل أن يغادرني، تَورُّم أجفانه من القراءة واحتقان عينيه من قلّة النوم باحت بخطورة التقارير التي جلبها معه ليلة البارحة للاطلاع على تفاصيل اجتماعات البرلمان الأخيرة والسجالات التي تناولت الإجراءات التي اتخذتها حكومة إستنبول بشأن حادثة الحرم القدسي الشريف.

كل ما قاله لي قبل أن يودعني هذا الصباح بلهجةٍ لا تخلو من خيبة أمل:

ـ إقالة حاكم القدس من منصبه دون أن يطال العقاب الرؤوس الكبيرة في إستنبول غلطة لا تُغتفر؛ لن تستعيد الدولة هيبتها في قلوب وعقول الناس ما لم نقضِ على الفساد.

* * *

قضيتُ ضحى اليوم في المربع أتجاذب أطراف الحديث مع عمتي وأساعدها في الرد على رسائل الأهل والأصدقاء التي وصلت في غيابنا من إستنبول ومن بعض العواصم الأوروبية مُهنِّئة بزواج حورية وعارف. معظم الرسائل جاءت باللغة التركية، القليل منها كُتِب بالفرنسية التي لا تعرفها عمتي. أنهينا الرسائل التركية وتركتني عمتي لبعض شؤونها في الجناح الشرقي أتمم الرد على بقية الرسائل. رسالتي إلى جوزفين، مدرسة اللغة الفرنسية، كانت مُسهَبَة ومليئة بالتفاصيل.

سمعتُ طرقاً خفيفاً على الباب، رفعتُ رأسي عن الرسالة التي

قاربتُ على نهايتها، نظرتُ إلى الركن الذي جلست فيه سمحة وسألتها أن تُجيب. فتحتْ الباب فرأيتُ أبي واقفاً يستأذن بالدخول.

نحيت أوراقي جانباً وتركت قلم الحبر على الطاولة وجريتُ إلى عتبة المُربَّع مرحبةً به.

قبَّلتُ يده وقبَّل جبهتي.

سألني بصوتٍ هادئٍ وخيال ابتسامةٍ تلوح على شفتيه:

ـ أين نظيرة؟

ـ في غرفتها؛ خير يا أبي.

ـ خير يا ابنتي.

التفت إلى سمحة قائلاً:

ـ أخبري الست الكبيرة بوجودي، سأكون في المربَّع "البرَّاني" بانتظارها.

خرجت سمحة مُسرعة ومشيتُ مع والدي باتجاه غرفة انتظار الضيوف. لحقت بنا مسرورة.

فتحت لنا الباب وتَنحَّت، دلفنا عبره. سألت مسرورة أبي إن كان يأمرها بشيء؛ شكرها.

نظرت ناحيتي مُستفسرة، صرفتها بهزة من رأسي وجلستُ بجانب أبي ساكنة.

قلبي ينبض بشدة، لا أدري لماذا؛ ليس من عادة والدي زيارتنا خلال أيام الأسبوع. هل في الأمر ما يسوء؟ استرقتُ النظر إلى وجهه استطلع الخبر؛ هالتني ستائر الهم والقلق التي أثقلت جفنيه.

ما هي إلا دقائق حتى دخلت عمتي المُربَّع مُسرعة وقلقة. لم تُجامل والدي بعبارات الترحيب كعادتها، بادرته بصوتٍ حاسم:

ـ خير يا باشا؟

ـ استقال سامي من منصبه.

ـ ماذا؟

ـ وصلتني برقية منه فجر هذا اليوم تقول أنَّ العمَّة حكمت مريضة وهو ينوي إرسالها على وجه السرعة مع زوجته وابنته إلى إستنبول لاستكمال علاجها هناك حسبما أشار عليه طبيبها في القدس. يبدو أنها في حالة صحية سيئة؛ ذكر أيضاً أنَّه استقال من منصبه ليتفرغ للعناية بها.

ـ يستقيل من منصبه!!!

ـ لا ألومه، طفح الكيل به يا نظيرة من سوء إدارة الحكومة المركزية. الإشاعات المُغرضة التي يتناقلها الناس هناك عن نزاهة حاكم القدس وعنه هو شخصياً آلمته مع أنه يعرف بأنها مُفتعلة. برع في نشر هذه الإشاعات الكاذبة البعض من أصحاب المناصب الرفيعة في إستنبول لتغطية نشاطاتهم المشبوهة!

ـ ألا يعرف بأن استقالته لن تحل المشكلة يا باشا؟

ـ ابن عمتنا يا نظيرة رجل عسكري لا يقبل أنصاف الحلول. أن يطعن البعض بنزاهة حاكم القدس الذي يعمل معه ظُلماً رغم أن التحقيقات لم تُثبت أي صلة أو علاقة للرجل بالحادثة، فهذا فوق ما يحتمله أي رجل يحترم اللوائح ويُطبِّق القانون. أسرَّ لي سامي عندما كنا في القدس، وفي أكثر من مناسبة، بأنه ينوي الاستقالة. قال بأنه يُريد باستقالته الضغط على حُلفائنا في إستنبول لإجبارهم على اتخاذ إجراءات صارمة ضدَّ الفساد وضد بعض رجالات الحكومة المركزية المتنفذين هناك. نصحته أن يتريث، مثل هذه الأمور تحتاج إلى تخطيط ورويِّة، لكن يبدو أن أزمة والدته الصحية الحالية دفعته لاتخاذ قراره.

ـ هل أغادر إلى إستنبول لأكون هناك بجانب عمتي؟
ـ لننتظر قليلاً، لعل الوعكة الصحية التي ألمَّت بها عابرة.

* * *

التحق سامي بك بعائلته للإقامة في إستنبول بصفة نهائية بعد فرح حورية وعارف بأسابيع قليلة وقرر اعتزال العمل السياسي والحكومي الذي نعته علناً بالفاسد. كرَّس وقته لفضح مؤامرات بعض رجالات الحكومة المركزية في تقويض هيبة الدولة بخرق الدستور ونجح في إدانة وإقالة العديد منهم.[51]

لم تسافر حورية إلى فيينا بعد رحلة أوروبا، انتقلت للإقامة في حلب.

علم أبي بأنَّ عارف أُنتُدِبَ لمدة سنتين للعمل في مشروع توسعة مباني خطوط السكة الحديدية هناك؛ مشروعٌ ضخم تابع للحكومة المركزية يرمي في المستقبل إلى ربط حلب ببغداد.

أصرَّت حورية على مرافقة عارف إلى مقر عمله الجديد؛ فكان لها ما أرادت.

ليتها لم تفعل.

أوقاتنا الهانئة

يكتب زوجي أشعاره باللغتين العربية والتركية ويتذوق الشعر الفارسي والألماني. تعبيراته الرهيفة تنِمّ عن شاعريته وإيقاع أبيات شعره تُفصح عن حسٍّ موسيقيٍّ رفيع.

أفتح عينيَّ في غبش الفجر في بعض الأيام لأجده جالساً وراء مكتبه على ضوء شمعةٍ يكتب. جسمه ملفوفٌ في روبٍ منزليٍّ من الجوخ الإنكليزي وتبرز من تحت سروال نومه الصوفي الناعم مشَّايةً من جلد الغزال المدبوغ بلون عيدان القرفة.

أنسلُّ من سريري لأفاجئه.

أسترق الخطو نحوه وأترفق على رؤوس أصابعي.

يسمعني.

يرفع رأسه ويُشرق وجهه بابتسامة ساحرة.

أتهادى في خطوي؛ أقف على مقربةٍ تاركةً مسافةً كافية بيننا حتى لا ينالني.

أرسل شعري من مشابكه فيسيل كحزمةٍ من نور وتفوح رائحة عطر الورد والصندل من بين طياته.

تلتمع عيناه؛ يضع ريشة الكتابة جانباً، ويمدُّ لسانه ليمسح به شفتيه بشهية إشارةً منه بأنّه سيلتهمني.

أضحك، وأهزُّ كتفي بأنّي لا أُبالي.

أرفع له ببطءٍ ثوب النوم الحريري الشفاف وأكشف له عن ساقين من العاج.

تلتمع عيناه هذه المرَّة بعنفوان رجولته فتُزهر أنوثتي وتنضح بالندى.

أواصل رفع الثوب على مهلٍ لأصل بأطرافه إلى الذروة؛ أُهزُّهُ بنعومة فتداعب أطرافه الحريرية ما تحته.

يدعوني لأجلس في حضنه وإلَّا!

أضحك بدلالٍ:

ـ وإلَّا ماذا؟

يهمُّ بالوقوف، فأهرع إليه مستسلمة وأرتمي في حضنه.

عندما نهدأ، أسكن بين ذراعيه وألتصق لأسمع نبضات قلبه الهادرة؛ يقرأ عليَّ ما جادت به قريحته في الفجر من أشعارٍ لأنتقي منها الأجمل. أنبهر وأحتار؛ أتفكر طويلاً في معاني صاغها من معاني:

ـ هي لوحاتٌ ترسمها بالكلمات!

يضحك من قلبه ويغمرني بالقبلات.

أزداد رغبةً ويزداد هو ألقاً.

* * *

عقب زواجي بوجيه، خصصنا إحدى غرف الجناح الغربي لاستقبال أصدقاءٍ لنا مساء أول ثلاثاء من كل شهر قمري. يضم منتدانا باقة من أبناء وبنات عائلاتٍ دمشقية تنتمي إلى مزيجٍ بديعٍ من الملل والأديان والأعراق؛ عرب، أرمن، أتراك، تركمان، شركس، أكراد، مسيحيون ومسلمون.

واظب على منتدى الثلاثاء ما لا يقل عن عشرين شخصاً من خيرة الشباب المثقف من دمشق وأحياناً حلب، بيروت، أو القدس. بعض الأصدقاء المقربين من الأقليات، والبعض الآخر أغراب يدعوهم وجيه مجاملةً أثناء زياراتهم القصيرة لدمشق. يأتي أصحابنا المقرَّبون بصحبة زوجاتهم أو أخواتهم وأحياناً ضيوفهم. نمضي وإياهم أمسياتٍ هادئة نتبادل فيها أخبار

الأدب والفن والفلسفة ونستمع فيها لنوادر تاريخية أو طُرَف عائلية.

حرصنا أن يكون منتدانا الشهري ملتقى للتعبير الحرّ؛ لكنَّه كما الكثير من المنتديات الأدبية الخاصة في تلك الحقبة، أبقينا أحاديثنا بعيدة عن التعصب السياسي والعقائدي الديني.

يُدير وجيه دفَّة الحديث بدبلوماسية وكياسة ويشجع الحاضرين بالحديث عما يشغل البلد من أمور التجارة وأخبار العلم والثقافة. يتحدثون بحماس عن الدستور، مُستجدَّات الأحداث الواردة في الصحف والمجلَّات المحلية والأجنبية، حق المرأة في التعليم وإمكانية مشاركتها في التصويت، ضرورة فرض التعليم الإلزامي على الذكور والإناث، لكنَّ أكثر ما يستهوي الحضور الحديث عن نتائج سباق المركبات الآلية التي تعمل على الجازولين[52] وفن التصوير الضوئي الذي يستهوي زوجي.

يشاركنا ضيوفنا بأخبار زياراتهم للعواصم الأوروبية ومعالمها الحضارية المُبهجة، ولمصر مركز الفنون الغنائية والموسيقية. يعرض البعض أحدث الصور التي قاموا بالتقاطها أثناء رحلات الصيد ويتحدَّثون عن المهارات التي اكتسبوها في ضبط الصورة والتحكم بالضوء. يذكرون أيضاً آخر العروض التي حضرها البعض في القاهرة والإسكندرية لفنٍ جديد يدعى السينماتوجراف.[53]

الحديث عن هذا الفن، سينماتوغراف، مشوِّق ويكاد يكون، بالنسبة لي، فن الأعاجيب. يختلف الحضور في منتدانا في آرائهم عنه؛ يتنبَّأ البعض بأنَّ أفلام الصور المتحركة ستحلُّ محل العروض المسرحية وتلغيها بينما يُصِرّ أنصار المسرح على خلود هذا الفن العريق. يتَّفق الجميع على أنَّ تطبيقات فن التصوير الحديث وأُفُق انتشاره لن تعرف الحدود.

عندما نضجت حورية وشبَّ خليل بدأنا بدعوتهما لمشاركتنا بعضاً من

أمسياتنا. تقرأ حورية علينا بصوتها الساحر الأشعار وأُرافق إلقاءها بعزفٍ رقيقٍ على العود. أختار المقامات الموسيقية حسب الوقع الذي يمليه وزن القصيدة فأنتزع إعجاب الحضور. يجلس خليل في معظم لقاءاتنا صامتاً فهو لا يملك ناصية الشعر كوجيه ولم يكن لديه الحس الموسيقي الذي تمتعت به حورية لكنَّه ورِث عن أبيه موهبة الرسم والكتابة.

لطالما جلس وجيه في أُمسياتنا متربعاً على الأرض بجانب الكرسي الذي أجلس عليه ممسكاً بيدي، يستمع ويناقش أو يقرأ بصوت رخيم عندما لا تكون حورية حاضرة باقةً من أشعاره التي انتقيتها له.

يبدو دائماً ساحراً بإلقائه وشهياً برجولته. يدعوني أمام أصدقائه دون حرج، ملهمتَه وأحياناً محبوبته.

كم أفتقده ...

* * *

تُثار في أمسيات الثلاثاء مواضيع متنوعة؛ لكن أكثر ما كان يشغل جيلنا الصعوبات التي كانت تعيق نشر التعليم، خاصةً، مشكلة تعليم الإناث. موقف رجال الدين المتعنِّت من هذه المسألة يُثير حفيظة الشباب الذي تمتع بفكرٍ منفتح ويسعى جاهداً للنهضة بالبلاد.

كان وجيه وأصدقاؤه على يقين بأنَّه لا يمكن أن تقوم دولة متقدِّمة في الشرق يسيطر على قراراتها رجال الدين. ادخال الدين في إدارة مجتمع متنوع الأعراق والديانات كمجتمعنا الذي نعيش فيه يضع مستقبل الشعوب في أيدي حفنة من المتزمتين يحكمون باسم الإله ويحتمون بآلاف بل عشرات الآلاف من الجُهَّال المهلِّلين للهراء الذي ينشرونه في خطب أيام الجمعة وفي حلقات التدريس التي يقيمونها في المساجد.

أذكر كيف ضاق وجيه يوماً بالفتاوى التي أصدرها شيخ الإسلام أو

من ناب عنه عن ضرورة الالتزام بما أسموه اللباس الإسلامي!

ـ يمطر رجال الدين رؤوسنا بفتاوى لمسائل فرعية يشغلون الناس بها ويُهملون تلك التي تشكل تحديات لنهضة الأمة كمشكلة التعليم. يتركون هذه المسألة، رغم أهميتها، معلَّقة ويرفضون، رغم الضغوط التي تُمارَس عليهم، بالإقرار بأن التعليم واجب شرعي ويجب ألَّا تُستثنى منه الفتاة. كيف يمكن أن نهمل تعليمها ونتوقع أن تنشئ لنا أجيالاً على درجة كافية من الوعي.

هذا ما قاله وجيه شارِحاً الحاجة لفرض التعليم الإلزامي وحاجة الأنثى للعلم لبناء فكرها وتمكينها من القيام بدورٍ فعال في المجتمع.

أضافت نازك العابد التي أتت بصحبة أخيها مظهر:

ـ عين الجهل أن يصرف رجال الدين أوقاتهم لإصدار فتوى بل فتاوى حول طريقة اللباس ويلاحقوا بالتهديد والوعيد كلَّ من لا يلتزم بها؛ كيف يمكن أن ينشغل الإله بالزي الذي نرتديه أو يُبالي إذا لم يغطِ الطربوش رؤوس الرجال ولا يغضب لأننا منعنا طفلة من حقَّها في تعلُّم القراءة والكتابة؟ إدخال الدين في شؤون الدنيا عائق في سبيل نهضة البلاد.

أجابها مظهر بحماس:

ـ تمكين رجال الدين من السيطرة على عقول العوام يقتل كل ما هو تقدمي وإنساني. نهض الغرب عندما أبعد الكنيسة وسيطرة رجال الدين والكهنة عن الشؤون الإدارية والمدنية. طال أمد تسلُّط رجال الدين علينا وها نحن اليوم ندفع ثمن تدخلهم في اتخاذ القرارات التي تمَّس الصالح العام. لا يُمكن أن تُترك دفّة قيادة المجتمع في أيدي أصحاب الفكر المُتزمِّت يُصدرون فتاواهم قياساً على أحداثٍ جرت في حياة أقوامٍ عاشت

في القرن السابع الميلادي.

أجابه يومها الأمير سعيد الجزائري[54] جالساً على مقعدٍ وثيرٍ وبجانبه طاولة منخفضة سطحها من الرخام عليها فنجان قهوته المُرَّة وأطباق المكسرات والفواكه المجففة، بأنّه سمع نادرةً، نقلها بعضهم عن جدِّه الأمير عبد القادر، عن قصة أحد الأثرياء المتنورين الذي أراد إنشاء أول مطبعة في الإمبراطورية العثمانية.

قال إنَّه عندما تقدم هذا الثري بطلبه لتشييد مطبعة في إستنبول واجه معارضة شديدة من رجال الدين وماطلوه لسنين طويلة في إصدار الفتوى الشرعية بشأنها مما اضطره للجوء إلى السلطان. عندما سمع السلطان شكواه تعجَّب وتساءل هل يمكن أن يكون شرع الله هو الحاجز الذي يُعيق نشر العلم والمعرفة؟

استدعى السلطان شيخ الإسلام وأمره بأن يفتي أن المطبعة التي أوجدها الإنسان بهداية من الله وفضله، نعمةً من نعمه لأنها وسيلة من وسائل نشر العلم والمعرفة بين الناس.

عقب شهور من المشاورات والاجتماعات والمداولات أصدر شيخ الإسلام فتواه بجواز إنشاء المطبعة شرط ألَّا تطبع القرآن الكريم أو الكتب الدينية!

ـ وهكذا أُنشِئت يا أصدقائي أول مطبعة في إستنبول بعد أن مضى على اختراع المطبعة ما يزيد عن قرنين ونصف من الزمن وبعد أن أنشأت فرنسا مطبعتها الوطنية بحوالي قرنين.[55]

لم يُعلِّق على هذه الحادثة أحد؛ الصمت وهزّة الرؤوس عبَّرتا عن الأسى والأسف.

بعد لحظات من الصمت، علق فخري البارودي[56] وكان قد قطع

دراسته في فرنسا وعاد إلى أرض الوطن نزولاً عند رغبة والده:

ـ ونتعجَّب عندما ينظر إلينا الغرب على أننا أمة غير ناضجة وتحتاج إلى وصاية. طبعاً أنا لا أبرر الإهانة التي لحقت بالمصريين في الكلمة التي ألقاها روزفلت في مبنى الجامعة في القاهرة من أسابيع قليلة.[57]

أجابه وجيه الذي انشغل بإعادة ملء فنجاني بشراب اللوز الدافئ المعطر بالقرفة:

ـ يحرص الغرب على ألَّا تفوته فرصة صغيرة كانت أو كبيرة لزرع الفتن؛ ألم يعزو روزفلت، جهلاً أو مكراً، اغتيال رئيس الوزراء بطرس غالي إلى التعصب الديني الذي وصم به المصريين لإشعال فتنة بين الأقباط والمسلمين هناك؟ ألا يعرف سيادته المناصب العديدة التي شغلها بطرس غالي في الدولة ولا زال يشغلها غيره من المصريين من غير المسلمين؛ كيف وصل بطرس غالي إلى ما وصل إليه لو كان المصريون يشكون فعلاً من التَّعَصُّب الديني؟ ثمَّ ألم تطل يد الغدر سياسيين ورجال دولة ورجال دين مسلمين في مصر؟ لماذا لم يأت على ذكرهم؟

أشعل الأمير سعيد الجزائري سيجاراً قدمه له وجيه ونفث دخانه على مهلٍ. عدَّل من جلسته قائلاً:

ـ سياسات الغرب، رغم كل مظاهر التحضر والرقي، تحكمها أطماع استعمارية بغيضة. لن يوافق الإنكليز على منح الدستور للمصريين خاصة وأن دستور الدولة العَلِيَّة أصبح فاعلاً هنا في بلاد الشام. منهجهم "فرق تسد" وسياستهم تؤكد هذا المنهج، حقارتهم تكمن في احترافهم منهج تحميل أبناء الشعب نتائج المصائب التي يخططون لها ويقوم بتنفيذها البعض من ضعاف النفوس من أهل البلد.

أجابه فخري الذي جلس منحنياً قليلاً إلى الأمام ومرفقيه على

ركبتيه يُصغي بانتباه لمحمد سعيد:

ـ تأكيداً لكلامك، قرأت في جريدة المقطم[58] أنَّ روزفلت عارض في خطبته بشكل مُبطَّن الحركة الوطنية المطالبة بالدستور في مصر مُخيباً آمال المصريين وداعماً بذلك سياسة الاستعمار البريطاني فيها؛ يعرف الغرب أنَّ عودة مصر إلى أحضان الدولة العثمانية ستكون رافداً لنجاح دستورنا الذي بدأ يرى النور ويُبشِّر ببناء دولة عصرية قوية في بلاد الشام أساسها العدل والمساواة لرعايا الإمبراطورية. يخاف الإنكليز عودة مصر للانضواء تحت جناح الدولة ودستورها الفاعل. وحدة رعايا الدولة العثمانية في رقعة كبيرة من الأراضي ذات الموقع الحيوي والتجاري سيهدد مصالح الإنكليز وحلفائهم في المنطقة، خاصة فيما يتعلق بحركة الملاحة والتجارة عبر قناة السويس.

قال وجيه بمرارة وقد عاد للجلوس على طرف الأريكة التي أجلس عليها:

ـ لن يسمحوا بأي تقارب؛ علينا أن نسعى لنشر الوعي وفضح مخططاتهم.

أجاب الأمير محمد سعيد بشيءٍ من القلق:

ـ نأمل أن نسمع المزيد من شكري بك العسلي الذي يزور القاهرة حالياً. سأكون في ضيافته في الناصرة لإنهاء بعض الأمور المتعلقة بالتجارة في مطلع الشهر القادم بإذن الله.

أعوامٌ من الأحزان

لولا الزمن، هدية الخالق لنا، لما احتملنا العيش بعد رحيل الأحبة. تشيخ أحزاننا وتهِن قلوبنا، فلا يبقى من ألم الفراق الذي كان يوماً فوق طاقة احتمالنا سوى غصة الفراق ومرارة الذكريات.

توفي أبي قبل أسابيع من إعلان الدولة العثمانية دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا.[59]

لم نعرف أن غيابه عن البيت لساعات طويلة وسفره المتكرر كان بسبب استعدادات الجيش العثماني لدخول الحرب.

رحل في يومٍ خريفيٍّ غائمٍ من عام ١٩١٤ ميلادية. انتظره إخوتي وأهل البيت لإمامة صلاة الفجر بعد عودته من زيارةٍ لبعض رؤساء وحكماء الدروز في قضاء حوران وما جاورها. عندما طال انتظارهم، عرفوا أنَّ في الأمر حادثاً جللاً.

عاد ليلاً من مهمته مُنهَكاً؛ لم يبدِّل ثيابه، نام نومته الأبدية ببذلته العسكرية ونياشينه وحذائه. وجدوه في سريره وقد فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها.

كان أبي، رحمه الله، رجلاً شجاعاً يدين لشرفه العسكري كما لو كان يدين لإله معبود. أتراه تنبأ بهزيمة بلاده فقرر الرحيل!

فُجعنا بموته المفاجئ ولمَّا ينقضِ على مصابنا بوفاة حورية سوى سنة وبضعة أشهر. لم أر أبي يبكي، تألم فقط لرحيل أمي لكنه لم يبكِ. بكى ابنة أخته الوحيدة لأيام.

عمتي نظيرة لم تبكِ؛ احترقت دمعتها عندما جاءها خبر وفاة ابنتها.

جاءت حورية إلى هذه الدنيا كدمية من نور، أضاءت حياتنا لسنوات قليلة وانطفأت عن عمرٍ لم يتجاوز السادسة عشرة.

قالت لي عمتي بعد أشهرٍ قضتها غارقة في صمتٍ غاضبٍ:

ـ حورية على وصول، هي قادمة لزيارتنا!

راعتني مقولتها رغم أنني توقعت هول فجيعتها؛ أنا أيضاً كنتُ انتظر معجزةً تعيد إليَّ ربيع حياتي. عندما طال انتظاري وأيقنتُ أنه عندما يأخذ لا يُعيد؛ استعنتُ بالصبر؛ الصبر على ألم لا يُشبهه ألم، ألمٌ يضني الروح ويكسرها.

عمَّتي لم تكن يوماً صبورة. انتظرت المسكينة معجزة تبعث روح الحياة في عالمها الذي انهار برحيل ابنتها؛ عندما لم تجدها، اختلقتها.

يسحقنا يأسنا فننسج أوهاماً نتعلَّق بها حتى لا تجرفنا أحزاننا إلى هاوية الجنون.

* * *

بعد رحيل أبي، انتقلت أختي الصغيرة نازلي ومربيتها سعدية وأخي مراد للعيش معنا. أصرَّت عمتي على حضانتهم، قالت أنَّها تريد لأخوتي الشباب بناء مستقبلهم بعيداً عن التزاماتٍ أسريةٍ قد لا يجدون لها الوقت الكافي.

رحبتُ أنا بالفكرة وبذلتُ ووجيه كل ما في وسعنا لإقناع أخي سليم الذي عارض في البداية لكنَّه خضع تحت إلحاح نازلي ومراد وضغط محمود ومصطفى.

استعادت عمتي نشاطها والكثير من حيويتها لوجود إخوتي بيننا. انشغلت في البداية بإعادة تجهيز غُرف نوم الجناح الشرقي ونقل غرفة خليل إلى الجناح الغربي. شاركت نازلي عمتي غرفتها وشغل مراد غرفة

خليل الذي انتقل للإقامة في جناحنا.

بقيت غرفة حورية مُقفلة.

ذكرت لي نازلي مراراً أنها تسمع عمتي في بعض الليالي تتكلم أثناء النوم. تتحدَّث تارةً مع أبي وطوراً مع حورية. كلامها هادئ لكنه غير مفهوم، لسانها يلهج كثيراً باسم حورية.

متى تبرأ عمتي من فجيعتها!

* * *

أقفرت أُمسياتنا برحيل حورية وجفَّت أيامنا بوفاة أبي.

بإعلان الحرب، خدم سليم في صفوف الجيش كطبيب وانشغل مصطفى ومحمود في تحصيلهما العلمي. رابط وجيه في ثكنته العسكرية في جنوب سوريا قائداً لفرقة من فرق الخيَّالة المُقاتلة في الجيش الرابع.

لم أعد أرى زوجي إلا أثناء إجازاته القصيرة المتباعدة، أياماً معدودة، كل شهر، شهرين، وأحياناً ثلاثة. أغلقنا غرفة الاستقبال في الجناح الغربي وتوقف منتدى الثلاثاء الشهري.

استعادت غرفة استقبالنا بعضاً من ألقها عندما أصبحت مُلتقى لأصدقاء خليل وأخي مصطفى من محامين وصحفيين. شبانٌ مُتحمِّسون وفي كثيرٍ من الأحيان قلقون مما يجري على الساحة الدولية من حروب واضطرابات. غابت الآنسات والسيدات عن هذه اللقاءات فامتنعتُ أنا عن الحضور.

* * *

تخرَّج خليل وأخي مصطفى من المدرسة السلطانية في دمشق والتحقا بمدرسة الحقوق.[60] واظب مصطفى على دراسته ونال إجازة في الحقوق. لم يُوفَّق خليل في إتمام دراسته؛ وفاة أبي، فوضى الحرب،

وغياب زوجي عن البيت دفعا خليل للتخبط في الأحزاب السياسية والتقلُّب في التيارات الوطنية التي نشطت في تلك الفترة. أهمل دراسته وتركها نهائياً عندما بدأ يكتب في الصحف المحلية ولاقى قلمه السيال الكثير من التوقير والإعجاب.

امتهن الصحافة أو بمعنى أدقّ امتهنته الصحافة؛ اسم العائلة والصلات الاجتماعية التي يتمتع بها منحتهُ البريق اللازم لكتاباته وجعلت منه صحفياً لامعاً. اكتسب قلمه الكثير من الأهمية عندما بدأ يُسخّرُه لخدمة مآرب المتنفذين والمُتهالكين على السلطة.

تسابقت الصحف في نشر مقالاته، وتسابق الانتهازيون والمتنافسون على السلطة لشراء ودِّه. كان قادراً بسحر بيانه على تلميع إنجازات بعض الفاشلين منهم وجعلهم أكثر ملائمةً للمناصب التي يشغلونها أو ينوون شغلها. على عكس وجيه، ورُغم ذكائه، لم يحمل خليل فكراً حراً ولم يتبنَّ يوماً مبدأً يدافع عنه.

* * *

في أحد اجتماعاتنا العائلية، حَمِيَ النقاش يوماً بين خليل ومصطفى وكاد يفضي إلى خصومة بينهما. اختلفا حول أحد الأصدقاء الذين قام أحمد جمال باشا المعروف بالسفَّاح[61] بإعدامهم في دمشق.[62]

ـ لم يكن شكري العسلي يا خليل متآمراً.

ـ لا يهم، قضى ورفاقه على مستقبلهم السياسي الذي كان يوماً واعداً.

ـ رجال شجعان.

ـ لا أسميها شجاعة، هي تهور وقلة حيلة.

ـ غررت بهم بريطانيا؛ كانوا صادقي النوايا.

ـ تماماً، أنا لا أختلف معك. صدق النوايا لا يكفي. قادتهم أفكارهم

الغير ناضجة إلى حبل المشنقة!

ها... ها... ها.

ـ يكفي شكري العسلي فخراً أنه أجبر جاويد بك[63] وزير مالية الحكومة المركزية على الاستقالة بعد أن فضح تورطه في بيع الأراضي الفلسطينية للصهاينة.

ـ لم يكن شكري الذي أنهى مستقبل جاويد السياسي بل نفوذ والد عارف، سامي بك، في إستنبول. ألم يخسر شكري العسلي قضيته ضدَّ إلياس سرسق الثري اللبناني الذي باع أراضي فلسطينية شاسعة للصهاينة؟ ذهب لقلة حيلته ما يزيد عن ١٢٠٠٠ دونم من أجود الأراضي حول الناصرة وجنين إلى شركة يهودية، شركة تنمية الأرض في فلسطين!

ـ مهما قلت، كان وطنياً وصاحب مبدأ.

ـ لا يا صديقي، هو وأصحابه مجموعة من المندفعين، أو، إن شئت الساذجين؛ وطنيون بلا خبرة ولا تنسيق. لم يفهموا أصول اللعبة السياسية.

ـ لعبة! خسرنا رجال فكر وعلم. ما أحوجنا إليهم للاستقرار والبناء.

ـ تحتاج السياسة إلى مكرٍ وحنكة ويحتاج الاستقرار إلى وعي وتخطيط؛ لا يمكن أن تبني في مجتمع يتآمر فيه الكل على الكل ويُسخِّر رجاله أنفسهم لتنفيذ المؤامرات التي تُحاك ضدَّهم؛ هذا جهل وغباء.

ـ كان إعدامهم غلطة سندفع ثمنها غالياً.

ـ ندفع ثمنها! أنا لا أدفع، أنا فقط أقبض.

ـ أعرف، وهذا ما يُؤْسَف له.

ـ متى تفهم أن الصحافة فن، عليك أن تعرف مفاتيح الحاكم ومزاج الشارع لتكتب بفعالية ونجاح.

ـ هذه ليست صحافة، هذه تجارة، الصحافة فكر حر.

ـ أنت تتبنى أيها المحامي البارع آراءً مثالية لا تمتُّ لواقعنا بصلة.

ـ هنيئاً لك قلمك الذي لا يعرف مبدأ ولا ناموساً!

ـ هذِّب ألفاظك يا مصطفى؛ أنا لم أغلط في حقك.

تدخلت عمتي بصوتٍ آمرٍ.

ـ كفى.

تابعت.

ـ هل هناك جديد من سليم؟

ـ في ثكنات الجيش يُطبِّب الناس بالمجَّان!

ـ خليل!

ـ ها ها ها ... صاحب مبدأ.

ـ خليل، كفى!

ـ لا عليكِ يا عمتي، تعودنا عليه. استهوته الصحافة بفنونها. لأول مرَّة أعرف أن الصحافة فن! لعلها فن التلاعب بالحقائق والمخاتلة في المواقف.

ـ مصطفى، انتهينا. ما أخبار سليم؟

ـ وصلتني منه رسالة من عدَّة أيام، أرسلها مع صديق له، هو في حلب، بخير يُقبِّل أياديك.

ـ ومحمود؟

ـ أطمئن عليه من وقتٍ لآخر. يقضي وقته ملازماً زاوية شيخه في المسجد الأموي.

ـ ماذا عن دراسته؟

ـ توقف عن متابعه دروسه. أنتظر عودة سليم، هو الوحيد الذي يمكن أن يقتلع محمود من عزلته الصوفية هذه.

- لو كان وجيه بيننا! اللهم ردَّه إلينا سالماً غانماً.

ـ غانماً! نحن في زمن لا نملك فيه يا أمي مصائرنا.

وغادرني وجيه

ودعنا شتاء هذا العام بأن استيقظنا فجر اليوم وقد ازدانت مدينتنا بالأعلام وضجت شوارعنا باستعدادات مهولة لزيارة أنور باشا، وكيل القائد الأعظم للجيوش العثمانية، ناظر الحربية[10].

جاء وجيه ليلة البارحة في زيارة خاطفة لنا؛ وصل البيت متأخراً.

استيقظ قبل الفجر، اغتسل بسرعة ونزل لتناول الإفطار وستائر الليل لا زالت مُسبلة. لم يكن سعيداً. بدا مهموماً وحزيناً. لم يقرب إفطاره اكتفى بشرابه الصباحي المفضل، مغلي الحليب بالقرفة المُحلَّى بالعسل. سألته والدته:

ـ تبدو مهموماً يا ولدي!

ـ لا شيء يا أمي.

أجاب خليل الذي استيقظ مُبكِّراً على غير عادته ليكون معنا على طاولة الإفطار:

ـ لعلها زيارة أنور باشا لدمشق في هذه الظروف السيئة!

أجاب وجيه دون أن يحيد بنظره عن الصحن الذي أمامه:

ـ من ناحية الظروف، فهي لا شك سيئة، أفكار الناس تفور وقلوبها تغلي والسجون تعج بالمعتقلين.

هزَّت عمتي رأسها علامة الأسف. ناولت وجيه قطعة خبزٍ صغيرة

10 زار أنور باشا، وكيل القائد الأعظم للجيوش العثمانية، ناظر الحربية، دمشق في ١٧ ربيع الثاني ١٣٣٤ الموافق ٢٠ شباط، فبراير ١٩١٦.

غمرتها بالقشدة وخيوط العسل. قالت بحزن:

ـ ألم يكتف جمال باشا؟

وضع وجيه قطعة الخبز في صحنه بعد أن قضم طرفها. سألها:

ـ تقصدين الاعتقالات الواسعة والإعدامات التي نفذها بمجموعة من الرجال في بيروت في العام الماضي؟[64]

ـ هي وغيرها!

علَّق خليل والطعام يملأ فمه:

ـ يلقى من تآمر على الدولة العقاب الذي يستحقه! ها، ها، ها...

أجابه وجيه بحدَّة:

ـ أغلق فمك عندما تأكل! ثم من قال أنَّ المزيد من التنكيل مُجدٍ؟

ـ يقولون أنَّ الوثائق التي وُجِدَت في دار القنصل الفرنسي في بيروت عندما داهمها الدرك العام الماضي كشفت عن مُخطَّط مهول لقيام ثورة تسلخ بلاد الشام عن الدولة العثمانية بمساعدة وحماية فرنسا وبريطانيا.

ـ الموضوع لا شك خطير لكنَّ الصحف والقنصليات الأجنبية تنشر الكثير من اللغط الذي تتلقفه أنت وأمثالك لصياغة أخبار الإثارة والتشويش على أجهزة الدولة.

أجابت عمتي بخوف:

ـ ثورة! يا لطف الله؛ ويعتقد جمال باشا أنَّ إعدام بعض الشباب سيُنهي المشكلة!

مسح خليل فمه بفوطة الطعام ووضعها في صحنه، توجه بسؤالٍ لوجيه وعلى وجهه ابتسامة لئيمة:

ـ يقولون أنَّ الرأس الكبيرة لهذا المخطط في المدينة طليقة، وظَنِّي

أن جمال باشا لا يقوى على مواجهة خصمه لاعتباراتٍ كثيرة.

ـ لا أعتقد أن جمال باشا غافل، الساحة الآن كرقعة الشطرنج؛ أي حركة غبية ستصاحبها بلا أدنى شك خسائر جسيمة، التركيز اليوم على تقليل الخسائر طالما لا يمكن تجنبها مع الحرص على ضمان النتيجة، الفوز، أو على الأقل عدم الخسارة.

عقد خليل حاجبيه في محاولة للفهم وأطال النظر ناحية وجيه الذي غرق في أفكاره وانشغل عنه بتمسيد فم الفنجان الذي أمامه بأطراف أصابعه.

قال وجيه بعد فترة صمتٍ قصيرة:

ـ أنا في الواقع قلق على مصير الموقوفين يا أمي؛ خاصةً شكري العسلي وعمر الجزائري.

ـ لا تتدخل يا ولدي؛ دعوات الأمهات الحزانى لا تضيع.

ضحك خليل هازئاً من والدته، ذابت ضحكته في فمه عندما رأى نظرة الغضب التي أطلَّت من عيني وجيه. قال ليخفي ارتباكه:

ـ لعلَّ زيارة أنور باشا لدمشق هدفها الضغط على جمال باشا لإصدار العفو عنهم.

أهمل وجيه التعليق، رفع فنجانه لبحر الزين يطلب المزيد من الحليب.

بعد لحظات من الصمت الثقيل، قال خليل:

ـ سمعت بأن فيصل ابن الشريف حسين في دمشق قيد الإقامة الجبرية.

رفع وجيه رأسه، تأمَّل وجه خليل لدقائق ثم قال:

ـ سدَّ أذنيك في المستقبل حتى لا تسمع أخباراً لا تعرف ما أنتَ صانعٌ

بها.

ـ أعمل في الصحافة ومثل هذه الأمور تهمُّني.

ـ دع عنك هذا الكلام الذي لا طائل من وراءه وعُدْ إلى دراستك.

ـ موضوع دراستي انتهى، لن أعود إليها. اخترت الصحافة وأعمل بها.

نظر إليه وجيه بأسى وهزَّ رأسه بأسف:

ـ سيصل أنور باشا في الساعات القليلة القادمة إلى دمشق وسينشغل الناس لأشهر عديدة بالصفحات التي ستملأها أنت وغيرك تمجيداً لزيارته. إلهاء العوام عما يدور حولهم شغل الصحافة الشاغل هذه الأيام.

أطرق خليل ولم يُحِر جواباً.

تنهدت عمتي بحسرة وقالت:

ـ لو كان أخي على قيد الحياة لما وصلت الأمور في دمشق إلى ما وصلت إليه.

أجبتُها بحزن بعد أن مسحت دمعةً غلبتني:

ـ رحم الله أبي.

قام وجيه عن الطاولة، انحنى وقبّل جبهة عمتي التي جلست على رأس الطاولة:

ـ أستأذن يا أمي؛ أُبدِّل ثيابي وألتحق بفرقتي.

ـ في رعاية الله يا ولدي.

رافقتُ زوجي إلى جناحنا. طلب بذلته العسكرية التي يرتديها في المناسبات الرسمية الخاصة. ارتداها على عجلٍ بمساعدة خادمه زكي. عندما انتهى، وقف أمامي كعادته منتصباً لأضبط له سترته وأتفقَّد هندامه.

احتقنت عيناي بالدموع ...

عانقني برفق رغم وجود الخادم؛ وقال:

ـ عليَّ أن أكون على رأس لواء الخيالة في استقبال أنور باشا بعد ساعة من الآن، لن أغادر قبل أن أرى ابتسامتك. كيف أبدأ صباحي إذا لم تُشرق عليَّ شمسي لتنير لي يومي؟

ابتسمتُ رُغماً عني.

ـ متى أراكَ مُجدَّداً؟

ـ الليلة، سأعود فور انتهاء مأدبة العشاء التي سيُقيمها رئيس بلدية دمشق على شرف ناظر الحربية.

ـ سأكون في انتظارك.

* * *

احتفلت دمشق بوصول أنور باشا، وكيل قائد الجيوش العثمانية، ناظر الحربية وانتشرت قبل طلوع الفجر في ساحات دمشق وأزقتها مجموعات كبيرة من رجال الشرطة والدرك والبصَّاصين أو جواسيس الدولة. هلَّلت مدافع الحصون عند وصول الضيف الكبير وخرجت الناس من بيوتها لتشهد العروض العسكرية المَهيبة التي قامت بها مجموعات من قطاعات الجيش من الجنود النظامية على أنغام الموسيقى العسكرية وقرع الطبول. تحولت دمشق إلى كتلة من نور عندما جابت شوارعها في ذلك المساء مواكب المشاعل والمصابيح التي حملها طلاب المدرسة العسكرية وطلاب مدرسة الدرك وقد انتظموا في صفوفٍ غطت الساحات وضاقت بهم شوارع دمشق على اتساعها. رغم ذلك، بدت لي دمشق في ليلتها تلك حزينة.

جلستُ بعد العشاء في جناحنا بانتظار عودة وجيه. قارب الليل على انتصافه ولم يأتِ بعد؛ غفوتُ في ركن غرفتنا على الوسائد بثوب نومي

الحريري العاجي الذي يُحاكي لونه لون بشرتي. وقع اختياري على هذا الثوب بعد أن احترتُ بينه وبين آخر يُحبه زوجي كان قد اشتراه لي من بيروت. ثوب حريري بلون أزهار التُفاح التي تستقبل الحياة بفرحةٍ خجولة. رفعتُ شعري بأمشاطٍ من العاج المطعَّم بالفضة وأحكمتُ خصلاته بمشابك على شكل تاجٍ تربَّع على قمة رأسي.

أعرف ولعَ وجيه بمداعبة شعري المُرسل دون قيود وشوقه الزائد لتحرير "شلالات النور"، كما يسميها، من معتقلاتها. عطَّرت ثنايا جسمي بهمساتٍ رقيقة من مزيج المسك والعنبر، العطر الذي يحرص وجيه على جلبه لي من تاجر عطورٍ يوناني يقيم في الاسكندرية. سأُعوض لزوجي في ليلتنا هذه عن كل الليالي التي قضاها بعيداً عني.

* * *

عاد وجيه بعد منتصف الليل مُنهكاً يشكو من صداعٍ وضيق في الصدر. قال مُعتذراً عندما دخل جناحنا ورآني غافية في الركن بانتظاره:

ـ تأخرت عليك.

قمتُ من مكاني، حضنته وساعدته على خلع بذلته بعد أن طبع قبلةً صغيرةً على فمي.

ـ كيف كان يومك؟

ـ حافلاً بالخُطَب والقصائد، والكثير، الكثير من النفاق. آه يا فاضلة، لو كان خالي حاضراً لما تجرأ أصحاب الألسنة الزَلِقة في التمادي في تقديم ولاء غير مشروط لناظر الحربية بعد تقبيل الأيادي وربما الأحذية، إذا لزم الأمر.

ـ هل الأُمور سيئة إلى هذه الدرجة؟

ـ أسوأ مما يتوقعه أي إنسان لديه ذرة من الكرامة.

نكَّستُ رأسي حُزناً. أمسكتُ يده بعد أن انتهى من تبديل ثيابه واتجهنا إلى ركننا المفضل. توسدنا السجادة الصوفية. مددت ساقي ليريح وجيه رأسه المتعب في حضني. مسدتُ له جبهته برفق. أغمض عينيه علامة الاسترخاء. همس معتذراً:

ـ لم أقصد أن أشغل بالك حبيبتي؛ لولا أنني وعدتك بقضاء الليلة بجانبك لفضلت الالتحاق بفرقتي بعد هذا اليوم الصاخب لأنأى بنفسي عن أجواء السياسة الموبوءة في بلادٍ ابتُلي رجالها بالنفاق.

ـ ألم تقل أنَّ والي سورية ومفتي دمشق ورئيس البلدية والعديد من علماء ومشايخ وأعيان البلد قد وعدوا باستغلال زيارة ناظر الحربية اليوم للتوسط لديه للعفو عن الشبان المُعتقلين بالخيانة بتُهمٍ مُلفَّقة كما ذكروا لك ولأصدقائك؟

ـ هذا ما توقعته أنا ومن حَضَرَ هذه المناسبة من الشبان بعد أن تلقينا الوعود تلو الوعود من كبار رجالات البلد وأعيانها للتدخل لحل هذه الأزمة. انتظرنا أن يذكر أحدهم، ولو تلميحاً إلى هذه القضية عبر الخُطب الطنَّانة والقصائد الرنَّانة التي ألقوها خلال برنامج الزيارة الحافل، دون جدوى. رغم ذلك، لم نفقد الأمل، اعتقدنا أن مأدبة العشاء التي أقامها رضا بك الركابي وحضرها الأمير شكيب أرسلان مبعوث حوران وجبل العرب وتليت فيها القصائد والخُطب، هي المناسبة التي سيستغلها رجالات الدولة لطلب العفو للمُعتقلين.

ـ لم يفِ أحدهم بوعده!

ـ أبداً؛ ولا حتى بالإشارة. بدل من إثارة هذه القضية، التي هي قضية حياة أو موت بالنسبة لخيرة شباب بلاد الشام المحتجزين خلف القُضبان، وعوضاً عن اقتناص هذه الفرصة الذهبية للنُصح لناظر الحربية

من أجل وحدة الصف وإعادة حس الانتماء للدولة والوفاء لبناء مستقبلها الذي تتهدَّد مصالحه الدول الغربية، استمعنا ولساعات طويلة مُضنية إلى عبارات جوفاء فيها من الخنوع والتذلل ما يندى له الجبين وزادوا عليها دعوات خرقاء بإطالة عمر السلطان وتسديد خطى ناظر الحربية، مُمثِّل السلطان الأعظم، لما فيه صلاح الأمة وعزتها! كيف تصلح أمة يُظهر رجالها عكس ما يضمرون يا فاضلة، كيف؟ وكيف يعتز رجال هذه الأمة بأنفسهم عندما لا تملك النُّخبة الشجاعة اللازمة لإسداء النُّصح وإبداء الرأي، كما وعدوا؟ [65]

قضيتُ الساعات الباقية من ليلتنا تلك في غمٍّ وحزنٍ لما آل إليه حالنا وحال الناس في هذه البلاد. غفا وجيه مُتَوسِّداً ساقي لساعةٍ أو بضع ساعة، غادرني مع أنفاس الصباح الأولى واعداً بزيارتي في القريب، الذي أصبح بعيداً نحصيه معاً بالأسابيع وأحياناً بالشهور.

ودَّعته بابتسامةٍ مُطمئنة تؤكد الأمل بقُرب اللقاء.

قبَّلته بحنان وقلتُ له بحب لكن على استحياء، فأنا بطبيعتي لا أميلُ إلى الإفصاح:

ـ لا تعرف يا وجيه مقدار الحب الذي يملأ قلبي ويفيض به وجداني لك؛ أُحبك لوفائك ولنقاء سريرتك.

غمرني بساعديه وشدَّني إليه. قبلني بنهم فتركتُ له جسداً دافئاً يحميه من صقيع العُزلة التي شعر بها بعد أن خذله رجالاً وعدوا، ولم يفوا بوعودهم.

غادرني زوجي فعدتُ إلى رتابة أيامي أُحصي ساعاتها.

* * *

كانت زيارة أنور باشا كما توقع وجيه، نذير شؤمٍ على دمشق وأهلها.

فما إن انتهى جمال باشا من مرافقة ناظر الحربية في جولته التي جاب بها أنحاء بلاد الشام وصولاً إلى المدينة المنورة، حتى عاد إلى دمشق ليتابع سلسلة اعتقالاته ويدشنها بإصدار حكم الإعدام في حقٍّ بعض السجناء من رجالات دمشق وشبابها شملت شكري بك العسلي والأمير عمر الجزائري. أطلق سراح بعض السجناء بما فيهم محمد كرد علي[66] لتوفر بعض الأدلة على ولائهم ورفضهم التعاون مع فرنسا التي حاولت تجنيد العديد من الشباب المُثقف بدعوى الاستقلال. سُمِح لفيصل بن الحسين وأخيه بمغادرة دمشق لأسبابٍ قيل بأنها إنسانية. [67]

* * *

حميَ وطيس الحرب وجاءت الأوامر بإرسال تعزيزات من الجيش الرابع المرابط في أنحاء دمشق وجنوبها إلى خطوط التماس الأولى في فلسطين. غادر وجيه وفرقته ملبياً نداء الوطن ولم نعرف نحن أهل بيته موقعه أو وجهته، كل ما ذكره لي ولوالدته عندما جاء لوداعنا أنه لن يتمكن من زيارتنا خلال إجازاته كما كان يفعل، موقعه هذه المرَّة بعيد.

* * *

عرضت عمتي بعد أن طال غياب زوجي عن البيت أن أشغل غرفة حورية.

فوجئتُ بطلبها.

ـ لا أرتاح إلا في غرفتي؛ سمحة لا تفارقني يا عمتي. تنام عندي، تضع فرشتها كل ليلةٍ في ذيل غرفتي وتنام.

منذ أن تلقينا نبأ وفاة حورية لم تسمح عمتي لمخلوق أن يقترب من غرفة ابنتها. كانت تدخلها وحيدة تقضي فيها بعض الوقت وتخرج لتروي لي تفاصيل عجيبة. تُصِرّ أن حورية تأتي للاطمئنان عليها في خلواتها وتنقل

إليها أخبارها!

قالت لي يوماً:

ـ رأيتُ حورية البارحة في المنام.

ـ خير يا عمتي.

ـ أنجبت طفلةً، سبحان الخالق، نسخةً منها.

رفعت نازلي رأسها والتفتت ناحيتي متسائلة! وضعت سبابتي على فمي أدعوها للسكوت. خفضت رأسها وعادت إلى كتابها.

ساد صمتٌ طويل.

ـ تنوي زيارتنا.

ـ مَن يا عمتي؟

ـ حورية! ألم تشتاقي إليها؟

أجبتها بمرارة:

ـ اشتقتُ إليها.

ـ لا تنسي أن ترسلي مسعود ليُحضرها وطفلتها غداً صباحاً من محطة القطار.

ـ أمرك عمتي.

أرسلتُ مسعود في الصباح إلى محطة القطار وعاد لعمتي بطيف ابنتها. دخلت الغرفة من جديد وأحكمت إغلاق الباب وراءها.

ستقضي يوماً آخر في أحضان الغرفة الخاوية تبحثُ فيها عن دفء أمومتها.

مسكينةٌ عمتي؛ حاكت من خيوط أوهامها نسيجاً للمستحيل وفصلته ثوباً ترتديه كلما هدد الصقيع دفء قلبها؛ صقيعاً لا يعرفه إلا قلب أمٍ فجعها الفراق!

أخشى أن تموت عمتي قهراً.

خليل

يقضي خليل ساعات النهار في مكتبه في مَقَّر الصحيفة التي يعمل بها. عمل في بداياته في جريدة الشرق [68] ثم انتقل للعمل في العديد من الصحف والجرائد اليومية التي نشطت بعد هزيمة تركيا وخروجها من الحرب.

يقضي ساعات ما بعد العمل في الغالب في بيت أبي مع مصطفى وبعض الأصدقاء. يعود في الليل متأخراً لينام.

يجافيني النوم في بعض الليالي فأسهر في غرفتي أقرأ. أنتقي كتاباً من مكتبة وجيه أو أقرأ في الصحف والمجلات التي يأتيني بها خليل وأخي مصطفى.

عندما يجد خليل نور غرفتي مضاءً يستأذن بالدخول. أسمح له. أستأنس بوجوده وبالأخبار التي يأتيني بها.

أخبار الحرب التي تصلنا من الجبهة التي يرابط فيها وجيه متضاربة؛ آمالنا وكذلك توترنا يتصاعد أو يتوازن تبعاً للبيانات التي تصف الأحداث والمعلومات التي تنقلها الصحافة وبعض المطلعين من رجالات الدولة من معارفنا عن تحركات الجيوش.

قيل بدايةً أنَّ الجيوش العثمانية تمكنت من هزيمة الإنكليز في قاطبة وغزة وبأنَّهم أسروا بعض الضباط والجنود الإنكليز ونقلوهم إلى دمشق ومنها إلى إستنبول.

بلغني أيضاً أنه قبيل تجدد القتال، أعاد وزير الحربية تنظيم القوات ليضمَّ الفيلق الثامن في فلسطين سلاح الفرسان التي قاد زوجي إحدى

الفرق التابعة لها.[69]

لم أنم ليلتي والليالي التي تلتها عندما سمعت من خليل عن تحرك الانكليز لشن هجوم واسع استهدف غزة وبئر السبع حيث يرابط وجيه كما قيل لي. قضيتُ أوقاتي أُصلي وأبتهل إلى الله أن يحفظ زوجي وينصر جيوشنا ويحمي بلادنا من أطماع المستعمرين.

استعدتُ بعضاً من هدوئي وتفاؤلي اليوم عندما أتاني مصطفى بأخبار تؤكد ثبات خطوطنا الدفاعية في وجه الجيش البريطاني رغم انقطاع الذخائر ونقص الماء والطعام عن مقاتلينا. تأمّلتُ خيراً عندما عزا مصطفى أخبار نقص المدد إلى إشاعاتٍ مُغرضة يرمي العدو من ورائها النيل من ثبات الأهالي وزعزعة ثقتهم بالجيش.[70]

تسارعت الأحداث بعد أيام وانتشرت الأخبار عن زحف الإنكليز إلى القدس واستيلائهم عليها.[71]

دخلتُ، كما دمشق وأهلها، في طورٍ من الذهول والوجوم وعدم التصديق وحدَّثني قلبي عن وقوع حادثٍ مُروِّع لزوجي. أعرف وجيه، الموت عنده أرحم من الهزيمة أو الاستسلام.

* * *

تأكدت بعد أسابيع قليلة الأخبار الواردة عن سقوط القدس في أيدي الحلفاء وانتشرت أخبار تؤكد انقطاع الإمدادات عن جيوشنا التي حاولت إعادة تنظيم صفوفها خلال الشهور التسعة التي سبقت قرار انسحاب قواتها، أو بالأحرى ما بقي منها، عبر بلاد الشام باتجاه الأناضول معلنةً هزيمتها.[72]

أفل نجم آخر امبراطورية إسلامية حكمت الشرق لأربعمائة سنة، فغرقت دمشق وأهلها في حُزنٍ عميم.[73]

رغم هول فجيعتي بخسارة الحرب وقلقي على مصير زوجي إلا أني حمدتُ الله، ولأول مرة في حياتي على موت أبي. وفاته قبل أن يشهد سقوط القدس وبلاد الشام في أيدي الحلفاء كان، بلا أدنى شك، رحمةً له ولنا.

* * *

لم يعد وجيه مع العائدين من جبهة القتال ولم نعرف شيئاً عن مصيره. دُوِّن اسمه في سجلات مفقودي الحرب.

روى بعض الجنود العائدين من الحرب لإخوتي ولخليل الكثير عن شجاعة زوجي واستبساله وصموده في المعارك التي خاضها لكن معظم الأخبار التي وصلتني متضاربة؛ فزوجي تارةً في غزة مع فرقته يُقاتل، وأخرى في فيلق الناصرة، لا بل هو مع طلائع الجيش الزاحف لاستعادة القدس!

أمنع عن عمتي المسكينة هذه الأخبار حتى لا أزيد عليها صَدْمتها وأتساءل بيني وبين نفسي، كيف يمكن أن يتواجد شخصٌ واحد مع أفرادٍ يدَّعون أنهم قاتلوا إلى جانبه أو تحت إمرته في ثلاثة أماكن مختلفة وفي نفس الوقت؟ لعلَّ الأهوال التي يتعرض لها هؤلاء الشُّبَّان في مواجهة الموت مسؤولة عن الأخبار التي تُحيكها أفكارهم المشوشة.

المحزن، لا، لعلَّه المفرح، أن لا شيء مؤكَّد عن مصير زوجي. أتمسك بالأمل بعودته رغم امتلاء قلبي بالحزن والمرارة لما آل إليه حالنا بسبب الخيانات التي مارسها البعض من أبناء الوطن ممن باعوا ضمائرهم للغرب وتسببوا في استشهاد وإصابة المئات بل الآلاف من شبابنا الذين بذلوا أرواحهم للدفاع عن كرامة الوطن. وطن أضاعته خديعة صدرت عن مُستعمر غاشم لحفنةٍ متآمرة من طالبي المال والسلطة.

انتهى زوجي، كما العديد من الشباب الذين أَدُّوا واجبهم تجاه الوطن، ليكون رقماً في أحد سجلات الشهداء والمفقودين!

آه يا وجيه، قلبي يحدِّثني بأن قلبك الذي فاض حباً وعشقاً للوطن وللفن والشعر والموسيقى لا زال ينبض! وعدتني عندما غادرتني لآخر مرَّة أنك عائد، وأعرف يا حبيبي أن مثلك لا يُخلف الميعاد.

يا إلهي، هل أصبحتُ أُهذي كعمتي؟

* * *

نقر خليل هذا المساء على باب غرفتي.

نحيتُ الكتاب الذي كنتُ أقرأ فيه وأشرتُ لسمحة أن تفتح الباب.

ـ رأيتُ النور مضاءً، قلت، أطمئن عليك.

ـ ممنونة. أنا بخير.

ـ أتسمحين؟

ـ تفضَّل؛ كيف كان يومك؟

ـ طويلاً.

سأل سمحة أن تنزل إلى المطبخ لتحضير عشاء خفيف له. سألني إن كان بإمكانه أن يتعشى في غرفتي. استغربتُ الطلب لكنني لم أمانع.

جلسنا على السجادة السميكة الصوفية حول الطاولة الواطئة قرب مدفأة الحطب التي خبت نيرانها.

لم يكن خليل يأتي على ذكر زوجي في أحاديثنا السابقة إلا فيما ندر. بات مؤخراً يتحين الفرص لينفرد بي ويجهد ليُفهمني أن وجيه استشهد في الحرب وعليَّ أن أُساعد عمتي على تقبُّل الأمر.

عاد إلى موَّاله هذه الليلة.

ـ لا يُمكن يا خليل؛ هي تعيش على أملٍ واحد، عودة وجيه.

ـ وجيه لن يعود.

ـ بل سيعود.

ـ أكَّد لي بعض المجنَّدين بأنَّه استشهد. أُصيبَ بقذيفةٍ رفعته علو مئذنة عيسى، هكذا قالوا، رأوه يسقط أشلاءً.

ـ كيف يمكن أن يستشهد في غزَّة والناصرة أو على مشارف القدس؟ أُصدِّق بعض الخائنين الفارِّين من ساحة القتال وأُكذِّب تقارير الجيش؛ وجيه مفقود، لعلَّه في الأسر.

ـ مضى على فقدانه قُرابة السنتين دون أخبار.

ـ انعدام الأخبار في هذه الظروف يدعو إلى التفاؤل!

ـ تفاؤل! لو كان في الأسر لعلمنا.

ـ سيعود، إن لم يكن من أجلي فمن أجل عمتي.

ـ إلى متى ستبقين في انتظاره؟

ـ العمر كله!

فاضت دمعتي دون إرادةٍ مني.

مدَّ يده، لامس يدي وشدَّ عليها.

التفتُّ إليه.

تلاقت عيوننا.

توقعتُ أن أرى نظرة عطفٍ تطلُّ من عيني الصبي الذي كبر تحت ناظري وترعرع في أحضاني. يا إلهي، كيف لم أنتبه طوال هذه الأيام إلى الشبه الكبير بين خليل ووجيه؟

نفذت نظرة عينيه إلى أعماق روحي؛ أين غاب ذاك الصبي!

رفع يدي إلى فمه ولثمها. شعرتُ بدفء شفتيه.

قال:

ـ أُفكر دائماً بك.

جاءني صوته كصوت وجيه. نظرتُ إليه كالمشدوهة.

ـ شكراً، شكراً.

سحبتُ يدي وقمتُ إلى النافذة. نحَّيتُ الستارة، نظرتُ إلى الشرفة الغارقة في ظلامها.

ـ تأخرت سمحة.

قام ورائي. وضع يده على كتفي.

ـ إلى متى؟

أبعدتُ يده عني. وابتعدت.

ـ إلى متى ماذا؟

نظر إليَّ.

نادتني عيناه من جديد.

رأيتُه شاباً يضجُّ رجولةً. لو لم يكن مربوع القامة لخلته وجيه في إحدى خلواتنا.

خفق قلبي وارتعشت أعماقي للذكرى.

أسرعتُ إلى باب الغرفة؛ فتحته، هززتُ مقبض الجرس أستعجل سمحة.

جاء ورائي، شدَّني برفقٍ إلى داخل الغرفة، وقف وظهره للباب الذي أغلقهُ.

ـ الجو بارد.

هززتُ رأسي الذي لم يعد رأسي.

اقترب أكثر. غمرني ظلُّه بالدفء. لاحت لي عينا وجيه من جديد.

غضضتُ طرفي وابتعدت.

ـ أشعر بك وأعرف جيداً الظروف التي تمرِّين بها.

نظرتُ إليه بخوف.

تابع:

ـ لو فكَّرتِ قليلاً، حبيبتي، لوجدتِ أنَّ طريقنا واحد.

ـ ماذا تقول! هل جننت؟

ـ مجنون بك!

ـ اخرج من غرفتي، أرجوك.

تجاهل طلبي، اقترب مني أكثر.

شعرتُ باقترابه بدفءٍ ورغبةٍ كتلك التي كانت تجتاحني عندما يطلبني وجيه.

لامسَ وجهي بيديه وكادت شفتاه تلمسني.

نفرتُ وابتعدت.

ـ كيف تجرؤ؟

هرعتُ إلى الباب وفتحته؛ صرختُ فيه:

ـ اخرج من غرفتي ... الآن.

اجتاز الباب مُنكَّس الرأس. لم يقل شيئاً ولم يلتفت.

* * *

انتابتني نوبة من الهلع والغضب بعد خروجه.

تهالكتُ على كرسي المكتب القريب بعد أن صفقتُ الباب بِغِلٍّ وراءه.

أمسكتُ رأسي الذي كاد ينفجر بيديّ.

لا، لا يمكن أن يكون ما قاله قد قاله فعلاً؟

كيف تجرَّأ؟

لعلها الخمرة التي كانت تفوح من أنفاسه.

شعرتُ بالمهانة والخجل.

انهمرت دموعي رغم أنّي لم أذرفها؛ حبستها داخلي بكبرياءٍ مجروح.

دارت الغرفة بي، أكاد أفقد وعيِ.

أرحتُ رأسي على المكتب.

شممتُ رائحة زوجي التي تغلغلت في مسامات الخشب حيث كان يجلس ليكتب أشعاره. أيكون الجمادُ أوفى من البشر لذكرى من نُحب؟

عادت بحر الزين تساعدها سمحة ومسرورة بصواني العشاء. رددتهن بها وسط دهشة عيونهن والقلق الذي لاح على مُحيَّاهن لرؤيتي في هذه الحالة البائسة.

غادرن يتهامسن؛ قبل أن يتجاوزن باب الغرفة، أعطت سمحة ما بيدها لمسرورة وعادت إليَّ بعد أن أغلقت الباب وراءهن.

وقفت بجانبي والهلع يطلُّ من عينيها:

ـ سيدتي، وجهك أصفر وشفاهك بيضاء!

ـ أنا بخير، سأكون بخير.

أشحتُ بوجهي عنها.

ـ هل هناك أخبار سيئة عن سيدي وجيه؟

ـ لا، لا شيء؛ ساعديني لأصل إلى سريري. لن يزورني النوم في ليلتي هذه!

* * *

قضيتُ الليل مذهولة.

ناء قلبي بذنب الخطيئة رغم الرعشة التي كانت تعتريه كلما استرجعتُ نظرة عينيه.

كيف اختلطت عليَّ مشاعري؟

يا إلهي غفرانك.

قد يغفر ليَ الإله خطيئتي، لكن هل يغفر وجيه لأخيه هذه النذالة؟

قمتُ من سريري، التففتُ بعباءة زوجي الصوفية وجلستُ على مكتبه. رأيت ريشته التي يكتب بها تقفُ في محملها منتصبة، لكنَّها جافَّة؛ تُشبهني.

كم أنا بحاجةٍ إليك، أتسمعني؟

أزحتُ الستارة عن النافذة؛ أطلَّ القمر على استحياءٍ شاحباً في تربيعه الأخير، ليالٍ قليلة ويبتلعه المحاق.

حكيمةٌ هي السماء في احتضان تقلبات كواكبها؛ كلَّما عبروا مرحلة مدَّت يدها ومسحت عن وجهها أثر خَطْوِهِم ليبدؤوا من جديد.

يا رب غفرانك.

لاحت خيوط الفجر وأنا لا زلتُ متكورة على كرسي مكتب زوجي أتخبَّط في أحزاني وأحلامي.

استيقظت سمحة واستعدَّت لمغادرة غرفتي كعادتها.

استوقفتها.

بدَّلتُ ثيابي على عجلٍ واتجهتُ وإياها إلى الجناح الشرقي حيث عمتي وإخوتي.

قرعتُ باب غرفة نوم عمتي ودون أن أنتظر جواباً فتحته:

ـ عمتي، أريد مفتاح غرفة حورية!

يا إلهي، رحمتك

عاد وجيه في نهاية الخريف بعد أن مضى على غيابه في الأسر قُرابة السنتين. عاد ليقضي أيامه محاصراً بآلامه ووحيداً في الجناح الغربي الذي شهد يوماً أحرَّ لقاءاتنا وأمتع لحظاتنا. وجهه شاحب، عيناه غائرتان، يتفزَّع ويُنادي إذا غفى بأسماء رجالٍ لا أعرفهم، لعلهم الجنود اللذين كانوا تحت إمرته.

يستنزف الهيجان الذي يعانيه في بعض الليالي طاقته فيقضي يومه بعد هذه النوبات في حالةٍ من اليأس، وأقضي يومي في خوفٍ خشية فقدانه.

لم أعد أنام بجانبه، رجاني أن أترك له جناحنا.

عدتُ للمبيت في غرفة حورية.

يبدأ زوجي يومه قبل صلاة الفجر. يستيقظ، يُنادي على خادمه الذي يُساعده على قضاء حاجته. يغتسل في غرفةٍ صغيرة هيأناها له على عجلٍ بعد عودته من الأسر.

يُبدِّل ثيابه ويجلس حبيس كرسيه المتحرك بانتظار زيارة حلاقه اليومية.

ألقاه بعد انتهائه من برنامجه الصباحي فيبقيني بصحبته دقائق قليلة.

يستقبلني جالساً في كرسيه في ثيابٍ لائقة منتصب القامة، هزيلها. شعره مهذَّب، شاربه مشذَّب، وذقنه حليقة. تفوح منه رائحة عطره، مزيج من خشب الصندل والعود.

يبدو حزيناً ومتألماً لكن حزنه لا يعرف البوح، وكذلك آلامه، لا تعرف الانكسار. يريح كتاباً على ركبته اليسرى، وتمتدُّ ساقه اليمنى منتفخة ومستقيمة كجذع شجرة يابسة. تتحرك عيناه في فضاء الغرفة لكنها لا تلتقي أبداً بعيني.

أحييه، يردُّ السلام بهزةٍ من رأسه. تنتهي زيارتي عندما يطول وقوفي بجانبه حائرة لا أجد ما أقول. أتجرأ أو يُحالفني الحظ أحياناً لكنَّ محاولاتي لا تلقَى إلا الصمت.

أتركه إلى أن يهبط المساء لأُعاود طقس الزيارة الموجِع.

* * *

رفض زوجي منذ عودته من الأسر استقبال الأقارب والأصدقاء؛ نعتذر لهم بأنه مريض بنزلة رئوية. نشكرهم على اهتمامهم ونعدهم برد الزيارة عندما تتحسن حالته.

تحمل له بحر الزين الطعام إلى غرفته، تعود بصواني الطعام في غالب الأحيان دون أن يمسَّها. والدته الوحيدة التي يسمح لها وجيه بأن تقضي معه بعض الوقت دون أن يسألها أن تُغادر. تأخذ قهوتها في الصباح في غرفته وتصاحب الخدم مع كل وجبة طعام خوفاً من أن يستعمل السكِّين لأغراضٍ أخرى.

أسألها عند عودتها من غرفته:

ـ كيف هو الآن يا عمتي؟

تُنكِّس رأسها بحزن:

ـ على حاله يا ابنتي؛ فاقد السكينة والاطمئنان. يفتح كتاباً، يضعه في حضنه ويريح كفيه على صفحتيه. تمضي الساعات ولا يقلب الصفحة. في صمته غضب لا أعرف متى ينفجر؛ أشياء كثيرة تثقل روحه العليلة.

ـ لو نستطيع حمله على الحديث.

ـ إيَّاكِ أن تضغطي عليه؛ سيتكفل الوقت في التخفيف من معاناته، هذا ما يقوله الأطباء وما علينا إلَّا اتِّباع التعليمات.

ـ أمرك عمتي.

بعد أشهر قالت لي بيأس:

ـ أخشى أن تكون نهاية وجيه، كنهاية أخي؛ كبرياؤه سيقتله.

أهاجت بكلماتها ذكرى رحيل والدي المُفاجئة في ذلك الصباح الخريفي الحزين، أيرحل وجيه ويتركني أرملة ويتيمة؟

حبستُ دموعي، ولولا أنني قمت مسرعةً من أمامها لسمعت عمتي انفجار قلبي.

* * *

حطَّت الحرب أوزارها واستقرت البلاد بعد أشهر طويلة من المعاناة. هاجر مَن هاجر مِن أقاربنا وأصدقائنا هرباً من الفوضى التي عمَّت البلاد وخلفوا لنا بهجرتهم فراغاً وحُزناً. من لم يُهاجر، اكتوى بنار التغيرات السياسية. عانى من وقف في صف الدولة العثمانية من خسائر مادية فادحة ومن تصفيات جسدية مُرَوِّعة؛ اغتيل البعض ونُفي أو سُجن البعض الآخر.

دمشق، تلك الصبية المغناج التي ملأت العالم وشغلت الناس شاخت فجأة وبدت في حزنها وكآبتها صورة عن الأرامل والأيتام الذين ملأوا أزقتها وحواريها. فقد الفقراء والمحتاجون الإعانات التي كانت تقدمها الدولة العثمانية لهم لإيوائهم فجابوا الشوارع بأسمالهم جوعى، مرضى، معاقون، أطفال، وعجائز تكدسوا في الساحات ووقفوا على كلِّ ناصية إلى جانب جوقات من الشبان العاطلين عن العمل.

كيف آلت دمشق إلى هذا البؤس والخراب؟ كيف لم يعِ رجالنا أنَّ المؤامرات التي تُحاك في القصور ويُسخَّرون هم لتنفيذها لا تطال الرؤوس الكبيرة المُدبِّرة بل تنقلب وبالاً عليهم وعلى أهل البلاد. هدم البلاد وتشريد الشعوب لا يستغرق الكثير من الوقت، إعادة بنائها وتحقيق ازدهار شعوبها يحتاج لعقود إن لم يكن لقرون من الزمن.

* * *

سنوات ستة مضت على وفاة أبي كَبُرَت خلالها نازلي وغدا مراد شاباً يافعاً وسيماً. يبدو بقوامه الفارع أكبر من سنِّه الذي تجاوز الخامسة عشرة. سينال في العام المقبل شهادة اتمامه مراحل الدراسة المطلوبة لالتحاقه بكلية الحقوق؛ ينوي أن يُصبح كما مصطفى، محامياً يدافع عن حقوق المظلومين.

غادر أخي مراد المنزل بعد أسابيع قليلة من عودة زوجي من الأسر. انتقلت نازلي لتشغل غرفته وانتقل هو للإقامة مع إخوتي في منزل أبي رحمه الله. عزَّ عليَّ فراقه؛ ترك برحيله فراغاً وخلَّف في قلبي غصَّة.

لا زال يوم الجمعة اليوم الذي انتظره بفارغ الصبر لأجتمع بإخوتي وأطمئن عليهم.

لا يناديني مراد باسمي مجرداً، يُقبِّل يدي ثم جبهتي في منتهى الرقَّة والاحترام؛ يُعاملني كما لو كنتُ والدته لا أخته الكبرى.

عندما يحين موعد الغداء، يصعد مراد إلى بهو الجناح الشرقي في الطابق العلوي ليأتي بنازلي التي تجد دائماً ما يشغلها في المكتبة. يسألها أن تترك ما بيدها وتنزل لأننا بانتظارها، تتجاهل طلبه. يُناكفها، تصرخ، يتباهى لها بقوة ذراعيه؛ تستخف به! يرفعها وسط اعتراضها وصياحها ويُعاقبها بأن يطوف بها في جولةٍ قسريةٍ في أنحاء البيت، ينتهي بها في

صالة الطعام حيث ننتظرهم وقد أشاعا بهذه المشاغبات أجواءً من المرح تعيد إلى قلوبنا المُتعبة بعضاً من ذكريات أيامٍ هانئة.

فخورةٌ أنا بإخوتي، شبَّ الصغار منهم وامتلؤوا نضارة وعلماً. لو كان أبي بيننا.

لعله بيننا لكننا لا نراه. لطالما شعرتُ به يحنو عليَّ ويخفف عذابات روحي كلَّما جارت عليَّ الأيام وقهرتني الظروف.

* * *

أيامي رتيبة وأحزاني بكماء؛ أكتمها حتى لا أزيد على مَن حولي أحزانهم.

تقتصر مهامي اليومية على اختيار وجبات الطعام لزوجي وانتظار عودة نازلي من المدرسة للاطمئنان عليها. زياراتي للجناح الغربي لا تستغرق سوى دقائق، وإذا طالت أو حاولتُ إطالتها، يسألني زوجي بأدب أن أتركه لحاجته للراحة. لم يعُد يُطيق صُحبتي. خلَّفت أهوال الحرب التي واجهها جروحاً عميقةً في روحه الشفيفة، أرجو أن يتكفَّل الزمن بمداواتها.

أقضي الساعات جالسة في المربع وحيدة، أتأمل من النافذة تغيرات ضوء النهار وذبول أيامي. في يدي قطعةٍ من الحرير كنتُ قد بدأت تطريزها من عدة شهور أو عدة سنوات، لم أعد أذكر.

اليوم الجمعة، إخوتي على وصول ووجيه في غرفته يرفض مغادرتها. مضى على عودته من الأسر شهوراً طويلةً ظننتها وقتاً كافياً ليسترجع خلالها بعضاً من توازنه النفسي.

توجهتُ إلى الجناح الغربي؛ دخلتُ غرفتنا ووقفتُ في طرفها:

ـ وجيه، إخوتي على وصول.

هزَّة رأسه تؤكد أنه سمعني.

تابع النظر عبر النافذة التي لا يسمح سوى لضوءٍ ضئيلٍ شحيحٍ أن يتسلل منها.

هبَّت نسمةٌ منعشة فتعالت لها ستائر النافذة.

يبدو أنَّه فزع لحركة الستائر المفاجئة؛ أحكم قبضتيه على ذراعي الكرسي وتصلَّبت تعابير وجهه.

ـ وجيه.

لا جواب.

ـ زكي يسأل إن كان بإمكانه مساعدتك لتناول الغداء مع إخوتي في صالة الطعام؟

لا شيء إلَّا الصمت.

ـ يمكننا تناول الغداء في جناحنا هنا، في غرفة الاستقبال المجاورة لو شئت.

انتصب في جلسته فجأةً، فرد كتفيه ونظر ناحيتي:

ـ فاضلة أرجوك، ليس لي رغبة بالطعام ولا أريد رؤية أحد.

أشاح ببصره بعيداً عني وأحكم قبضته على ذراع الكرسي من جديد.

لا أدري لماذا يتابع ببصره حركة الستائر المتماوجة على النافذة. يبدو متحفزاً، وجهه منقبض وفكَّه متصلِّب. هل تستدعي حركة الستائر كل هذا التَوَتُّر؟

اقتربتُ منه في محاولةٍ مني لتهدئته. مددتُ يدي فلامست أصابعي قبضته، أرحتُ كفي برفقٍ فوقها. قبَّلتُ جبهته.

سحب يده وأدار وجهه بعد أن ربت على يدي التي تجمدت على ذراع الكرسي وأزاحها. أعاد يده إلى ما كانت عليه، تقبض بقوة على ذراع مقعده. أدار ظهره بأن حرَّك كرسيه مُبتعداً عني.

حبستُ دمعي وانسحبتُ بهدوءٍ.

يؤلمني يأسه وتحيِّرني عزلته.

* * *

أوكلنا مهمة الإشراف على علاج زوجي لفريقٍ من خيرة أطباء العظام والأعصاب في دمشق وبيروت. طلب العديد منهم، عقب معاينتهم لوجيه، أن أُحاول التقرب منه عاطفياً وجسدياً. قالوا هو بحاجة لحادثٍ سعيد يعيد إليه الأمل ويجدد فيه أسباب التعلق بالحياة. أضافوا بأنَّه لا يعاني من إعاقة تمنعه من ممارسة الحب، لكنَّ إعاقته الجسدية ووضعه الصحي يُشكِّلان له نوعاً من التحدي أو بمعنى أدق حاجزاً نفسياً.

قلتُ لأخي سليم الذي كان يزورنا في إجازات قصيرة بعيداً عن المستشفى التي بدأ يعمل بها كطبيب جراح في حلب:

ـ هم لا يفهمون يا سليم بأنَّ محاولاتي للتقرب من زوجي طوال الأشهر الماضية لم تلق منه إلَّا التجاهل والصد، هو لا يتورع عن جرح كبريائي بقسوة إذا تماديت معه.

* * *

في إحدى إجازاته، أصرَّ أخي سليم على دعوة أحد أطباء الأعصاب الفرنسيين المشهورين أثناء زيارة الأخير إلى دمشق وضغط على وجيه للسماح له بمعاينته.

جاء الطبيب العجوز وأمضى ساعاتٍ ثلاث في غرفة زوجي، عندما انتهى طلب مقابلتي على انفراد.

سألني أولاً عن حالتي الصحية، طبيعة علاقاتنا الأسرية، وعلاقة زوجي بوالدته وبمن حوله، استأذنني أيضاً لأسمح له بالسؤال عن طبيعة الحياة الزوجية التي كانت بيني وبين زوجي قبل إصابته في الحرب

وبعدها. سألني أيضاً إذا حصل بيننا أي لقاء أو تماس عاطفي منذ عودته من الأسر.

نفيت.

أخبرتُه عن الحب الذي جمعنا منذ طفولتنا وحالة العشق والسعادة التي كنا نعيشها قبل وقوعه في الأسر. أسهبتُ في الحديث عن عُمق العلاقة العاطفية وحتى الجسدية التي تربطنا.

ـ أمَّا عن نفسي، فشعوري نحو وجيه لم يتغير والأنثى التي تسكن أعماقي تطلبه هو لا غيره. حين أنام لا أحلم إلا به.

سألني إن كنت أنفر من إعاقة زوجي.

استغربتُ السؤال.

ـ أنفر من زوجي! أبداً، نفسُه، التي أسكنتها روحي، خالدة، لا ولن تتغير. أنا فقط أتألم لحالته، ألمه يؤلمني.

ربتَ الطبيب على كتفي مُواسياً.

تابعت الكلام بعد أن مسحتُ دمعةً غلبتني.

ـ المُشكلة التي أُعاني منها أنني عندما أكون معه لا أجد ما أقول، أنا بطبيعتي هادئة ولا أُكثر من الكلام. صمت وجيه، حزنه، عُزلته التي فرضها على نفسه تُربكني وتُحيِّرني.

ـ أخبريني على وجه التحديد ما أكثر ما يُقلقك في حالته الراهنة؟

ـ التغير الكبير الذي طرأ ليس فقط على شعوره ناحيتي بل على شخصيته أيضاً. تتنازع وجيه طوال يومه حالتان؛ تَحفُّز واستنفار، أو يأسٌ وقنوط. أعيشُ في قلقٍ وخوفٍ دائم، منه وعليه؛ هذا ما يمنعني في واقع الأمر من اتخاذ أي خطوة أو بادرة قد تسبب له المزيد من التوتر أو الإحباط. لا أُثقل عليه حتى لا أفقده؛ نحن روحٌ واحدة، أشعر به حتى

عندما لا أكون بجانبه.

نهض الطبيب من مكانه وبدأ يزرع الغرفة جيئةً وذهاباً. عاد للجلوس بجانبي. فكَّر قليلاً ثم قال:

ـ زوجك كما تعلمين يا سيدتي رجلٌ عسكريٌّ، ولا شك بأنَّك تعرفين أو أنَّ أحدهم قد أخبرك، أنَّه من النوع الذي نرفع له القُبَّعة احتراماً. خيبة الأمل، بل لنقل الصدمة الشديدة التي تلقَّاها كانت بسبب النتائج السلبية التي حصل عليها من مهنةٍ أحبَّها ونذر لها نفسه بكل إخلاص.

صمت للحظة ثم تابع:

ـ دعيني أسألك، هل يمكن لطالبٍ عبقري مُبدع يعلم علم اليقين أنه أجاب على أسئلة امتحانٍ أمضى سنين حياته في التحضير لها بشكلٍ مثاليٍ، بل مُبهرٍ، ووضع كل إمكاناته للنجاح، أن يقبل بالرسوب كنتيجة؟

هززتُ رأسي سلباً وقلت:

ـ لا، طبعاً.

ربت على كتفي بتحنانٍ أبويٍّ وقال:

ـ آسف لما حصل لكما بسبب هذه الحرب اللعينة. إعاقة زوجك الجسدية، مع شديد الأسف، لن تساعده على اجتياز محنته بالسهولة التي نرجوها. تحتاجين للكثير من الصبر والوقت للوقوف بجانبه.

ـ لا يهمني الوقت، أُروِّض المستحيل ليتعافى.

دمعت عيناه.

نصحني أن أحاول جادةً حَثَّ زوجي على مضاجعتي لأنه يعتقد بأن حالة وجيه النفسية ستستقر وتتحسن إذا استقامت حياتنا الزوجية. قال أنَّ قدوم طفلٍ أو طفلةٍ قد يُعطي لكلينا دفعةً من الأمل تحيي جذوة الحب الذي يجمعنا. شرح لي وضعيةً قال علينا اتخاذها أثناء الجماع لأنَّها الأقل

أملاً والأكثر ملائمةً للإعاقة التي يعاني منها وجيه.

صافحني قبل مغادرته وشدَّ على يدي.

ـ تحلّي بالصبر وكوني شُجاعة لكن رقيقة في إغوائه.

علت وجهي حُمرة الخجل.

ابتسم ليُخفي ارتباكه.

ـ آسف لم أقصد إحراجك.

ـ لا بأس، أنت في مقام والدي.

ـ أرجو أن أراه في وضعٍ أفضل عند عودتي لزيارة البلاد في السنة القادمة. ليكن الرب معك يا سيدتي.

* * *

تشجعتُ بعد أيام وسألتُ وجيه في إحدى زياراتي الخاطفة له إذا كان لا يزال يُحبني. لم يُحر جواباً.

عندما أصررت على سؤالي، قال ووجهه خالٍ من أي تعبير ودون أن يخرج عن نبرته المهذَّبة:

ـ لو أردت يا فاضلة حريتك، ما عليكِ إلا أن تسألي.

أذهلني الجواب! حُريتي ...!

ابتلعتُ الإهانة ولم أجرؤ على إعادة السؤال حتى أتى ذلك اليوم الربيعي الذي لن أنساه، تكلَّمت أخيراً تلك البكماء التي تركت أحزانها تثرثر داخلها لسنين؛ لم أعرف يومها كيف أصمت.

صمتي الذي طال حتى نسيتُ طعم الكلام انهار فجأةً فصببتُ كلَّ الألم الذي كتمته في قلبي دفعةً واحدة.

أهي النقمة على الوضع الذي أنا فيه؟

ربما، من يدري؛ لكنَّ ما أعرفه أن مكيدة القدر التي جهَّزها لي في

ذلك اليوم جلبت لكلينا، أنا ووجيه، تلك المواجهة التي كنَّا في أمسِّ الحاجةِ إليها.

* * *

بدأ يومنا بأن غادرت عمتي البيت بعد الإفطار لزيارة قريبة لها؛ هكذا قالت.

عندما تخرج في مثل تلك الزيارات أعرف من سمحة، خادمتي التي تُرافقها دائماً، أنَّها تذهب مع صديقة لها لزيارة شيخٍ يقطن قرب ضريح الشيخ محيي الدين يُقال إنَّه وليٌّ من أولياء الله. اشتهر عن هذا الرجل، واسمه الشيخ إدريس، بأنَّه يداوي المرضى ويشفي المعاقين بتلاوة القرآن وكتابة الحجابات والتمائم!

تعود من زيارتها السرية قرب صلاة العصر وقد أثقلت حقيبة يدها بلفائف صغيرة تُخفيها عني وتسأل سمحة في أيامٍ محددةٍ من الأسبوع وساعاتٍ مُعينة من النهار، وأحياناً الليل، أن تدسَّها خِلسةً تحت فرشة وجيه أو مخدته، أو بين قطعٍ معينةٍ من ثيابه التي يرتديها أو يرميها للغسيل. تبتاع أيضاً من الشيخ إدريس سفوفاً تُضيف القليل منه إلى الشاي الذي تُحضِّره بنفسها لابنها ليشربه، طبعاً دون علمه. يرتشف المسكين من فنجانه القليل وينحِّيه جانبا.

تحثُّه أن يستزيد.

يرفض ويشتكي بأن للشاي طعماً مختلفاً.

تمُارس عليه كلَّ الحيل الأمومية التي تعرفها لإقناعه بأن طعم الشاي لم يتغير.

ـ مزاجك اليوم يا ولدي عكر وهذا ما جعل طعم الشاي في فمك مختلفاً.

يرضخ لها ويرشف المزيد.

آه... لو أعرف أنا متى يكون مزاج زوجي رائقاً!

حان موعد الغداء وعمتي لا زالت في زيارة قريبتها. يتوجب عليَّ في غيابها أن أُصاحب وجبة الطعام التي حملتها مسرورة وبحر الزين إلى الجناح الغربي.

* * *

وضع الخدم صواني وجبة الغداء في غرفة وجيه على طاولةٍ مُرتفعةٍ فُصِّلت خصيصاً لتتلاءم مع الكرسي ذي العجلات الذي يستعمله. صرفتُهم وبدأتُ بإعداد المائدة.

رأيتُه بطرف عيني جالساً كعادته وظهره لمكتبه في مواجهة النافذة الكبيرة. كان يتأمل ذرات الغبار السابحة بنعومة وهدوء في شعاعٍ من الضوء شحيح عَبَرَ دون استئذانٍ من الفُرجةً الصغيرة التي تركها وجيه بين الستائر الزرقاء المخملية.

وجهه بادي التوتر رغم أنَّه غارقٌ في تأملاته.

أيُغضِبُه شعاع الضوء الذي تسلل إلى الغرفة يا تُرى؟ ليته يبوح لي بما يدور في رأسه من أفكار.

ـ حبيبي، الطعام جاهز.

تنبَّه لوجودي. اعتدل في كرسيه. لم يُجِب.

ـ مرق لحم الضأن ساخن ومُبهَّر بالقرنفل والقرفة كما تحبه؛ حشوة فطائر الجبن معطَّرة بالنعناع الأخضر، أولى تباشير حديقتنا.

أتاني صوته عميقاً.

ـ شكراً، ليس لي رغبة بالطعام.

ـ أنا جائعة وبودي، لو تكرَّمت، أن نأكل معاً.

ـ كلي أنتِ.
ـ أنت تعرف بأنَّني لا أحب الأكل وحدي.
توجهتُ ناحيته ووقفتُ بهدوءٍ على يمينه؛
لم يُحرِّك ساكناً.
عقدت أصابع يديَّ أمامي حتى لا ألمسه فينفر هو وأشعر أنا بالمهانة.
تابعتُ بابتسامة حمَّلتها أملاً في أن يستجيب لرجائي:
ـ خرجت عمتي في زيارة لصديقتها كما أخبرتك هي في الصباح ولن تعود قبل صلاة العصر؛ عادت نازلي من المدرسة، تناولت طعامها بسرعة وهي في مكتبة الدور العلوي مشغولة عني وعن العالم من حولها بواجباتها المدرسية. لم يبقَ لي من رفيقٍ سواك!
ـ وماذا عن خليل؟
خرج صوته خشناً وبنبرةٍ غريبة.
ـ خليل! أنتَ تعرف أنَّه يعود كلَّ ليلةٍ متأخراً؛ لا يشاركنا الغداء إلا يوم الجمعة، يوم زيارة إخوتي.
نكَّس رأسه ولم يُعقِّب.
طال صمتُنا.
ـ وجيه، أنا بانتظارك!
لا جواب.
ـ أرجوك.
أجابني بحدَّة:
ـ فاضلة، أرجوكِ، دعيني، أريد أن أختلي بنفسي.
غادرتُه وصوتُه يرنُّ في أُذُني "وماذا عن خليل".
أيكون من باب الصدفة أن أقول له "لم يبقَ لي من رفيقٍ سواك"

لُيجيب بهذه النبرة القاسية "وماذا عن خليل"؟

ماذا عن خليل ... ما أدراني!

قضيتُ نهاري حزينة.

أهاج وجيه بعبارته تلك ذكرى مُخجِلة.

حلَّ المساء.

تناولتُ العشاء وحدي وصعدتُ مع نازلي كعادتي للإشراف على استعداداتها للنوم. جلستُ في بهو غرف النوم بانتظار أن تنتهي دادا سعدية من مهامها.

رأيتُ عمتي تدخل غرفتها عقب عودتها من زيارتها المسائية لوجيه، تمنيتُ لها ليلة هادئة.

التفتت ناحيتي، تراجعت قليلاً لتجلس على أريكتها. تأمَّلت المسبحة الفيروزية في يدها وبدأت أصابعها تديرُ حبَّاتها برفقٍ. قالت وكأنها تحدث نفسها:

ـ من أين يأتي الهدوء؟ حالة وجيه سيئة واليوم أسوأ من المعتاد. أرجو ألَّا يكون توتره نذير شؤمٍ لحالة الهيجان التي تصيبه من وقتٍ لآخر.

نظرت ناحيتي وكأنها اكتشفت وجودي فجأةً.

ـ أمرتُ الحاج زكي أن يقضي ليلته في غرفة استقبال الجناح الغربي، أيقظيني إذا سمعتِ شيئاً.

ـ حاضر عمتي.

بقيتُ في مكاني بعد مُغادرة عمتي أنتظر انتهاء دادا سعدية من تهيئة نازلي للنوم. قبَّلتُ جبهة أختي في سريرها بعد خروج المُربية وتمنيتُ لها نوماً هانئاً. أطفأتُ مفتاح النور وخرجت.

قررتُ ألَّا أزور الجناح الغربي، لن أطمئن الليلة على زوجي كعادتي

قبل النوم. أخافُ إن رآني أن أزيد عليه حالة التوتر التي يعاني منها. أنا أيضاً مُتعبة ومتوترة.

دخلتُ غرفتي أو بالأحرى غرفة حورية التي لا أزال أشغلها. مشيتُ إلى النافذة الصغيرة المُطلَّة على أرض الديار وفتحتها. حمل النسيم إليَّ تباشير الحياة الكامنة في رحم الأرض؛ رائحة الأعشاب والأغصان حُبلى بتباشير الربيع وتنتظر المخاض.

تذكرتُ ربيعي الذي ما إن حلَّ حتى رحل.

سالت دموعي.

لو منَّ الله به عليَّ لما أحسستُ بالوحشة والعزلة التي أنا فيها اليوم.

متى يقربني زوجي فأزهر!

ارتميتُ على السرير دون أن أخلع ثيابي.

تذكرتُ الحديث الذي دار بيني وبين وجيه فترة الغداء.

في قلبي وجعٌ اسمه خليل وإهانةٌ بدرت منه تناسيتها لكنني لم أنساها.

مرَّ وقتٌ طويل قبل أن أسمع وقع خطوات في أرض الديار. قمتُ إلى النافذة.

لمحتُ طيف خليل في ممرّ البهو الرئيسي؛ لم يصعد إلى الجناح الغربي، دخل المُربَّع. لا أدري أي نوعٍ الجنون ذاك الذي أصابني فقررت النزول إليه. أردت محادثته، أو بعبارةٍ أدق، مُساءلته!

مضى على زيارته لي في غرفتي مخموراً وقتٌ طويل، واليوم، اليوم فقط نكأ وجيه جراح ذلك اليوم. كيف ولماذا؟ لا أملك جواباً. ما أعرفه أنني وجدتُ نفسي أقف على عتبة المُربَّع الغارق في الظلام.

ـ خليل!

رأيت خياله يهبُّ واقفاً لسماع صوتي.

ـ ماذا؟ هل أنتِ بخير؟

أدرتُ مفتاح النور. غطَّى وجهه بيديه.

سألته:

ـ هل لوجيه علم بالهراء الذي نطقت به في غرفتي مخموراً في تلك الأمسية المشؤومة؟

عاد للجلوس في مقعده ماداً قدميه باسترخاء دون أي إشارة أو ايماءة؛ أغمض عينيه.

ـ خليل، أجبني!

خرج صوته عميقاً دون أن يفتح عينيه أو يلتفت ناحيتي:

ـ تقصدين هيامي بك؟ لا أعرف، لم لا تسأليه؟

ـ يا لوقاحتك! أسأله؟

نظر ناحيتي بطرف عينه. قال بصوتٍ غريب:

ـ أنا لا أقرأ الأفكار، اسأليه.

ـ أنا أسألك أنت!

عاد إلى استرخائه، أغمض عينيه من جديد.

ـ خليل، أنا جادَّة في سؤالي.

عدّل من جلسته وقال بهدوء وكأنَّ الأمر لا يعنيه:

ـ تركتُ المفتاح لمسعود على باب مرسمي في الجناح الغربي ليُصلح الجدار الذي أتلفه تسرب الماء من السطح في العام الماضي؛ دخل وجيه إليه في غيابي ورآه الخادم خارجاً من المرسم وفي يده لوحات تخصني.

ـ لم أكن أعرف أنَّ لك مرسماً!

ـ ملاصق لغرفتك.

ـ وما علاقة هذا بسؤالي؟

ـ تسكن مرسمي أنثى واحدة؛ يعرفها وجيه حقَّ المعرفة.

ـ ماذا؟

نظر ناحيتي للحظة؛ وضع منكبيه على ركبتيه وبدأ يحدق بالسجادة في موضع قدميه:

ـ من أجلك أدخل مرسمي لأتعبَّد. ابتليتُ بالدهشة عندما خطت ريشتي أولى لوحاتي لكِ.

ـ يا إلهي!! ترسمني خفية؟ ألم تُقلع عن هذه الرذيلة؟

ضحك بسخرية وأكمل:

ـ رذيلة؟ هو تسبيحٌ للخالق في ملكوته. لم تكن صدفةً أن أكتشف انبهاري بروعة تكوينك؛ إنَّه قدري. كنتِ لوحتي الأولى وتمريني الأول لأتذوق معنى الخشوع في محراب الحب.

نظر ناحيتي مجدداً وكأنَّه يتوقع مني جواباً.

شلَّتني المفاجأة تماماً، أو هكذا شعرت. وقفتُ غاضبة لكنني عاجزة عن الحركة. كلامٌ كثير يجول في خاطري لكنني لا أقوَ على صياغة أحاسيس النفور والاشمئزاز التي اعترتني.

كيف يُمكن لأي إنسان أن يكون على هذه الدرجة من الخسَّة والوضاعة؟ كنتُ أصرخ في داخلي: "أنا في مقام أختك الكبرى! كيف تجرؤ؟"

طال صمتي وطال انتظاره لصدى كلماته.

عاد إلى الاسترخاء في مقعده، تأمل السقف قبل أن يُغمض عينيه من جديد:

ـ أتعلمين، أنتِ أيضاً لعنتي لأنني لم أستطع يوماً أن أجعل لوحاتي

تنطق بالبهاء الذي أنتِ فيه. كلما أنهيتُ لوحةً لكِ، اكتشفتُ أنني لم أُنطقها بالروعة التي أنتِ فيها.

اعتدل في جلسته ونظر ناحيتي من جديد. رأيتُ احتقان عينيه:

ـ أتفهمين المشقة التي يتكبَّدها من أجلك ذاك الذي يتنافس مع إلهٍ أبدعك؟

تجرأت ولوحتُ له بيدي غاضبة ومحذِّرة:

ـ هذا كفرٌ يا خليل، توقَّف عن الكلام الآن، هل أنت مخمورٌ الليلة؟

ـ الليلة، وكلَّ ليلة؛ وهل يشفى المرء من داءٍ هي دواؤه؟

ـ لن تشفع لك الخمرة لو سمعك وجيه!

ـ الأمر عندي سيّان؛ الصبي الذي كان يتلقى العقاب دون رحمة يستطيع اليوم أن يردَّ الصاع صاعين!

ـ لماذا تتكلم عن أخيك بهذا الحقد؟

هزَّ كتفيه بلا مبالاة:

ـ وما العجب؟

ـ ما العجب؟ وجيه في مقام والدك؛ هو الذي ربَّاك، كيف تجرؤ!

نظر ناحيتي بغضب:

ـ كيف أجرؤ؟ أتذكرين الصبي الصغير الذي أحرق له وجيه أصابعه دون رحمة حتى لا يقرب الرسم؟

قلتُ بحزم:

ـ أراد تأديبك!

ـ يؤدبني! يحلل لنفسه كتابة أشعار الغزل ويبرر لنفسه هوسه في فن التصوير وعندما يأتي إلى الرسم، الموهبة التي ورثتها عن أبي وأجد نفسي فيها، يمنعني عنها بحرق أصابعي! أتذكرين كيف داويتِ حروقي والدموع

تملأ عينيك؟ طبعتك يومها في مخيلتي صورة لا زلتُ أستدعي روعتها كلَّما تألَّمت.

ـ كفَّ عن هذه الأفكار يا خليل. كفاك طيشاً، لو سمعك وجيه لن يرحمك!

ـ لا يهم، هو يعرف معنى أن تسكن أنثى رجلاً وتُدميه في كلِّ لحظة بحرمانها.

قلتُ وقد هممتُ بالخروج من المُربَّع:

ـ أنت تخون وجيه وتسبب لي بكلامك هذا إهانة لا تُغتفر.

وقف فجأةً وصاح مترنِّحاً:

ـ تلومينني! تلومين الضحية وتتركين الجاني! ما أظلمك.

التفتُّ إليه:

ـ الجاني؟ أي جاني؟ أنا لم أجنِ على أحد!

هزَّ رأسه موافقاً. رمى جسده المُترنح على المقعد من جديد. قال بأسف:

ـ أعرف، أنقُم عليه وحده.

ـ تنقم على وجيه!

ـ أبداً نقمتي على الإله الذي جعلك قدري وحرمني منك.

ـ أستغفر الله. لا فائدة من الكلام معك، مخمورٌ وأرعن.

هزّ كتفيه بلا مبالاة. قال بجدية:

ـ سأغادر البلد في الخريف، سأرحل إلى البرازيل.

ـ خيراً تفعل؛ تحتاج لممارسة هواية الرسم في النور لتشفى من هذا الجنون. للمرة الأخيرة، أين اللوحات التي خرج بها وجيه من مرسمك؟

ـ تقصدين اللوحات التي سرقها!

ـ يا لوقاحتك! ألا تخشى أن يسمعك أحد ويُخبر وجيه؟

ـ حتى لو سمعني وجيه نفسه، لن يقوى على مواجهتي؛ علَّمته الحرب كيف يتقبَّل الهزيمة!

صرختُ فيه وقد اجتاحتني موجة عارمة من الغضب:

ـ اخرس وإياك أن تذكر وجيه بأي سوءٍ.

تركته وخرجت.

أين أذهب؟

وجدتُ نفسي أتوجَّه إلى الجناح الغربي، إلى حضن زوجي. هل كنت أنشدُ حمايته؟

ربما، لا أدري.

صعدتُ درجات السلم مسرعةً وشعور الغضب والخوف والمهانة يكاد يقتلني.

فتحتُ باب غرفتنا على مهلٍ؛ دخلت. نفذت رائحة زوجي الحبيب إلى أعماق قلبي. أغلقتُ الباب ورائي بحرص وأدرتُ المفتاح في القفل. أرحتُ رأسي على طرف الباب للحظات، شعرتُ بالأمانِ.

رغم العتمة رأيت خزانة ملابسنا الكبيرة بمرآتها المائلة المطعمة بالصدف تعكس صورة سريرنا الواسع بستائره وناموسيته المعقودة الأطراف بمودةٍ وحب على الأعمدة النحاسية. عكست المرآة أيضاً صورة وجيه، بل طيفه الرقيق. بدا هزيلاً ومستسلماً للنوم وقد أسند رأسه وكتفيه على وسائد مرتفعة.

جلتُ بنظري في أنحاء الغرفة. كل ما فيها بدا ساكناً وهادئاً وحزيناً. الطاولة الخشبية الواطئة في مكانها خالية تماماً من أي مخلفات أو أوراق كنَّا نتركها ورائنا مُبعثرة في أمسيات لقاءاتنا الحارَّة. وسائدنا الملونة

اصطفت في الركن مُهملةً وباهتة. طاولة المكتب عارية إلا من شمعدان جفَّت شموعه ومحبرة وقفت ريشتها في مكانها محنية وذابلة. روب زوجي المنزلي الذي طالما لفَّني به مرمي على كرسيه مُنكسراً وموحشاً.

مشيتُ على رؤوس أصابعي وتكومتُ على السجادة الصوفية في ركن الغرفة. أرحتُ رأسي بأن وضعته على ذراعي التي أسندتُها على الطاولة الواطئة.

استرجعتُ دون إرادةٍ مني الحديث الذي دار بيني وبين خليل وتساءلتُ بيني وبين نفسي كيف لم يذكر لي وجيه طيلة هذه الأيام بل الشهور أي شيء عن اللوحات التي وجدها في غرفة خليل؟ أين ذهب باللوحات؟ والأهم، لماذا لم يواجه خليل بفعلته المُشينة؟ كيف لم يغضب لكرامتي التي أهانها خليل؟

بدأ بركان الغضب يفورُ في قلبي من جديد.

كأس مرارتي امتلأ وفاض.

هل هو قدري أن أعيش في هذا البيت في حالةٍ لا هي موت ولا هي حياة؟ محرومة وشقيَّة؟

لمن أشتكي؟

لعمتي؟

ابتليت المسكينة بالعته بعد وفاة ابنتها ولا تدري كيف تداري أحزانها فكيف بهمومي وأحزاني.

إخوتي؟ لا يمُكن، ستكون عداوة أو قطيعة بينهم وبين عمتي وأبنائها ولا أتصور أن يقبل أبي في مرقده أن ألحق أي أذى بأخته الوحيدة أو بأحد أبنائها.

ماذا أفعل؟

أقتل نفسي فأُريح وأستريح.

قضيت الليل أُخطِّط للموت الذي دعوتُ الله أن يأتيني طوعاً حتى لا أذهب إليه اختياراً. تمنيتُ وقد سالت دموعي ألا تُشرق عليَّ شمسٌ بعد اليوم.

أعياني حزني فأخذتني وسناتٌ خاطفة. رأيتني في الحلم وقد ضممتُ ولدي ربيع إلى صدري. غمرته بكل ما في قلبي من دفء الأمومة فرأيته يبتسم لي فَرِحاً وقد غادرته زرقة وجهه وشفتيه.

تنبهتُ من غفوتي على صوت المؤذن يُنادي لصلاة الفجر. بكيتُ، لا أدري ما إذا كان بُكائي فرحاً بلقاء ربيع أم حُزناً لفراقه. خشع قلبي لذكر الله وشعرتُ يقيناً بأن طفلي حياً يرفل بأثواب السعادة في ملكوت الرحمن الرحيم.

رفعتُ إلى الله ابتهالاتي ودعوتُ بالسكينة والسلام لروحي ولروح زوجي الكسيرة والهداية والمغفرة لنفس خليل المضطربة.

حسدْتُ المؤذِّن الذي نادى للصلاة يومها على نعمة الصراخ خمس مراتٍ في اليوم؛ نعمة لا يُقدِّرها إلا من لاذ بالصمت مُكرهاً لسنين.

* * *

أنَّ السرير. تنبَّهت.

رفعت رأسي فرأيت خيال زوجي في المرآة يتخبَّط في آلامه؛ تألَّمت.

ناديته:

ـ وجيه، أنا هنا، أتريد شيئاً؟

رفع رأسه بجهدٍ وأدار وجهه ناحية الصوت. سألني بصوتٍ لا زالت تغطيه خشونة النوم:

ـ ماذا تفعلين هنا؟ وفي هذه الساعة؟

تجاهلتُ السؤال.

قمتُ من مكاني وتهاديت في خطوي باتجاه المكتب، أشعلتُ شموع الشمعدان، تراقصت أنوارها بوهن. تمنيتُ أن يوقظ ضوؤها الخافت بعضاً من ذكرياتنا الحميمة في قلبه.

مشيتُ إليه بهدوء، وقفتُ قرب السرير.

استجمعتُ شجاعتي بعد دقائق وسألتُه برقَّة:

وجيه، ألم تقل لي يوماً أن زواجنا نصرانيٌّ؟ [74]

سكت وأشاح بوجهه عنِّي وقد فاجأه السؤال.

انتظرت؛ لا جواب.

أعدتُ سؤالي بإلحاح ورجاء:

ـ وجيه، ألم تقل لي يوماً أن زواجنا نصرانيٌّ؟

رغم العتمة التي حجبت الجزء الأكبر من وجهه ارتجف قلبي خوفاً من نظرة الغضب التي لاحت في عينيه لإصراري.

كتمتُ خوفي وتابعت بصوتٍ هادئ:

ـ أحبك يا وجيه وحبي لك لم يتغير ولن يتغير؛ قلبي لا زال قلب تلك الفتاة التي تواعدتَ معها على الزواج ولم يتجاوز عمرها السنين السِتَّة، أتذكرها؟

توجعت روحه للذكرى.

ـ أتذكر كيف قرأتَ فاتحتي عليك يوم وفاة والدك تحت شجرة التين في الحديقة وعُمرك لم يتجاوز السنين التسعة!

خفض رأسه وغاب في أفكاره.

ـ قلتَ لي يومها أنَّ والدك توفي وأنك الآن الرجلُ المسؤولُ عن البيت والعائلة وسيُحاسبُك الله على أعمالك كرجل ولن تستطيع تضفير

شعري!

أدار وجهه للناحية الأخرى. تابعت:

ـ سألتُك يومها ما دخل ضفائري، قلتَ لي يغضب الله إذا لمستَ شعري ولم أكن زوجتك؟ أنسيت؟ أقرأتني يومها الفاتحة وأقسمنا على ألَّا نفترق وأشهدنا الله على الحب الذي جمع قلبينا وسألناه أن يحفظ سرَّنا ويُباركنا.

ـ لا داعي للمقدمات يا فاضلة، أنتِ في حلٍّ من هذا الوعد. إذا كنتِ تريدين حريتك، هذا حقّك ولن أُنْكِرَه عليكِ.

صرختُ فيه:

ـ حَقِّي! حُريتي! وماذا بعد حُريتي؟

ـ بإمكانك، لو شئتِ أن تتزوجي.

ـ أكون لغيرك! تتركني لأكون لغيرك؟ تُنكرني وتُهين مشاعري وأنت تعلم عمق الشعور الذي تُكنُّه الأنثى لذاك الذي أضاء لها قناديل الحب لأول مرَّة وتوَّجها إلهةً على عرشه. أأرضى النزول عن عرشٍ بنيته لي، ولي وحدي، لأكون لرجلٍ آخر لا يعرف لغة الحب التي لقنتني إياها؟ أبذل جسدي لرجل آخر! ماذا عن روحي؟ ألا زالت حيث سكنت واطمأنَّت أم أنك أنكرتها وتخليت عنها هي الأخرى؟ هذه إهانة لن أغفرها لك يا وجيه ما حييت.

أجابني بصوتٍ هادئٍ:

ـ أرجوكِ فاضلة، عودي إلى غُرفتك، أريد أن أختلي بنفسي.

صرختُ مجدَّداً:

ـ ليس قبل أن أقول بأنَّني جئتُ اليوم لأُخبرك بأنني قررتُ العودة إلى بيت أبي. عندما تُقرر أنت أن تخرج من عزلتك وتعيد النظر في

علاقتك مع العالم الذي تعيش فيه ومع مَن حولك، ومعي أنا بالذات، الشريفة ابنة الشريف، تعرف أين تجدني ولكن ادعو الله حينها أن يمنحني القدرة على أن أُسامحك!

خرجتُ من الغرفة وصفقتُ الباب خلفي.

هبطت الدرج مسرعةً؛ لم ألتفت.

خفق قلبي بشدة ليس خوفاً هذه المرَّة بل دهشةً.

أدهشتني جرأتي وتعجبتُ لثورةِ الغضب التي اجتاحتني.

حسدتُ المؤذِّن على علو صوته هذا الصباح، لقد تجاوزت إمكاناته بمراحل! صرختُ اليوم بصوت نبيٍّ نزل عليه الوحي دون إنذار، ففاض بمكنونات قلبه بكل صدقٍ واستراح.

* * *

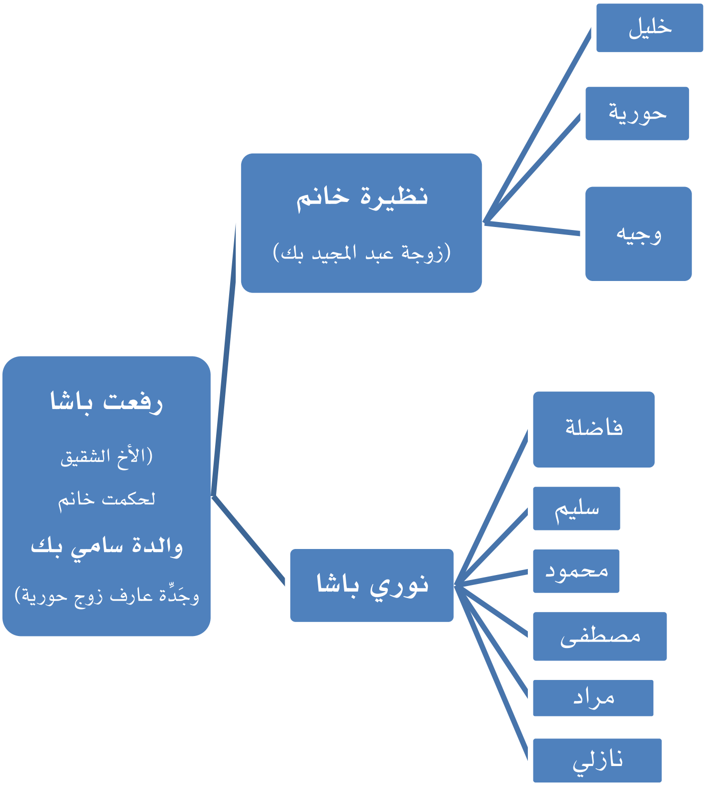
لم يخطر في بالي يوماً أن أترك بيتي، بل مملكتي، لكنَّني اليوم قررتُ الرحيل.

اتجهتُ إلى دور الخدم. رأيتُ دادا سعدية في غبش الفجر في فناء الخادمات تتوضأ. طلبتُ منها أن تأمر مسعود بتهيئة العربة وتنادي سمحة ومسرورة ليلحقوا بي إلى بهو غرف النوم. أمرتُها أيضاً أن تحزم ثيابها وحاجياتها وتنقلها إلى العربة.

أدرتُ ظهري لها متجاهلة نظرة الهلع والتساؤل التي أطلَّت من عينيها.

اتجهت مسرعةً إلى الجناح الشرقي، إلى غرفة حورية، مكان إقامتي الجبرية.

سأحزم حقائبي وأرحل.


رفعت باشا
(الأخ الشقيق
لحكمت خانم
والدة سامي بك
وجَدّة عارف زوج حورية)
نظيرة خانم
(زوجة عبد المجيد بك)
خليل
حورية
وجيه
نوري باشا
فاضلة
سليم
محمود
مصطفى
مراد
نازلي

المراجع

١ـ وجيه كوثراني. بلاد الشام في مطلع القرن العشرين. السكان والاقتصاد وفلسطين والمشروع الصهيوني، قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية. الطبعة الثالثة، مزيدة ومنقحة، بيروت أيار / مايو، ٢٠١٣. صادر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

Arab Center for Research & Policy Studies.

٢ـ عبد العزيز العظمة. مرآة الشام. تاريخ دمشق وأهلها. تحقيق نجدة فتحي صفوة.

First published in Great Britain in 1987. ISBN 1 – 869844 – 77 - 7

٣- الدكتورة ماري دكران سركو. دمشق في فترة السلطان عبد الحميد الثاني. ١٢٩٣ - ١٣٢٥ / ١٨٧٦ - ١٩٠٨ منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٠

٤- محمد فريد بك المحامي. تاريخ الدولة العلية العثمانية. تحقيق د. احسان حقي. صادر عن دار النفائس.

٥- دعد الحكيم. أوراق ومذكرات فخري البارودي ١٨٨٧ – ١٩٦٦ خمسون عاماً من حياة الوطن. القسم الأول. منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية. دمشق ١٩٩٩.

٦- لويس فشمان. حادثة الحرم الشريف سنة ١٩١١: أعيان فلسطين في مواجهة الإدارة العثمانية.

Journal of Palestine Studies, Vol. 34. No.3, Spring 20 (135)

٧- محمد كرد علي. الرحلة الأنورية إلى الأصقاع الحجازية والشامية. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة، ٢٠٠٧.

٨- مقالة بقلم د. محسن محمد صالح، مدير عام مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، سقوط القدس ديسمبر ١٩١٧. المصدر: موقع عربي 21/12/2018

[1] المُربَّع البراني غرفة استقبال فرعية واسعة بقسمين، واحد للسيدات والآخر للرجال. يجاور المُربَّع البراني المدخل الرئيسي للبيت ويُستقبل فيه الضيوف فور دخولهم للاستراحة وخلع الأردية والمعاطف وشرب القهوة بانتظار صاحب البيت الذي يدعوهم عند حضوره للدخول إلى القاعة التي تشكِّل غرفة الاستقبال الرئيسية.

[2] الليوان غرفة واسعة بثلاثة جدران مفتوحة بكليتها على أرض الديار تتوسط عادة المُربَّع البراني والقاعة وفي صدرها كتبيات.

[3] المقرنصات زخارف ونقوش خشبية نافرة بتصاميم هندسية دمشقية بديعة.

[4] الكتبيات، مفردها كتبية، خزائن خشبية حائطية دون أبواب أو بأبواب زجاجية تمتد من منتصف الجدار الذي يتصدَّر الغرفة إلى السقف تستعمل رفوفها لعرض التحف المنزلية من مزهريات صيني وشمعدانات فضة وكريستال وفوانيس وغيرها.

[5] الطبلة بلغة أهل دمشق العامية حائط مرتفع في أرض الديار يفصل البيت عن بيت الجيران.

[6] صالية في لغة أهل دمشق تعني غرفة واسعة ونيرة، في سياق هذه الرواية هي غرفة الطعام.

[7] المُربَّع هو غرفة معيشة كبيرة أرضيته مرتفعة عن مستوى البيت بحوالي نصف متر؛ له مدخل مستقل واطئ من أرض الديار يسمى عتبة وله باب. للمُربَّع نوافذ واسعة ونيرة تطل على أرض الديار.

[8]"كفاكير"، مفردها "كفكير"، ملاعق دائرية عميقة مختلفة الحجم أذرعها طويلة تستخدم في الطهي لسكب المرق والحساء.

[9] الداكونة هي خزانة خشبية صغيرة تحت الدرج تُستعمل عادةً لتخزين أدوات التنظيف وأدوات وملابس العمل في الحديقة وأرض الديار.

[10] المشرأة ويقال لها عندما لا تكون واسعة "الفرنكة" هي شرفة تُطلُّ على أرض الديار وتكون عادةً في نهاية الدرج الصاعد إلى الدور الثاني عند مدخله.

[11] ميل بلغة أهل دمشق هو إصبع أحمر الشفاه الذي تستعمله السيدات.

[12] الخِصْ، جمعها خصوص وهي بلغة أهل دمشق نوافذ زجاجية بوجوه خشبية محفورة بنقوش هندسية مفرغة تُفتح بدفعها من الأسفل نحو الخارج.

[13] "بيرو" كلمة أجنبية الأصل شائعة بين أهل دمشق القديمة للدلالة على قطعة خشبية من الأثاث لها دروج متعددة توضع في غرف النوم وتستعمل لحفظ الملابس الداخلية وبعض المُكملات.

[14]علي رضا باشا الركابي (١٨٦٤- ١٩٤٣) أمير لواء في الجيش العثماني، وسياسي. كان على صلة وثيقة بجمال باشا منذ أيامهما في حكم وإدارة العراق. من مؤسسي "الجمعية

العربية الفتاة" وجمعية "العهد". استدعاه المشير اوتوليمان فون ساندرز باشا قائد الجيوش العثمانية عند وصوله لدمشق (آمراً بانسحاب جيوشه شمالاً بعد انقطاع المدد والذخيرة عن المقاتلين في الجيش العثماني في فلسطين) وكلَّفه بضمان سلامة الجيش المنسحب بتعبئة وقيادة القرى المجاورة على خط سعسع القنيطرة، ممر الجيش الانكليزي القادم من الجنوب ليشغل طلائعه حتى يتم تراجع الجيوش العثمانية شمالاً بسلام. تعهد رضا باشا بالتنفيذ وعندما ذهب لأداء مهمته، خلع الثياب العسكرية العثمانية وارتدى الثوب العربي وأرسل للقائد الإنكليزي يخبره بخطة انسحاب الجيش العثماني ودلّ قائد طلائع الجيش الإنكليزي على منافذ الجيش العثماني المنسحب وراء قرية قطنا. عاد بعدها إلى دمشق بعد خروج المشير العثماني منها لاستلام منصبه الجديد تحت سلطة الإنكليز وأوامرهم.

[15] حسني الزعيم (١٨٩٦ - ١٩٤٩). من مواليد حلب من عائلة كردية. التحق بالأكاديمية الحربية العثمانية. يتهمه البعض بالهروب من صفوف الجيش العثماني خلال المعارك التي دارت دفاعاً عن فلسطين ضد الإنكليز وقوات الحلفاء عام ١٩١٧. انضم إلى القوة العسكرية الفرنسية أثناء الانتداب الفرنسي على سوريا في عام ١٩٢١. قاتل خلال الحرب العالمية الثانية في صفوف حكومة فيشي الموالية للنازية. شارك في عام ١٩٤٨ في حرب فلسطين. قام بأول انقلاب عسكري في تاريخ سوريا والوطن العربي في ٣٠ آذار، مارس ١٩٤٩ ونصب نفسه رئيساً للجمهورية العربية السورية بعد انتخابات شكلية. في ١٣ آب، أغسطس ١٩٤٩ قام سامي الحناوي بانقلاب عسكري على حسني الزعيم واعتقله. أدانته محكمة عسكرية شكلية بالخيانة العظمى وأعدم في دمشق رمياً بالرصاص.

[16] "معسفة" أداة يدها خشبية طويلة في رأسها خرقٌ تستخدم لمسح وتنظيف الأسقف المرتفعة.

[17] سيمفونية، مقطوعة موسيقية غربية كلاسيكية تعزفها فرق موسيقية متخصصة باحترافية عالية.

[18] السرما، هو نوع من التطريز اليدوي النافر يكون عادةً على قماش حريري تُستخدم فيه أنواع من الخيوط شبيهة بأسلاك رفيعة جداً ذهبية أو فضية أو مزيج منهما.

[19] الطحينة عبارة عن مزيج طحين السمسم الأبيض يحمص على نار هادئة في زيت السمسم ليصبح غليظ القوام. يُستعمل في بعض المأكولات الدمشقية لقيمته الغذائية العالية وطعمه المميز.

[20] الزلابية أو العَوَّامة بلغة أهل دمشق، نوع من الحلويات الدمشقية.

[21] كار، كلمة عامية يقابلها باللغة الفصحى كلمة مهنة.

[22] ردَّادات، مغنيات ثانويات.

[23] السكملات، مفردها اسْكَمْلِه وهي بلغة أهل دمشق طاولة صغيرة توضع أمام الضيف ليضع عليها فنجان قهوته أو كوب الشاي أو الشراب وتكون عادة عامرة بصحائف صغيرة من المكسرات والحلويات للتسلية.

[24] الحِق، وعاء من الفخار على شكل إبريق متطاول العُنُق يستعمل في بيوت دمشق القديمة لحفظ مياه الشرب. يحتفظ الماء فيه ببرودته وعذوبته لخاصية الارتشاح التي يتمتع بها الفخار.

[25] العصملية، بلغة أهل دمشق العامية تعني ليرة ذهب عثمانية.

[26] قهوة جنينة، كان موقعها مقابل ثانوية جودت الهاشمي الحالية في دمشق.

[27] مسرح القوتلي، كان موقعه في جادة السنجقدار أسس نحو سنة ١٩٠٠ واحترق في حريق الدرويشية الكبير سنة ١٩٢٨.

[28] أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٨٨٨ ميلادية فرمان منع فيه الهجرة الجماعية لليهود إلى فلسطين وحظر عليهم في عام ١٨٩٢ ميلادية شراء عقارات في سنجق القدس. في عام ١٨٩٥ ميلادية اشترط السلطان لدخول اليهود الأجانب إلى فلسطين ألَّا تتجاوز مدة إقامتهم فيها شهراً واحداً، وألحقها بتعليمات شفوية شديدة اللهجة طالب فيها البعثات الأجنبية بالتقيد بالأنظمة الجديدة للحد من تسلل اليهود إلى فلسطين. يجيب بول كامبون سفير فرنسا في إستنبول وزير الخارجية العثماني: "لا يمكن أن أوجه إلى قنصل فرنسا العام في القدس الأمر بالتقيد بالأنظمة التي تخص اليهود من رعايانا لأن القانون الفرنسي لا يستثني طوائف دينية بعينها ويعترف بالحقوق نفسها لجميع المواطنين الفرنسيين". ويضيف "بما أن للفرنسيين بموجب الاتفاقيات المعمول بها الحق بالمرور والإقامة والاستثمار في الإمبراطورية العثمانية فإن هذا الحق لا يمكن أن يكون موضع جدال بالنسبة إلى اليهود الفرنسيين الذين هم مواطنون فرنسيون".

F. M. A. E., serie Turquie (1912-1914), vol. 137, folio 25, Therapia, le 24 Septembre 1898 L'Ambassade de France a Constantinople au ministere imperiate des affaires etrangeres.

وجيه كوثراني. بلاد الشام في مطلع القرن العشرين، صفحة ٢٥٠.

[29] فتة، طبق من الخبز المحمر بالسمنة يُشبه الثريد.

[30] الشال، قطعة من الصوف أو الحرير ترميها السيدات على أكتافهن طلباً للدفء أو للزينة.

[31] الريال المجيدي، يعادل ٢٤ قرش حينها. (من الممكن استئجار عامل في ذلك الوقت بمرتب شهري مقداره ثلاثة ريالات مجيدية).

[32] اليوك، خزانة عميقة في الحائط في غرف النوم تغطيها ستارة تستعمل في البيوت القديمة التي لا تحتوي على سرير لوضع المخدات والفرشات التي تُفرش على الأرض في الليل للنوم عليها.

[33] ولد الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي في الأندلس في عام ١١٦٥ ميلادية وتوفي في دمشق عام ١٢٤٠ ميلادية. هو صاحب كتاب الفتوحات المكية أهم كتب التصوف الموغلة في التعمق. كتبها في بداية الأمر كرسالة أسماها الفتح المكي ثم أكملها حتى أصبحت تحتوي على ٣٧ سفر و٥٦٠ باب في أكثر من ٤٠٠٠ صفحة.

[34] كورنثية، نمط كلاسيكي للعمارة اليونانية والرومانية القديمة.

[35] ماري عجمي (١٨٨٨ – ١٩٦٥) شاعرة وأديبة ولدت في دمشق وتوفيت فيها. أنشأت أول مجلة نسائية باسم العروس في عام ١٩١٠ واستمرت في الصدور حتى عام ١٩٢٦. أسست النادي الأدبي النسائي في دمشق وجمعية نور الفيحاء ومدرسة لبنات الشهداء في عام ١٩٢٠، وكانت عضو في الرابطة الأدبية التي تأسست في دمشق في أوائل العشرينيات.

[36] الوِلِف، تعني الحبيب.

[37] أجزخانة، تعني صيدلية.

[38] الطواطي، اسم جمع ليس له مفرد في اللغة الدمشقية الدارجة وهي مخدات خشنة الملمس قاسية القوام، تكون على الغالب محشوة بالتبن المغلف بطبقة من القطن يليها طبقة من نسيج الكتان السميك.

[39] الانكشارية، هي قوات مشاة عُدَّت من النخبة بالجيش العثماني لا يعرف أفرادها مهنة سوى الحرب والقتال. شكَّلت هذه الفرق الحرس الخاص للسلطان تأتمر بأمره واعتبر السلطان العثماني الأب الروحي لأفرادها. للفرق الانكشارية تنظيم مختلف وشارات ورتب وامتيازات خاصة تختلف عن بقية الجيش العثماني. تأسست هذه الفرق في زمن السلطان مراد الأول وقام بإلغائها السلطان محمود الثاني بعد الاصطدامات العنيفة بينه وبين قادتهم لتدخلاتهم السياسية والإدارية.

[40] يعتقد الكثير، وبسبب ما ورد في الانجيل، خاصة في العهد القديم، بوجود كنوز لم يتم اكتشافها بعد في موقع الهيكل الذي بناه الملك سليمان ويصرون على أن موقع هذه كنوز، على الأغلب، تحت مسجد قبّة الصخرة، مكان عروج نبي الإسلام محمد إلى السماء، أحد أهم المقدسات الإسلامية.

[41] نازك العابد (١٨٨٧ – ١٩٥١) أديبة ومناضلة وناشطة اجتماعية سورية. ولدت في دمشق ودرست فيها. أتقنت اللغة العربية والتركية والفرنسية والألمانية وتعلمت التمريض وبرعت في فن التصوير الفوتوغرافي. والدها مصطفى باشا العابد من وجهاء دمشق. تولى والدها عدة مناصب في زمن الدولة العثمانية كان آخرها متصرفية الكرك والموصل. نفيت مع عائلتها إلى إزمير وحين عادت بدأت بالكتابة في عدة صحف محلية مثل "لسان العرب" و "العروس". أصدرت لاحقاً مجلة أدبية اجتماعية باسم "نور الفيحاء" وترأست جمعيتها الخيرية لمساعدة ضحايا الثورة السورية الكبرى. منحها الملك فيصل رتبة نقيب في الجيش السوري لمواقفها الوطنية.

[42] "البرجيس" لعبة مشهورة في دمشق يستعمل فيها زوج من النرد ويتنافس فيها فريقان على الوصول إلى مركز المربع الذي تحدده مساراتٌ أربعة مطرزة على قطعة كبيرة من المخمل الأسود أما أبو الفول فهي لعبة يُستخدم فيها "الورق" أو "الشدّة". يمكن أن تضم عدد كبير من اللاعبين والخاسر في نهاية اللعبة من لم يستطع التخلص من "الجوكر" أو أبو الفول.

[43] أُنشِئَ في نهاية القرن التاسع عشر صندوق استكشاف فلسطين البريطاني والمدرسة الفرنسية للآثار التوراتية. كان الهدف من إنشاء هذه الهيئات تسجيل اكتشاف الآثار والكنوز التي يُعتقد أنَّها مدفونة في الممالك اليهودية البائدة التي ورد ذكرها في الكتب الدينية، وتحديداً في الإنجيل، في عهده القديم المعروف بالتوراة. اكتشاف هذه الآثار، كان ولا زال أمراً مُهماً عند البعض لترسيخ دعوة انتماء اليهود لفلسطين وحقِّهم في إنشاء دولتهم في أرض الميعاد. رُغم فشل أعمال التنقيب في اكتشاف هذه الكنوز، قامت دولة إسرائيل في عام ١٩٤٧ ميلادية على أنقاض تهجير وتشريد مئات الآلاف من الفلسطينيين. كيف يمكن لهذه المأساة الإنسانية أن تحدث؟ هي طبيعة المجموعات البشرية عندما تغرق في متاهات التدين، وتكسوها نزعة الهمجية الأولى المتأصلة في البشر بقدسية الفتك والتدمير. معاناة اليهود من الظلم عبر العصور مُوَثَّقَة ومعروفة، رغم أن يشوع بن نون، خادم النبي موسى وقائد حروب الرب التي وصفها الكتاب المقدس بأنها حروب لتطهير الأرض من الخطَّائين، دمَّر في حروبه واحد وثلاثين مملكة وقرية آمنة وأباد شعوبها الكنعانية "الرجسة"، على حد تعبير السفر السادس من التوراة، حتى لا تتعرض حياة الجماعة اليهودية "المقدسة" للخطر. بمعنى آخر، حروب الرب الواردة في التوراة كانت أول توثيق تاريخي لحروب إبادة أو هولوكوست نفذها شعب لتأدية فريضة دينية مهمتها الحفاظ على عرق بشري يؤمن بتفوقه على المجموعات

الإنسانية الأخرى بتصريحٍ إلهي، شعب الله المختار. علماً بأن تاريخ الأقوام اليهودية ومعاناتهم الإنسانية لا تختلف عن تاريخ أقوام أخرى عانت ما عانت من التناحر والفتك بسبب الأفكار الدينية المُتطرفة أو المعتقدات العرقية التي كانت سائدة بينهم في أزمنتها. الصراع العربي الإسرائيلي لن ينتهي وسيزداد بشاعة طالما هناك مجموعات من كلا الطرفين تؤمن بأن الإله اختارها دون غيرها لتنفيذ مهمة تطهير الأرض من "رجس الشعوب الأخرى"، أو بمعنى أدق تصفية "الآخر" الذي لا ينتمي إلى النخبة. أفكار عنصرية بغيضة يدعمها ويباركها إله منحاز لفئة، تعتقد بأنه اصطفاها دون غيرها ليبارك جرائمها الإنسانية ويُبرر نزعة الإبادة والفتك والإرهاب والتدمير التي تمُارسها.

[44] حصل باركر على الموافقة لبدء مشروعه في ٣ ذو القعدة ١٣٢٦ الموافق ٢٦ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٠٨. بدأت أعمال التنقيب لتحقيق مشروعه بسرية تامة في خريف ١٣٢٦ هجرية الموافق ١٩٠٨ ميلادية واستمرت أعمال التنقيب عن كنوز هيكل الملك سليمان حتى مطلع عام ١٣٣٠ هجرية، الموافق ١٩١٢ ميلادية. مول مشروع باركر أثرياء من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وتجاوزت تبرعاتهم ال ٢٥ ألف جنيه. ناقش باركر مشروعه بسرية تامة مع ممثلين عن الدولة في إستنبول وطلب إذناً للسماح له بالتنقيب في أرضٍ قرر شراءها في القدس. وقع العقد عن الجانب العثماني رئيس الوزراء حينها كامل باشا ووزير المالية ضياء باشا. كفل باركر بموجب هذا العقد ٥٠٪ من أرباح مشروعه للحكومة العثمانية مقابل تسهيلات تقدمها الحكومة لنقل ملكية الأرض المزمع شراؤها. مدة العقد سنة واحدة قابلة للتجديد.

[45] على سبيل المثال لا الحصر، في تقرير أُرسل إلى محكمة بيروت التي أوكِل إليها التحقيق في حادثة الحرم القدسي الشريف في ربيع عام ١٣٢٩الموافق ١٩١١ ميلادية. ذكر حاكم نابلس على لسان بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية أن أراضي الأهالي المحليين قد "ضاعت" وانتقلت ملكيتها للأجانب. كان هذا التصريح تلميحاً من غبطة البطرك إلى انتقال ملكية هذه الأراضي بمعاملات مشبوهة تعتمد على الضغط على الأهالي لبيع أراضيهم كرهاً أو نقل ملكيتها احتيالاً. وضعت الامتيازات الممنوحة للأجانب بحماية قنصليات بلادهم، خاصةً أثرياء اليهود من رعايا الدول الأوروبية، في مأمن من أي مسائلة قانونية وجعلتهم في مرتبة اجتماعية مُتنفذة ضد أهل البلاد. هكذا تمَّ تسريب عشرات الآلاف من يهود أوروبا الفقراء تحت أنظار السكان المحليين من الفلسطينيين بعد طردهم من الأراضي التي كانوا يعملون فيها وإيواء الوافدين بصفة غير شرعية في الأراضي الزراعية الواسعة التي اشتراها الأثرياء اليهود لتتحول هذه الأراضي من مصدر

رزق للفلاحين المرتبطين بالأرض منذ عشرات السنين إن لم يكن من مئات السنين إلى أوقاف لا يُسمح بدخولها أو العمل فيها لغير اليهود. عنصرية بغيضة، مارستها الصهيونية المُتطرفة حينها بحماية قانون عثماني غبي وجائر.

[46] التم شمل البرلمان في ١٠ جمادى الأول ١٣٢٩ الموافق ٨ أيار، مايو ١٩١١. أكَّد وزير الداخلية خليل بك خلال هذا الاجتماع أنَّ عقداً للتنقيب عن الآثار كان قد تمَّ بالفعل توقيعه مع باركر في عام ١٣٢٥ الموافق ١٩٠٨ميلادية ومُدِّدت فترته حسب الأصول، وذلك حرصاً من الدولة على الكنوز المدفونة ولمنع سرقتها في حال اكتشافها. أصرَّ الوزير في خطابه على حسن نية الحكومة وأنها تصرَّفت بطرق قانونية سليمة للمحافظة على ثروات البلاد من الضياع. انتهى خطاب الوزير بجدل ساخن بين أعضاء البرلمان للتأكيد على أن العقد الموقع لأعمال التنقيب التي يقوم بها باركر انتهاك صريح لحرمة المقدسات الإسلامية. وعد وزير الداخلية بالعودة للإدلاء بنتائج التحقيق الجاري حول حادثة الحرم الشريف وأنه سيأخذ بعين الاعتبار التحفظات التي أبداها أعضاء البرلمان وكتلة المعارضة حول نصِّ العقد الموقع والصلاحيات الممنوحة بموجبه لباركر.

[47] روحي الخالدي (١٨٦٤-١٩١٣) عضو بارز في جمعية الاتحاد والترقي الحاكم. انتخب وسعيد الحسيني ممثلين عن القدس في البرلمان. كانا من المؤيدين الداعمين للدستور الذي سيؤدي حسبما ارتؤوا إلى توحيد رعايا الدولة العثمانية في مجتمع متجانس يتمتع فيه المواطنون بحقوق وواجبات متساوية مما يعطي الدولة العثمانية دفعة جديدة لمواجهة التحديات والتهديدات الداخلية والخارجية التي تمارسها الدول الغربية عليها.

[48] شكري العسلي (١٨٦٨- ١٩١٦) محامي وصحفي وسياسي. ولد في دمشق وتعلم في مدارسها وأتمَّ دراسته في المدرسة السلطانية العليا في إستنبول. عين قائم مقام الناصرة وكان عضواً في البرلمان ممثلاً لكتلة المعارضة. حكم عليه أحمد جمال باشا بالإعدام شنقاً بتهمة التآمر ونفذ الحكم في ٤ رجب ١٣٣٤ الموافق ٦ أيار، مايو ١٩١٦. له عدد من المؤلفات منها "القضاء والنواب"، "الخراج في الإسلام"، و"المأمون العباسي".

[49] هو أحد أحفاد الأميرة رافعة بنت السلطان عبد المجيد الأول من زوجٍ يقال أنَّه من الأشراف (سليل آل بيت الرسول).

[50] جاء في التقرير الذي قدمه وزير الداخلية إلى البرلمان حول حادثة الحرم القدسي الشريف أن المحقِّقين لم يجدوا علاقة أو ارتباطاً مباشراً بين حاكم القدس وبين فريق التنقيب المعني بحادثة الحرم الشريف. ما أساء سامي بك ودفعه للاستقالة هو استعمال رجالات الحكومة المركزية صلاحياتهم لإكراه أصحاب الأراضي في القدس وما جاورها على

بيع ممتلكاتهم لصالح أعمال التنقيب ومصادرة أراضي من يرفض البيع زوراً وبُهتاناً. نشاطات مشبوهة جنَّدت لها إستنبول رجالاتها لحماية استثمارات الأجانب المُتنفِّذين خوفاً من ردود أفعال قنصلياتهم.

[51] انتهى التقرير الذي أعدَّته لجنة تحقيق الحكومة المركزية في حادثة الحرم الشريف وقُدِّم إلى البرلمان بتاريخ ٢٠ جمادى الأول ١٣٢٩ الموافق ١٣ أيار، مايو ١٩١١. رغم عدم تورط حاكم القدس، عزمي بك، في الحادث إلا أنَّ البرلمان، ولاعتبارات سياسية، اعتبره المسؤول الأول عن الفوضى التي عمَّت في البلاد وأن استمراره في منصبه سيكون مثاراً للجدل. امتصت هذه المبادرة السياسية التي اتخذتها إستنبول بموافقة البرلمان الغضب الشعبي العارم لحادثة الحرم لكنَّها لم تحقق العدل وتُعاقب فساد الرؤوس الكبيرة في الحكومة المركزية. طُويت صفحة حادثة الحرم الشريف عندما بلَّغ وزير الداخلية البرلمان في جلسته المُنعَقِدة في ١٦ جمادى الآخر ١٣٢٩ الموافق ٤ حزيران، يونيو ١٩١١ قرار الحكومة المركزية بسحب عزمي بك من القدس. في ١٦ جمادى الآخر ١٣٢٩ الموافق ١٣ حزيران، يونيو ١٩١١ تم إرسال سدنة الحرم الشريف الشيخ خليل الأنصاري وولديه ومترجم فريق الاستكشاف البريطاني للمثول أمام المحكمة في بيروت وتم لاحقاً حبسهم بتهمة التآمر والفساد؛ بهذا تم امتصاص النقمة الشعبية في القدس بإنزال عقوبة الحبس في صغار الموظفين بينما نجا من الحساب أصحاب المناصب الرفيعة الذين وقعوا عقداً غير محدود الصلاحيات مع باركر في إستنبول وساعدوه بالتهديد والوعيد على امتلاك أراضٍ لم يرغب أصحابها ببيعها. في شهر رمضان ١٣٢٩ الموافق أيلول، سبتمبر ١٩١١، عاد باركر إلى القدس حسبما جاء في جريدة التايمز اللندنية لاستئناف مشروعه بموافقة السلطات في إستنبول الذين قاموا بتعيين مسؤولين جدد للإشراف على مشروعه. تم تسهيل عودة باركر من قبل جاويد بك وزير المالية. اضطرار باركر بعد أشهر قليلة التنازل عن مشروعه تحت الضغط الذي مارسه حاكم القدس الجديد على إستنبول. فقد جاء في تقرير شديد اللهجة رفعه حاكم القدس، جودت بك، إلى رئيس الوزراء في إستنبول قال فيه بأن عودة باركر إلى القدس تخلق إثارة جديدة لمشاعر المسلمين ومن المستحيل التنبؤ بردود فعل أهالي القدس أو السيطرة عليهم في حال تجدد الاضطرابات بسبب التجاوزات التي يمارسها باركر وفريقه بحماية قنصلية بلاده. هكذا تمَّ إخلاء باركر وحملته الاستكشافية من القدس ومنعه من العودة لتجنيب الدولة العثمانية هزَّة جديدة لكيانها.

[52] تمَّ بناء أول حلبة مخصصة لسباق السيارات في عام ١٩٠٧ بمدينة بروكلاند في إنجلترا وكانت مسافتها ٣ كيلومترات من الإسمنت بمنعطفات حادة.

[53] في عام ١٩١٦ بنى أحمد جمال باشا على الطراز الشرقي الأندلسي أول صالة عرض سينمائي ومسرح أوبرا على الطراز الأوروبي في منطقة الصالحية في دمشق أسماها "تشاناق قلعة" تخليداً لانتصار الجيش العثماني على الإنكليز والفرنسيين في المضيق المائي الذي يصل بحر مرمرة بالبحر الأبيض المتوسط. قام بتدشين صالة العرض في ١٧ ربيع الثاني ١٣٣٤ الموافق ٢٠ شباط، فبراير ١٩١٦ بحضور أنور باشا وكيل القائد الأعظم للجيوش العثمانية، ناظر الحربية. لم تستمر هذه المنشأة الفخمة سوى أسابيع معدودة؛ شبَّ فيها حريق أتى عليها قيل أنَّه بفعل فاعل.

[54] محمد سعيد بن علي بن عبد القادر الجزائري (١٨٨٥ - ١٩٦٦) حفيد الأمير عبد القادر الجزائري. كان سياسياً ومناضلاً وشاعراً صوفياً من أتباع الطريقة القادرية. تولى ليلة خروج الجيوش العثمانية وأخاه الأكبر عبد القادر ومجموعة من الأعيان حماية دمشق وممتلكاتها من النهب حتى دخول فيصل بن الحسين بحماية الإنكليز إليها.

[55] أُنشئت أول مطبعة في إستنبول سنة ١٧١٢ ميلادية.

[56] فخري البارودي (١٨٨٧ - ١٩٦٦) صحافي وعسكري وسياسي وشاعر. ولد في دمشق وتخرج من مدارسها. قاتل في فلسطين في صفوف الجيش العثماني. أسره الإنكليز في معركة بئر السبع وسجن في القاهرة. عاد بعد الإفراج عنه ليعمل ضابطاً في بلاط الملك فيصل. خدم نائباً في البرلمان السوري حتى اعتزاله العمل السياسي في عام ١٩٤٨. اهتمَّ بجمع وتدوين التراث الموسيقي العربي.

[57] Theodore Roozvelt رئيس الولايات المتحدة الأميركية، زار مصر في السنة التي تلت انتهاء مدة حكمه. قال في خطبته في الجامعة المصرية في القاهرة في آذار، مارس، ١٩١٠: "لا يمكن تربية الفرد تربية حقيقية بتلقينه بعض العلوم، كما أنه لا يمكن إعداد شعب للحكم الذاتي بإعطائه دستوراً على ورق لأن تربية الأمة لتصير أهلاً لحكم نفسها ليست مسألة عشر سنين أو عشرين سنة، بل هي مسألة أجيال متتابعة؛ إن بعض الجهلاء يعتقدون أن منح الأمة دستوراً على ورق وبخاصة إذا كان مُفتتحاً بعبارات فخمة، من شأنه أن يمنح الأمة قوة الحكم الذاتي، مع أن شيئاً من ذلك لا يكون بتاتاً".

[58] جريدة المقطم، هي جريدة يومية سياسية صدرت في عام ١٨٨٨ واستمرت إلى عام ١٩٥٢. أنشأها يعقوب صروف وفارس نمر، وشاهين مكاريوس في القاهرة.

[59] دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول المحور في تشرين الثاني، نوفمبر ١٩١٤ وفتحت جبهات ضد جيوش الحلفاء في القوقاز، بلاد الرافدين، وشبه جزيرة سيناء.

[60] بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى ولأسباب أمنية وسياسية انتقلت مدرسة الحقوق من بيروت إلى دمشق.

[61] أحمد جمال باشا (١٨٧٣ - ١٩٢٢) أمير لواء، وزير البحرية وأحد أقوى رجالات حزب الاتحاد والترقي. منحته السلطة العثمانية صلاحيات واسعة وعين والياً عسكرياً على سوريا وعهدت له عند دخولها الحرب قيادة الجيش الرابع. قتله رجل أرمني عام ١٩٢٢ في تفليس التي فر إليها بعد هزيمة بلاده.

[62] أعدم أحمد جمال باشا بتهمة التآمر على أمن الدولة العثمانية كلاً من: الأمير عمر الجزائري، شفيق بك مؤيد العظم، الشيخ عبد الحميد الزهراوي، رشدي بك الشمعة، شكري بك العسلي، رفيق رزق سلوم، عبد الوهاب الإنكليزي، بعد محاكمتهم في عاليه في جبل لبنان ونُفِّذ حكم الإعدام فيهم شنقاً في دمشق بتاريخ ٤ رجب ١٣٣٤ الموافق ٦ أيار، مايو ١٩١٦.

[63] أحمد جاويد بك، من أبرز أعضاء حزب الاتحاد والترقي. يقال أنَّه من يهود الدونمة الذين اعتنقوا الإسلام. شغل وظائف مختلفة في الدولة العثمانية وأصبح نائباً ثم وزيراً للمالية في الحكومة المركزية. تمتع بصلاحيات واسعة لعقد الصفقات الاقتصادية وكان على علاقة وثيقة بأثرياء اليهود في فرنسا. يُقال، بأنه قام بتسهيل بيع أراضي واسعة للصهاينة في فلسطين. استقال جاويد بك من منصبه لأنه كان مرتبطاً بصفقة القروض التي عقدها لحساب الدولة العثمانية مع فرنسا متعهداً بأن لا يدع دولته تدخل في حربٍ ضدها.

[64] أودع جمال باشا في السجن جماعة من المنتمين إلى حزب اللامركزية وأعدم منهم أحد عشر شخصاً في بيروت في شهر آب، أغسطس ١٩١٥ بتهمة تهديد كيان الدولة والتآمر على وحدة البلاد.

[65] حضر لاستقبال موكب دولة أنور باشا، جمال باشا قائد الجيش الرابع وناظر البحرية، عزمي بك والي سورية، فضيلة أبو الخير أفندي عابدين مفتي دمشق، وعلي رضا بك الركابي رئيس بلدية دمشق وكبار علماء وشيوخ وأعيان المدينة وما جاورها من الأقضية التابعة لها. توجه الضيف بعد الاستعراض العسكري الرسمي لزيارة ضريح سيدنا الحسين وصلاح الدين وشهداء الطيران وقرأ الفاتحة على أرواحهم؛ قدَّم أنور باشا خلال زيارته مصحفين، أهدى أحدهما لضريح سيدنا يحي وأهدى الثاني لضريح السلطان صلاح الدين. انتقل بعدها بصحبة جمال باشا لزيارة ضريح الشيخ محيي الدين بن عربي حيث استقبلهما بحفاوةٍ لائقة حشدٌ كبير من مشايخ الطرق الصوفية. أُقيمت فور وصوله حلقات

الذكر وتُليت الصلوات على النبي. اختتمت الزيارة بالدعاء بالتوفيق لجلالة خليفة الإسلام، السلطان المعظَّم، لما فيه خير هذه الأمة وصلاحها. أقامت بعدها جمعية الاتحاد والترقي حفلاً تكريمياً للضيف الكبير في سينما "تشاناق قلعة" عرضت خلالها مجموعة من اللوحات والصور المتحركة لبعض الإنجازات العسكرية والانتصارات الحربية التي حققتها جيوش الدولة. حضر العرض عدد من رجال القوات العسكرية وبعض أعيان دمشق. خرج القائدان بعد العرض على أنغام الموسيقى العسكرية قامت بعزفها فرقة تابعة لمدرسة الصنائع. توجه دولة أنور باشا وصحبه بعد استراحةٍ قصيرة إلى دار الولاية تلبيةً لدعوة الغداء التي أقامها عزمي بك والي سورية وجاب القائدان بعد صلاة العصر أنحاء مدينة دمشق وضواحيها مفتشين الثكنات والمستشفيات والمستودعات ومصانع الذخيرة وغيرها من الأماكن العسكرية. عادا بعد هذه الجولة إلى مقر معسكر الجيش الرابع لزيارته وتفقد استعداداته. أهدى علي رضا بك الركابي رئيس بلدية دمشق باسمه وباسم البعض من أعيان دمشق لدولة أنور باشا سيفاً دمشقياً تاريخياً مرصعاً بالجواهر. بعد أداء صلاة المغرب أقامت بلدية دمشق للضيف الكبير مأدبة عشاء تليت فيها الخطب والقصائد وقدَّم مبعوث حوران وجبل لبنان، الأمير شكيب أرسلان لدولة أنور باشا دعم الدروز واستعدادهم لتقديم دمائهم فداء للدولة العثمانية.

[66] محمد كرد علي (١٨٧٦ - ١٩٥٣) مفكر وكاتب ولد في دمشق لأبٍ كردي وأم شركسية. أسس جريدة المقتبس في عام ١٩٠٦ واضطر لإقفالها بسبب الوشايات والرعب والإرهاب الذي مارسه أحمد جمال باشا على مثقفي ومفكري الأمة. أنشأ المجمع العلمي في دمشق سنة ١٩١٩ أيام الحكومة العربية الأولى وولي وزارة المعارف مرتين في زمن الاحتلال الفرنسي؛ له عدة مؤلفات.

[67] أغفل جمال باشا لسوء تقديره وعنصرية تفكيره التعامل مع الشريف حسين الذي جنَّد قبائل البدو للوقوف في صفِّ بريطانيا وحلفائها ضد الجيوش العثماني .[اعتقد جمال باشا بأنَّ مجموعات جهادية مُسلَّحة من بدو صحراء الجزيرة لا يمكن أن تُشكِّل خطراً يهدد جيش نظامي كجيش الدولة العثمانية التي حكمت الشرق لأربعمائة عام. لم يُقدِّر أنَّ ثورة بدو الجزيرة، ستكون المسمار الذي ستدقه جيوش الحلفاء في نعش الإمبراطورية العثمانية تمهيداً لدفنها. سوء تقدير جمال باشا، فساد الحكومة المركزية، قلّة وعي وميل شعوب المنطقة للتآمر ضدَّ بعضهم البعض وضد مصالحهم، وعوامل أخرى عديدة تضافرت لتُغرق المنطقة في مأساة الاستعمار الغربي والانقسامات الجغرافية وما تلا ذلك من صراعات دامية. ستعاني أجيال أجيالنا من تبعات هذه الحرب التي خطط لها الغرب بإحكام وقمنا

نحن، أبناء المنطقة بتنفيذها.

[68] جريدة الشرق، كانت تصدر عن الجيش بتمويل من أحمد جمال باشا. ترأس تحريرها محمد كرد علي.

[69] ضمَّ الفيلق الثامن في فلسطين سلاح الفرسان وهو لواء خيالة بثلاثة أفواج.

[70] صمدت القوات العثمانية في فلسطين من آذار، مارس ١٩١٧ إلى تشرين أول، أكتوبر من العام نفسه رغم انقطاع الذخيرة وإسعافات الجرحى والطعام عنها. صمد جنود الدولة العثمانية عرباً وأتراكاً وخسر الإنكليز أمامهم في معركتي غزة الأولى ٢٥-٢٧ آذار، مارس، ١٩١٧ وغزة الثانية ١٨-١٩ نيسان، أبريل، ١٩١٧ باعتراف قائدهم الجنرال موراي. قامت القيادة الانكليزية بعدها بإزاحة الجنرال موراي وعينت الجنرال ادموند أللنبي مكانه في ٢٨ حزيران، يونيو، ١٩١٧. تقدمت بعدها أساطيل الدول المتحالفة وسدت البوارج الإنكليزية منافذ البحر وقامت بقصف مكَثَّف على العريش وغزة ويافا واستولت عليهم. جعل قائد الجيش العثماني مدينتي نابلس وطول كرم مقراً للجيش السابع والثامن وجعلوا مدينة السلط مقراً للجيش الرابع بقيادة جمال باشا الصغير واختيرت الناصرة لتكون مقراً لقيادة الجيش العامة التي تولاها في حينها المشير اوتوليمان فون ساندرز باشا الألماني. بعد سقوط القدس، جاءت الأخبار بأن الجيش العثماني انسحب لإعادة تنسيق قواته ورابط شرق مدينة يافا بانتظار الإمدادات لتعزيز مواقعه لاستعادة القدس. بقيت الجيوش العثمانية صامدة في مواقعها واستطاعت صد هجمات دول الحلفاء وإيقاف تقدمهم في فلسطين لأكثر من تسعة شهور. نسف خطوط السكك الحديدية الحجازية أدى إلى عزل آلاف الجنود العثمانيين وقطع أي أمل في وصول الإمدادات والإسعافات الأولية إلى صفوف المقاتلين على جبهة فلسطين. جاءت الأخبار أيضاً لتُحذِّر بأنَّ بعض الأقليات في لبنان طالبوا بحماية فرنسا ويدعون جيشها الذي تغلغل في البلاد لاحتلال دمشق. عندما أثقلت البوارج الإنكليزية على الجيش السابع في طول كرم، ودخلت سرية إنكليزية تحت جنح الظلام مقر قيادة الجيش العثماني في مدينة الناصرة، قرر قائد الجيش العثماني اوتوليمان باشا الانسحاب قبل أن تقطع عليهم فرنسا خط رجعتهم إلى تركيا عبر سوريا. أمر قائد الجيوش العثمانية الجيشان السابع والثامن بالانسحاب باتجاه دمشق وتبعهما الجيش الرابع. عندما بلغوا دمشق تفرقوا وتابع من تابع منهم باتجاه الأناضول.

[71] في ٩ كانون الأول، ديسمبر، ١٩١٧ دخلت جيوش الحلفاء مدينة القدس بقيادة الجنرال الإنكليزي إدموند أللنبي. يُقال بأن الجيوش الانكليزية التي زحفت تحت قيادته لاحتلال

القدس حملت ١٠٠ ألف مقاتل معظمهم من الهنود كما تم تشغيل آلاف المصريين في خدمات الجيش الانكليزي.

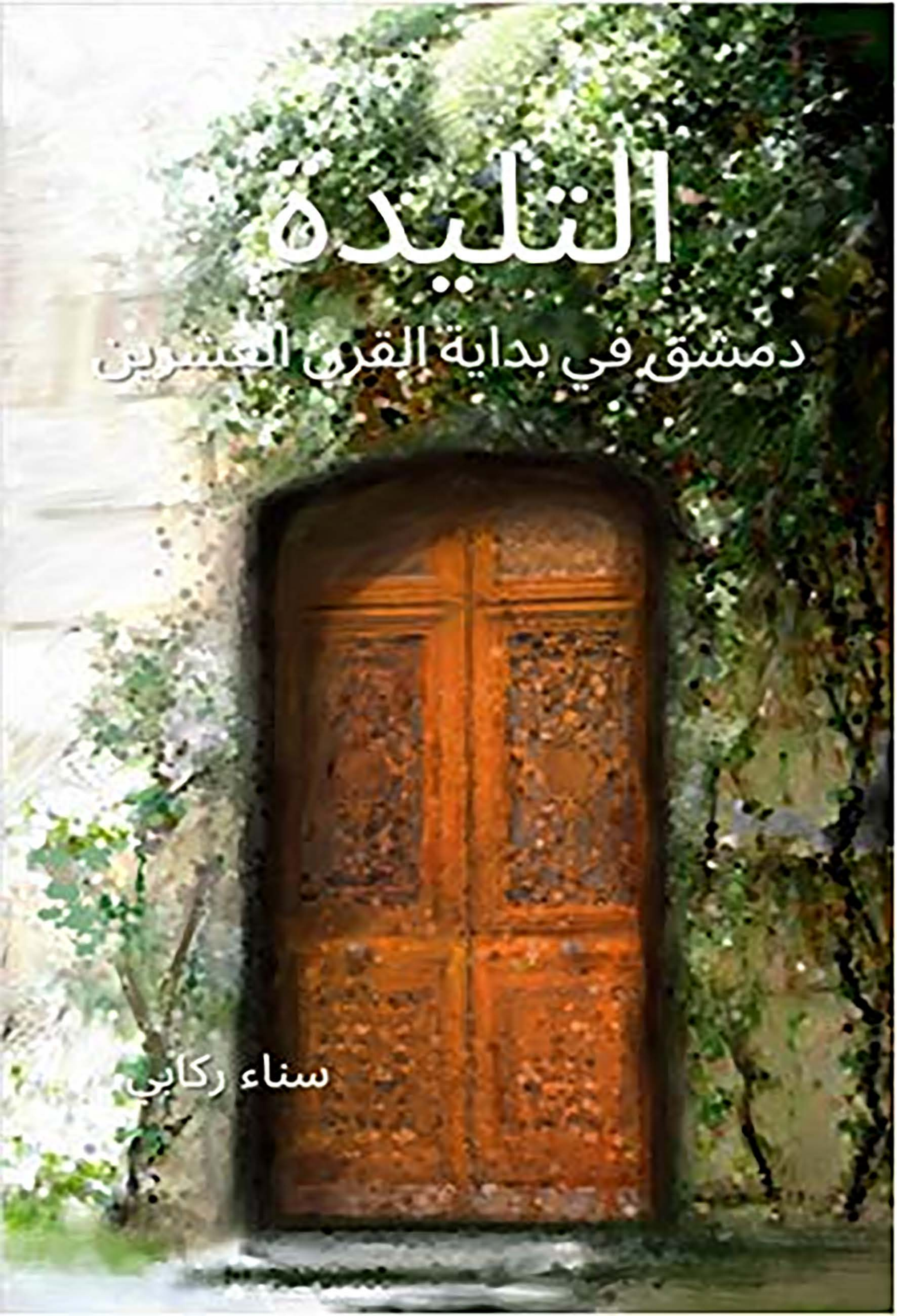
[72] في خريف عام ١٩١٨، وتحديداً في ٣١ تشرين الأول، أكتوبر، ١٩١٨ وضع اتفاق انتهاء الحرب بين جيوش الحلفاء وجيوش المحور موضع التنفيذ. انسحبت الجيوش العثمانية من فلسطين عبر بلاد الشام وتفككت وتمَّ ترتيب انسحاب بقية قواتها من اليمن والحجاز معلنةً الهزيمة. أفل بذلك نجم الدولة العثمانية، آخر امبراطورية إسلامية حكمت الشرق لأكثر من أربعمئة سنة.

[73] بلغ عدد مُجنَّدي الجيش العثماني عند بداية الحرب في فلسطين، حسب بعض الإحصائيات الغير دقيقة، ١٠٤ آلاف مُجنَّد بينهم ٢٩ ألف مُقاتل انتموا إلى أعراق متعددة كان مُعظمهم من العرب. حارب هؤلاء جيوش الحلفاء ودافعوا عن وطن نخره الجشع والفساد وخربه الطمع في السلطة. كان الجندي العثماني المقاتل في فلسطين، كما وصفه المؤرخ الفلسطيني خليل سكاكيني في مذكراته في ٢١ تشرين الثاني، نوفمبر، ١٩١٧ "جائعاً، رث الثياب، ممزق الحذاء قائماً وراء مدفعه يتفقفق من البرد ويتضور من الجوع".

ورد في كتاب "مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها" في صفحة ٢٢٤ أن المؤلف عبد العزيز العظمة رأى بأم عينه عند قبيلة بني لام العراقية بنادق من نوع مارتيني الإنكليزية منقوشاً في داخل خزانة التلقيم بالخط العربي المذهب "متى ينهض العرب". أرسل هذه البنادق حاكم الهند الإنكليزي يحض العرب على القتال إلى جانبهم لدحر الامبراطورية العثمانية.

بعد سقوط الدولة العثمانية احتلت فرنسا وإنكلترا بلاد الشام. استمرت معاناة شعوب المنطقة لعقود بسبب السياسات الاستعمارية الغاشمة وتابعنا نحن، أهل البلاد، لقلة وعينا وتخلفنا، بعد جلاء المستعمر مسلسل زعزعة أمن واستقرار المنطقة تارة بالمؤامرات وأخرى بالحروب، إلى يومنا هذا.

[74] زواج "نصراني" تعني زواج لا طلاق فيه ولا يفترق فيه الزوجان إلا بالموت.


التليدة
دمشق في بداية القرن العشرين
سناء ركابي